موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف
أ. د. عقيل حسين عقيل
جامعة الفاتح - كلية الآداب

الجزء الثالث

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

القابض

القبض: فعل يستوجب قوة. ولا يتم إلا بطرفين غير متساويين، قوي وضعيف، غني وفقير، خائف ومخيف، محتاج ومحتاج إليه، مهيمن ومهيمن عليه، مسيطر ومسيطر عليه، ولذا فالقبض فعل يترتب عليه الأخذ والاستسلام مع القبول بالاشتراطات، وقد يترتب على فعل القبض الندم والاستغفار، وفي بعض الأحيان لا يتم ذلك بيسر، وقد لا يتم إلا للقابض المطلق الذي يمتلك فعل الأمر (كن فيكون كل شيء كما يُراد له أن يكون).

القبض في لسان العرب: "يطلق على التقتير والتضييق، وعلى الجمع كما في قبض الله السماء والأرض"[١].

ويقول أبو حامد الغزالي: القابض هو "الذي يقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويقبض الرزق عن الفقراء حتى لا يُبقي طاقة، ويقبض القلوب فيضيقها بما يكشف لها من قلة مبالاته وتعاليه وجلاله"[٢].

وقال ابن القيم في نونيته:

هو قابض هو باسط هو خافض   هو رافع بالعدل والميزان[٣].

القبض في اللغة كما يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل: هو "الإمساك عن الشيء ومن الشيء"[٤].

ويقول الإمام مجد الدين ابن الأثير الجزري: "القابض هو الذي يمسك الرزق وغيره من الأشياء عن العباد بلطفه وحكمته ويقبض الأرواح عند الممات"[٥].

قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٦]. قال النحاس: (ما قدَّروا الله حق قدره) ما عظموه حق

---

[١] لسان العرب المحيط، الثالث، ١١.

[٢] أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. مصدر سابق، ص ٦٢.

[٣] حصة بنت عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٥٩.

[٤] محمد بكر إسماعيل، مرجع سابق، ص ٩٣.

[٥] يوسف المرعشلي، ولله الأسماء الحسنى، مرجع سابق، ص ١٢٧.

عظمته بشركهم معه ما خلق[7]. لم يعظموه وهو المهيمن والمسيطر بقدرته على الأرض والسماوات السبع وهو على كل شيء قدير. إنه المُنزَّه عن انعدام القدرة والقوة المطلقة التي بها يوم القيامة يطوي السماوات بيمينه وكأنها شيء صغير، وسيكون المشهد واضحا أمام الذين آمنوا ولم يشركوا مع الله أحدا.

قال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ}[8]. المنافقون والمنافقات حالهم واحد فلا فرق بينهم حيث انعدام الصدق بقولهم، لما لا يفعلون؟ فهم الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، أي يأمرون بما لا يُرضي الله جل جلاله ولا يُرضي المصلحون في الأرض ولا يُقدِّرون أعرافهم التي ارتضوها بينهم ناموسا أخلاقيا وإنسانيا، وفوق ذلك يملأ أنفسهم الشح فيقبضون أيديهم عن العطاء وأفعال الخير، فهؤلاء ومن هم على مثلهم نسوا ما أمر الله به أن يُفعل فنسيهم الله تعالى من فضله مما يجعلهم من المحرومين من مغفرة وجنَّة عرضها كعرض السماوات والأرض.

القبض فعل مؤقت لا يدوم بالمطلق فإن دام أصبح سكونا، والسكون ليس بقبض. فمن يقبض عليه العطش، سيكون في حالة ظمأ إلى أن يرتوي بالماء وحينها تزول الشدة التي كانت بأثر العطش، والجوع قبض على الجائع وبالأكل يُسدّ الرمق ويتحقق من بعده الإشباع وتزول الكروب التي هي بفعل الجوع، وهكذا المرض قبض لا يدوم بالمطلق أمام قوة الشفاء المندفعة تجاه المريض الذي يعاني من شدة قبضت المرض وآلامه الموجعة. وبالمطلق الحياة والموت بيد القابض المطلق ووجودهما مؤقت، فكما تقبض الموت على الحياة يقبض البعث على الموت مما يجعل كل منهما ليس بدائم أمام القابض الدائم جل جلاله ولذا فالقاعدة (وراء كل قابض قابض إلى القابض المطلق).

---

[6] الزمر، ٦٧.

[7] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الخامس عشر، ص ٢٧٧.

[8] التوبة، ٦٧.

وبناء على هذه القاعدة، يستمد القابض بالإضافة قوته وقدرته من القابض المطلق حتى تعمه صفة القبض التي تجعله على حالتين من السلوك هما:

. القابض على من هم أقل منه قوة ومقدرة فالإنسان قوته تتمركز على ملكاته واستخداماته العقلية التي تجعله مسيطرا على من لا يفوقه قوة عقلية حتى وإن كانت له قوة بدنية أو قوة سامة أو مؤذية.

. مقبوض عليه من قبل من يفوقه قوة، أي يفوق قوته الفردية بقوة فردية كما هو الحال أثناء المبارزات والألعاب الرياضية، وبالقوة المجمَّعة أو المجتمعة كما هو حال تفوق سلطان الدولة وقوتها على قوة الفرد أو الجماعة المحدودة، وكذلك كما هو الحال أثناء الحروب التي تدار رحاها بالقوات المُجمَّعة مما يجعل النصر تحت قبضة القوي والهزيمة تلحق من كان أقل قوة وفطنة، وهكذا لو تدخلت قوات أخرى مُجمَّعة لتسند القوة المنهزمة فتقلب الموازين التي تجعل من القابض بالقوة مقبوض عليها بما يفوقها من القوة.

والقابض: مالك القوة والقدرة المتحكم في الشيء، يفعل ما يُريد متى ما يشاء كيف يشاء، وهو المسيطر الذي لا يفلت من قبضته أحد، ولذلك فوق كل ذي قوة قوي.

والقابض المطلق: هو القوي المطلق، ولذلك لا قابض بمطلق إلا القوي المطلق جل جلاله.

والقابض: الآخذ بعناية مع معرفته للغاية من وراء القبض، قال تعالى: {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ}[٩]. ووفقا لقاعدة ما يجب، فمن ينتهي عمره لا بد من قبض روحه وأخذها منه أخذا، وهكذا يصبح الأخذ في مقابل العطاء، أي أن الذي أعطى أخذ، وأنه في الحالتين قادر، في الحالة الأولى: أعطى، وفي الحالة الثانية: أخذ ما أعطى.

---

[٩] طه، ٩٦.

والفعل المترتب على الأخذ هو الاستسلام والقبول بإرادة أو بغير إرادة، وذلك وفقا لقانون المشيئة، قال تعالى: {فاصبر إنَّ وعد الله حق واستغفر لذنبك}[١٠]. وقوله تعالى: {واصبر على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأمور}[١١].

المؤمن بأن الله تعالى واحد أحد لا شريك له في الملك يؤمن بأن الموت حق مثلما الحياة حق، ولذلك يسلم وجهه لله رب العالمين. أما ضعيف الإيمان، والذي لا إيمان له، فقد يتكبر ويتجبر وكأنه مالك الملك، وحين يأتي موعدَ قَدره يجد نفسه ضعيفا أمام قَدرة القوي المتعالي.

إذاً القبض لا يتم إلا بقوة، فالذي يعمل يقبض معاشا أو مرتبا (مترتبا) على ما بذله من جهد، ولذلك يُعد القبض حقا، أي أن قبض الأرواح حق مثلما قبض المعاش حق، والقبض على المفسدين في الأرض حق، ولهذا لا يمكن أن يستخلف الخالق فيها مفسدا؛ وذلك لأن الغاية من الاستخلاف في الأرض هو الإصلاح، وبما أن الغاية من وراء الاستخلاف هو الإصلاح؛ إذن من يفسد فيها ليس من الذين يراد لهم الاستخلاف فيها.

ولأن وراء كل شيء غاية، فإن الغاية من وراء القبض هي الانبساط؛ فالقبض على اللصوص والمجرمين من أجل أن تطمئن النفوس وتمتد في حركتها دون خوف وهي آمنة على ممتلكاتها وأعراضها وأرواحها وأوطانها. وهكذا القبض على الحياة بالموت والقبض على الموت بالحياة دروس تجعل الخليفة في حالة اتعاظ وخشية من الكفر والطغيان والتكبر والتمرد بغير حق، وكذلك يمده بالأمل في البقاء الدائم مع الحي الدائم إن لم يُفسد في الأرض. وإن أفسد فيها فبقاؤه الدائم سيظل في الجحيم مصداقا لقوله تعالى: {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها}[١٢].

---

[١٠] غافر، ٥٥.

[١١] لقمان، ١٧.

[١٢] النساء، ٥٦.

ولأن من وراء القبض بسط وانبساط وغاية فيقبض الإنسان يداه ليجمع قوته فيها من أجل غرض وغاية تجعله من بعدها في حالة امتداد حر، وهكذا إنْ قَبَضَ الإنسان لأحدى قدميه رفعها عن الأرض ليخطو عليها إلى الأمام دون تردد، وهذه الحركة هي التي تجعل القدم الأخرى في حالة امتداد وملاحقة حتى يأتي دورها في مبادلة الانقباض بالانبساط. وبحركة ذاتية متناسقة تنقبض أبصارنا ما بين الرمشين حتى يمتد نظرنا وتنبسط رُوآنا ونتمكن من التمييز بين الجميل والأجمل منه ولنشاهد آياته العظام في المكان والزمان عبر الحركة.

القبض حركة بها يتم تجميع القوة من أجل أن يمتد المتحرك ويبسط جسمه أو يبسط جناحيه كما هو حال الطائر الذي لا يمكن أن يطير في السماء إلا بحركتي الانقباض والانبساط قال تعالى: {أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهنَّ إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير}[١٣].

القبض قوة من ورائه قابض، ولذا فبالقبض يتم إظهار القوة وتوظيفها وهذه تأخذ إحدى الصفتين:

الصفة الأولى التوظيف الحسن: أن تفعل خيرا للناس وأن تعمل في الأرض ولا تفسد فيها ولا تسفك الدماء بغير حق فتنال الجزاء الأوفر والأجر الحسن قال تعالى: {الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب}[١٤]. وقوله تعالى: {إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم}[١٥].

الصفة الثانية التوظيف السيئ: أن تفسد في الأرض وتسفك الدماء فيها بغير حق، وأن تشهد زورا ولا تستغفر من بعده ولا تتوب، وأن تأكل أموال الناس بالباطل وأن لا تنتهي عن الفحشاء والمنكر وتشرك بالله ولا تؤمن به وبما أنزل، أو تقنط من رحمة الله عز وجل،

---

[١٣] الملك، ١٩.

[١٤] الرعد ٢٩.

[١٥] النمل، ١١.

مصداقا لقوله تعالى: {لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعا}[١٦]، وقال تعالى: {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون}[١٧].

وفي القبض قال ابن منظور: "القبض جمع الكف على الشيء، وقبضتُ الشيء قبضاً: أخذته"[١٨].

قال تعالى: {الله يقبض ويبسط وإليه تُرجعون}[١٩]. يقبض بمعنى يضيِّق ويقتِّر على الذين لا يقرضون الله قرضا حسنا، ويوسِّع على الذين لا يقبضون أيديهم على ما يفيد وينفع الآخرين ولهم فيه حق، فحاله كحال من لا يصدِّق ولا يزكِّي ولا يعمل خيرا لمن هو في_حاجة لأن يُفعل له خيرا يرضاه الله تعالى.

القابض المطلق له صفة الأصل، والقابض بالإضافة له صفة التبعية التي بها يُستخلف في الأرض، فلو لم يكن تابعا، ما كان خليفة. ولذلك فالقابض المُطلق خالق، والقابض بالإضافة مخلوق، وعليه لا يستوي الخالق تعالى مع الخليفة المخلوق خلقاً، وبذلك يتضح الفارق الكبير بين من هو أصل وبين ما هو ليس بأصل. فالأصل قابض بالقانون المطلق، وغير الأصل قابض بالقانون النسبي.

ولذا فكل من يستطيع أن يقبض يستطيع أن يبسط سواء بالقانون المطلق أو بالقانون النسبي، مع وضوح الفارق من غير مقارنة في القوة والمقدرة والاستطاعة والدوام، ولذلك فالفرق كبير بين من هو أصل في المُلك وبين من هو خليفة فيه. فالخليفة خلقه مبني على الحاجة، ومن يُخلق عليها سيظل في حالة عوز إلى أن تتم عملية الإشباع، ولذا يتوجه الخليفة لله تعالى ليستمد منه مفاتيح الرزق والعيش حتى تُشبع حاجته ليجد له مكانا عليا في الدارين.

---

[١٦] الزمر، ٥٣.

[١٧] الحجر، ٥٦.

[١٨] لسان العرب، ج ٣، ص ٧.

[١٩] البقرة، ٢٤٥.

ومع أن الحاجة عوز إلا أنها رابطة صلة بين المُسْتَخْلِفِ والمُسْتَخْلَفِ (بين الخالق والمخلوق) ولذلك فمن وراء كل قبض حكمة، وهي الطاعة وعدم الاستغناء عن مشبعات الحاجات المتنوعة والمتعددة والمتطورة، قال تعالى: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم}[٢٠] وقال جل جلاله: {وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه}[٢١]. وقال تعالى: {إنَّ الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون}[٢٢] وقال خير من لا يقارن قوله بقول: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته لتبعتم الشيطان إلا قليلا}[٢٣].

وعليه فالحِكم التي من وراء القبض كثير ومنها:

١ . القبض من أجل الشفاء:

المرض قبض على الصحة والسلامة، والقبض على المرض ومسبباته يفسح المجال أمام امتداد الشفاء في العقل والبدن. قال تعالى: {وإذا مرضت فهو يشفين}[٢٤] وقال تعالى: {قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور}[٢٥].

٢ . القبض من أجل الارتواء:

القبض على العطش يُتيح الفرصة للارتواء، ولذلك فالقبض فعل خير من أجل القضاء على العطش، ولهذا فإن القبض على من يريد أن يُفسد الماء الذي منه الناس يشربون هو فعل حق يستوجب الجزاء الموجب، فمن يقدم على فعل شر ويتم القبض عليه فللقابض ثواب من الله بأسباب قبضه على المفسد الذي لولا القبض عليه لأفسد الماء الذي منه يشربون. قال تعالى: {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ

---

[٢٠] النور، ١٤.

[٢١] الإسراء، ٦٧.

[٢٢] البقرة، ٢٤٣.

[٢٣] النساء، ٨٣.

[٢٤] الشعراء، ٨٠.

[٢٥] يونس، ٥٧.

مُحْتَضَرٌ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ}[٢٦]، وقال تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[٢٧].

٣ . القبض من أجل الإشباع:

القبض على الآفات الضارة للحرث والزرع والطير والحيوان والتحكم في أمرها يُمكِّن الخليفة من أن يُعمِّر الأرض ويُصلحها، وهكذا إذا قَبضَتْ الأرض من مُصلِحِيها جهدا وعناية أينعت ثمار نباتاتها وقُبض منها خيرا كثيرا. قال تعالى: {فَانظر إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٢٨]، وقال تعالى: {كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا}[٢٩].

٤ . القبض من أجل الترابط والتعاون:

القبض على التفكك يفتح بأفعال المؤازرة آفاقا واسعة للتواصل والترابط والتعاون، ولذا تبرز الشخصانية على حساب الجماعية والمجتمعية والإنسانية كلما ساد الفكر الأناني في القول والفعل والسلوك بين الأفراد، مما يجعل الخصام والصدام يدور بين أبناء البلد الواحد والوطن الواحد، حتى الضعف والوهن.

إنَّ القبض على الوهن والضعف والتفكك، يقوي اللُّحمة ويمدها بالقوة التي تمكنها من تحدي الصعاب في سبيل بناء قيمي مؤسس على الفضيلة بين الأنا والآخر. قال تعالى: {وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله}[٣٠]. وقال تعالى: {قالوا يا ذا

---

[٢٦] القمر، ٢٧ . ٣١.

[٢٧] البقرة ٦٠.

[٢٨] الروم، ٥٠.

[٢٩] الروم، ٩.

[٣٠] المائدة، ٢.

القرنين إنَّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدًّا قال ما مكني فيه ربي خيراً فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما}[٣١].

٥ . القبض من أجل اليقين:

القبض على الظن والباطل اللذين فيهما من الإثم ما يُرجِّح أقوال الزور وأفعاله، فكلما اندحر الظن والباطل امتد اليقين واستوى على الأرض بين المستخلفين فيها، إنه القبض الموجب الذي به يُحق الحق ويُزهق الباطل. قال تعالى: {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[٣٢]. وقال تعالى: {وقل جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقا}[٣٣].

ولأجل اليقين يجب القبض على الشرك مصداقا لقوله تعالى: {قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه ادعوا وإليه مآب}[٣٤]. وقال تعالى: {ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما}[٣٥].

٦ . القبض من أجل الآمان والطمأنينة:

القبض على الخوف الذي من أسبابه الظلم والاستعباد والإذلال والقهر والمغالبة بغير حق يجعل الآمان والطمأنينة في حالة امتداد بين من يراد لهم أن يكونوا خلائف يرثون الأرض ويعمرونها بالعمل الصالح ولا يسفكون الدماء فيها، قال تعالى: {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون}[٣٦]. ولذلك ستكون هذه القرية وأية قرية غير آمنة ولا مطمئنة على مثل هذا الحال ما لم تؤمن بأنعم الله وتقدرها حق قدرها ولا تفسد في الأرض حتى لا

---

[٣١] الكهف، ٩٤، ٩٥.

[٣٢] الفتح، ٦.

[٣٣] الإسراء، ٨١.

[٣٤] الرعد، ٣٦.

[٣٥] النساء، ٤٨.

[٣٦] النحل، ١١٢.

يحق القول عليها ويذيق الله ساكنيها لباس الجوع والخوف. قال تعالى: {يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي}[٣٧].

٧ . القبض من أجل التطلُّع:

القبض على الانطواء والنكوص والانسحاب من ممارسة القيم والفضائل الخيِّرة يوقظ قوى المستخلفين في الأرض ويدفعهم إلى كل ما من شأنه أن يُحقق لهم الأمل ويُمكِّنهم من التطلُّع إلى ما هو أفضل وأجود وانفع وأفيد. قال تعالى: {المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا}[٣٨]. وحال القبض من أجل التطلع كحال من يقبض قدمه إلى أعلى ليمدها بكل قوة إلى الأمام، أو كمن يقبض يده لأجل أن يمدها إلى الأمام لتؤدي وظيفة واجبة القيام.

٨ . القبض من أجل الاستيعاب:

ولأن الله خلق الإنسان وعلمه البيان ليميز بين ما يجب ويقدم عليه، وبين ما لا يجب ويبتعد عنه وتركه إراديا ليقدِمَ أو يحجِمَ دون إكراه، وخلق الرزق حق لكل من يؤمن ومن يكفر أو يشرك دون أن يستثني أحداً بالحرمان من الرزق الذي كتبه للمخلوقات والعباد كافة، ومع أنه يعلم بمن يكفر وبمن يسلم وجهه إليه ويؤمن به، إلا أنه مستوعب لهم جميعا وفاتح أبواب الاستغفار والرحمة والتوبة لكل من يريد أن يكفِّر عن سيئاته وأخطائه. وفوق كل ذلك جعل الخالق تعالى الإنسان خليفة له في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون}[٣٩].

إنَّ القبض على الحسد والحقد وإقصاء الآخرين، يفسح مجالات الاستيعاب الواسعة ويؤدي إلى الحوار والنقاش والتفاوض من أجل تحقيق المصالح المشتركة على الأرض دون أن

---

[٣٧] الفجر، ٢٧ . ٣٠.

[٣٨] الكهف، ٤٦.

[٣٩] البقرة، ٣٠.

يكون ذلك على حساب ما أمر الله به وما نهى عنه، ودون أن يكون على حساب القيم والفضائل الأخلاقية التي ارتضاها الناس، ولأن الله تعالى خلق كل شيء وجعل لكل شيء رزقا ونصيباً في الأرض التي استخلفهم فيها، فإن القاعدة هي: الاستيعاب، والاستثناء هو: الإقصاء. ولهذا فالقبض يُعد ضرورة من أجل تعميم القاعدة (الاستيعاب).

قال تعالى: {وقضى ربك إلا تعبد إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمَّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي أرحمهما كما ربيان صغيرا}. فسحة كبيرة لأجل الاستيعاب فمهما يعمل الوالدان من أعمال دون الشرك بالله فاستيعابهما وجوبي على كل طائع لأمر الله تعالى. وهكذا الحال مع الآخرين حتى المخالفين في الدين لا إكراه لهم فيه، ولهذا ينبغي على المؤمن أن يقبض على إكراه الآخرين إذا أراد أن يكون من الخلفاء في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[٤٠]، وقوله جل جلاله: {وجادلهم بالتي هي أحسن}[٤١].

٩ . القبض من أجل العدل:

القبض على الظلم يفسح المجال أمام سيادة العدل الذي به تستوي كفتي الميزان بشعرة التمركز في منتصف مسافة السويِّة التي تشير إلى ثبوت الاتزان دون ميل ولا تحيز، مما يجعل العدل قرارُ حكمٍ لإحقاق الحق وإزهاق الباطل مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ الله يأمركم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إنَّ الله نِعِمَّا يعظكم به إنَّ الله كان سميعا بصيرا}[٤٢] وقال تعالى: {وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نُكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكَّرون}[٤٣].

. القبض من أجل الاعتدال:

---

[٤٠] البقرة، ٢٥٦.

[٤١] النحل، ١٢٥.

[٤٢] النساء ٥٨.

[٤٣] الأنعام، ١٥٢.

الاعتدال توسط في الأمر دون مبالغة مما يجعل القبض على المبالغة مُظهِرا للحقيقة، والفرق بين العدل والاعتدال: العدل يستوجب طرفين، والاعتدال قد يتعلق بطرف واحد أو شخص واحد، كحالة الاعتدال في الأكل والشرب والاعتدال في القول والفعل وفي الأخذ أو العطاء حتى لا يغلب الظاهر على حقيقة ما يكمن من ورائه. ولذا فالاعتدال يستوجب القبض على الشح والتبذير قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[٤٤]، وقال تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}[٤٥].

١٠ . القبض من أجل الحرية:

القبض على العبودية والإكراه والإجبار والإرغام يفتح مساحات وآفاقاً لممارسة الحرية بكل إرادة، وبما أنه لا إكراه في الدين، إذن لا إكراه في أي شيء غيره مصداقا لقوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[٤٦]، وقال تعالى: {ولو شاء ربُّك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أَفَأَنْتَ تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين}[٤٧]، وقوله عز وجل: {وأمرهم شورى بينهم}[٤٨]، ويقصد بالأمر أي أمر يتعلق بشؤون الناس (سياسة داخلية أو خارجية، أو أمر سلم أو أمر حرب) ولا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة، بما أن الأمر يتعلق بهما معا، ولا إلزام لشورى لمن لا يتعلق الأمر به.

١١ . القبض من أجل الطاعة:

ولأن وراء كل قبض بسط، فإن وراء كل منهما حكمة، والحكمة منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه وذلك وفقا لما تنص عليه القاعدة (وراء كل فعل فاعل، ووراء كل فاعل غاية).

---

[٤٤] الإسراء، ٢٩، ٣٠.

[٤٥] الشورى، ٢٧.

[٤٦] البقرة، ٢٥٦.

[٤٧] يونس، ٩٩.

[٤٨] الشورى، ٣٨.

قال تعالى: {ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرَّفنا الآيات لعلهم يرجعون}[٤٩]، القرى التي أهلكها الله تعالى هي حِجر ثمود وقرى لوط وغيرها من القرى المجاورة لبلاد الحجاز، التي أخبارها تتواتر من جيل إلى جيل حتى جاء القرآن شاهدا عليها[٥٠]. وصرَّفنا الآيات تعني: وأظهرنا الشواهد والأدلة المثبتة لذلك وبيَّناها لأهل تلك القرى آيات باقيات في الكتاب والذكر الحكيم. (ولعلهم يرجعون) أي ولعلَّ المشركين يتعظون ويرجعون عن شركهم وفسادهم في الأرض. ومن وراء القبض على المعصية أن يرجع العاصون عن عصيانهم ويطيعون ما أمر الله به، وإن لم يرجعوا فإن عقابهم كما جاء في الآية السابقة موعظة ودرس لمن يأتي من بعدهم حتى يتعظوا وإن عصوا فالقبض آتٍ لا محالة كما أتى على الذين أشركوا من قبلهم. قال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آَيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}[٥١]، ولذا فالقبض على الكذب والظلم والسوء يترتب عليه فعل النجاة والطاعة فالحمد لله ربِّ العالمين على كل آية قبض من أجل خيرٍ وبسطٍ.

١٢ . القبض من أجل ممارسة الحق:

الحق يؤخذ وتتم المطالبة به في حالة عدم إعطائه بإرادة، ولهذا لا يسعى الخليفة في حياته إلا وراء حق سواء بنيله أو بالاستشهاد دونه، فالحق يعلو ولا يعلى عليه مصداقا لقوله تعالى: {ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون}[٥٢]، ولذا فالقبض على الباطل حق وفقا للقاعدة (إحقاق الحق حق وإبطال الباطل حق). وعليه ما لم يتم القبض على الباطل لا يمكن أن يتمكن الخليفة من ممارسة حقوقه والعيش في السليم.

---

٤٩ الأحقاف، ٢٧.

٥٠ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء السادس عشر، ص ٢٠٩.

٥١ الفرقان، ٣٥، ٤٠.

٥٢ البقرة ،٤٢ .

الباطل أساس الفتنة والفرقة والاقتتال فمن قضى على باطلٍ نال أجرا كثيرا وفسح مجالا واسعا لبسط رحمة الله على العباد. ولذا فالحق لا يُكتم، بل الحق يُظهر ولو كره المجرمون قال تعالى: {يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون}[٥٣].

الحقوق ينبغي ألا تكون مطالباً، بل ينبغي أن تكون إشباعات تؤخذ بإرادة وفقا للحاجة، فالسلطة حق والثروة حق لا ينبغي أن تُحتكر من أحد، ولا ينبغي أن تكون مِنَّة من أحد.

ولا يمكن أن تؤخذ الحقوق أو تمارس ما لم تتوفر اشتراطاتها الرئيسة وهي:

١ . الرغبة: القوة العقلية الموجهة لهدفٍ محدد أو موضوع بعينه، وإحساس نفسي تجاه الآخر وشعور بالميل إليه، وهذا ما يجعل روح التجاذب تُحرّض على المتابعة والاقتراب ممن تتوفر فيه اشتراطات الإشباع المرّضي.

٢ . الإرادة: تُعد الإرادة نشاطا عقليا على درجة عالية من الوعي يتمكن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحرية ويتمكن من خلالها من الإقدام على الفعل وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة على الفعل والسلوك.

٣ . الطلب: نظرا للإحساس بالحاجة والتعرف على بواعث إشباعاتها تصبح المطالبة بالمُشبِع حق لا يمكن التخلي عنه ولا يهدأ البال وتطمئن النفس إلا بأخذ ما يشبع ويحقق الرضا.

وعليه فإن الحقوق كما ورد في لسان العرب المحيط هي "جمع حق وهي نقيض الباطل"[٥٤].

١٣ . القبض من أجل أداء الواجب:

الواجب التزام يؤدى مقابل حقوق تمارس، فالله تعالى خلق كل شيء وفضَّل الإنسان على ما خلق، ثم جعله خليفة في الأرض وهذه جميعها فضائل من الله عز وجل؛ ولأنها فضائل فعلى الخليفة أن يؤدي واجبه نحوها بالإيمان والطاعة، ولذا يجب القبض على الشرك والعصيان والكفر لتُفسح مساحة الإيمان في صدور العباد حتى تعم الرحمة بينهم في القول

---

[٥٣] آل عمران، ٧١.

[54] لسان العرب المحيط، الأول، ص ٦٨٠.

والفعل والسلوك. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم}[55]، طاعة الله واجبة بالمطلق؛ لأنه الخالق والمستخلِف، وطاعة الرسول واجبة لأنه المبشر والمرشد والمنذر والمحرض على أفعال الخير وفقا لاختيار الله له، ولهذا فطاعة الرسول طاعة لأمر الله له في الاختيار، وطاعة للرسالة التي هي من عند الله تعالى.

وطاعة أولي الأمر منكم: تعني طاعة من ارتضيتم فيما رضي به منكم، أي أن طاعة من ارتضى أن يكون أمينا على الأمر الذي هو منكم واجبة وذلك لارتضائه بالأمانة التي في حمْلها مسؤولية وتحمَّل أعباء، والأمر هو المتعلق بممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات في حالتي السلم والحرب وفي مجالي السياسات الداخلية والخارجية. وفي الآية السابقة قد ارتبطت الطاعة بالأمر الذي هو من الذين يعنيهم، وهذه الطاعة مشروطة بالأمر الذي هو من قِبَلِ الذين يعنيهم الأمر، ولا علاقة لها بمن لا يتعلق الأمر بهم، ولا علاقة لها إن لم يلتزم الذي تولى الأمر وحاد عنه، أي لا طاعة لولي إن لم يكن أمينا على الأمر الذي كلف به منهم.

وطاعة أولي الأمر منكم لا تتعلق بالوالدين فالوالدان هم أولي أمركم، والفرق كبير بين أولي الأمر منكم، وبين أولي أمركم، فأولي أمركم: هم الذين تولوا أمركم وأنتم لم تختاروهم فأنتم الذين لم تبلغوا النضج الذي يُمكنكم من العناية والرعاية والخدمة، ولهذا أولي أمركم هم الذين يتولون كل ذلك مع السهر دون انتظار لمقابل منكم، إنهم آباؤكم الذين قال فيهم تعالى: {وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين أحساناً إما يبلُغنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا}[56] ولذلك فإن أولي أمركم ليسوا بأولي الأمر منكم؛ فأولي الأمر منكم هم الذين يُقدِّمون الخدمة بمقابل، أمَّا أولي أمركم فهم الذين يتولونكم بالرعاية

---

[55] النساء، ٥٩.

[56] الإسراء، ٢٣، ٢٤.

والخدمة والمعيشة دون أن ينتظروا منكم مقابلا، ولذا فإن طاعتهم واجبة في غير معصية الله تعالى.

وبما أن الحقوق تؤخذ وتُستلم فإن الواجبات تؤدى في مقابل الاستلام والأخذ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب، أما اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع على أخذ الحقوق فإن ذلك يجعل المستلم طرفا سالبا، والذي يغيره إلى حالة الإيجاب هو أداؤه للواجبات، ولهذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما أخذت، وهذا لا يعني أن الحقوق والواجبات هما كفتا الميزان في مكوّن ممارسة الديمقراطية بل هناك شيء آخر من مكوناتها ألا وهو المسؤولية، ولذلك ورد في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه لا واجب إلا بالإضافة إلى التزام ومسؤولية. ولذا لا يمكن أن يؤدى الواجب بنجاح إلا وتحمُّل المسؤولية جزءا من أدائه، وهكذا حال المسؤولية هي الأخرى لا تؤدى بنجاح إلا والواجب يصاحبها، وهذه نتيجة التداخل العلائقي الذي يعبر عنه بدقة في العلوم الهندسية مما جعل لزوايا المثلث قيّم يستدل بها أو يستدل عليها. والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود الأنا أو الذات والآخر اللذين عندما يلتقيان لابد أن يحدث الحوار بينهما مما يؤدي إلى القبول والتقارب والتفاعل أو يؤدي إلى الرفض والابتعاد و الفرقة أو الانسحاب، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع، وعندما تتكوّن العلاقات يترتب على ذلك بالضرورة أخذٌ كما هو مبين في الحقوق، وعطاء كما هو الحال في الواجبات، وهذا يعني أن العلاقة بين المسؤوليات والحقوق والواجبات هي علاقة قرار، وأخذ، وعطاء، أي في اتخاذ القرار مسؤولية، وفي الأخذ حقوق، وفي العطاء واجبات، وعليه لا يمكن أن يتمّ الأخذ والعطاء عن وعي إلا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما، ولو أخذنا وليّ الأمر على سبيل المثال: نجد أنه مسؤول على أفراد أسرته وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤديها تجاههم، وما يعد واجبات على وليّ الأمر تجاه الأسرة هي ذاتها تُعد حقوقا بالنسبة لهم، وهكذا في حالة التبادل يظل لوّلي الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها وفي ذات

الوقت تعد واجباً على أفراد الأسرة أداؤها؛ ولذلك الحقوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتمم بعضها بعضاً كما تتمم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع وزواياه بعضها بعضاً.

ولكي تؤدى الواجبات بإرادة ينبغي أن تتوفر اشتراطاتها وهي:

١ . الاعتراف: يدل الاعتراف على تفهُّم الموضوع والتعرُّف من خلاله على ما يجب وما لا يجب، ثم التمسك بما يجب والامتناع عما لا يجب، ولذا فالاعتراف بالواجبات عن وعي يؤدي إلى التمسُّك بها عن إرادة.

٢ . القدرة: إن امتلاك المقدرة العقلية والمعرفية والاعتراف بوجوبية الأداء قد لا يفيد دائما ما لم تتوفر إلى جانبها المقدرة البدنية والمقدرة المادية الداعمة للتنفيذ، ولذا فالقدرة طاقة كامنة تتحفَّز للظهور بعد تهيؤ.

٣ . الإقدام: يعد الإقدام مرحلة ما بعد التهيؤ حيث الإقبال على أداء السلوك المحقق للفعل، ولا يمكن أن يتم الفعل الإقبالي المؤدي للواجبات إلا برغبة وإرادة.

١٤ . القبض من أجل حمْل المسؤوليات:

القبض على الخيانة والغش ونقض العهود يجعل الخليفة مسؤولا أمام الله وأمام الذين يتولى أمرهم بالرعاية وأمام نفسه والذين تربطه بهم علاقة، قال تعالى: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا}[57]، وقال تعالى: {ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولا}[58]. يقال كما ورد في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: "في الذين عاهدوا الله: هم سبعون رجلا بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك ولربك ما شئت. فقال: (اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأموالكم وأولادكم) فقالوا: فما لنا إن فعلنا ذلك يا نبي الله؟ قال: (لكم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة)"[59]. ولذلك جاء قوله تعالى: (وكان عهد الله مسؤولا).

---

[57] الإسراء، ٣٤.

[58] الأحزاب، ١٥.

[59] القرطبي الجامع لأحكام القرآن. الجزء الرابع عشر، ص ١٥٠.

عرفنا التداخل المعرفي في العلاقة بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات، المتعلقة بتحقيق الذات المتوازنة، وعرفنا أن الحقوق يترتب عليها مطلب أو أخذ، وعرفنا أن الواجبات يترتب عليها أداء أو عطاء، وهي تستوجب حماية أو حراسة تكون سنداً لها وتبعد عنها المخاطر، وإن لم يتوفر ذلك تصبح الحقوق والواجبات كما يقولون في مهب الريح، ولذا تصبح المسؤولية هي الضرورة التي تحقق الحماية أو الحراسة، فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع لو لم يكن مسؤولا لا يمكن أن يؤتمن جانبه، وهكذا حال الطبيب إن لم يكن مسؤولا، لا يمكن أن يؤدي واجبه بأمانة، فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدى بأمانة، وهكذا حال الحقوق إذا لم تؤخذ بمسؤولية لا يمكن أن تؤخذ بأمانة.

ولذا تكمن المسؤولية في تحمّل المخاطر أو الأعباء المترتبة على أداء الفعل أو السلوك سواء كان حقا أو واجبا، ولهذا فهي عبء يستوجب التحمُّل، ولأنها كذلك فهي عملية عقلية تُبنى على معطيات أو مسلمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب وبين الحلال والحرام وبين القوة والإرادة، ثم أخذ القرار، وتحمّل الأعباء المترتبة على ذلك.

إن تحمّل المسؤولية يتطلب مبررات موضوعية لممارستها بإرادة وهذه المبررات هي:

١ . الصلاحيات: المسؤولية تتطلب صلاحيات لكي يتمكّن الفاعل من القيام بتنفيذ الفعل، ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولا، وعليه من يردْ أن يكون مسؤولا يجب أن يكون واعيا قبل أن يفعل.

٢ . الاختصاصات: هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به، فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد تُعد ذاته متزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المساءلة والمحاسبة والعقاب، حيث تعد مثل هذه الأفعال أفعال سالبة أو منحرفة. وعليه لكي تؤدى المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات.

٣ . الوعي: ورد مفهوم الوعي في الموسوعة الفلسفة العربية بأنه وظيفة الجهاز العصبي للإنسان، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل، ويدل على إيجاد علاقة بين الذات والموضوع، وبالوعي يتمكّن الإنسان من التبيين والمعرفة، كما أنه يتمكّن من التمييز بين الأفعال الموجبة والأفعال السالبة والتمييز بين كل مفضّل ومرغوب وبين ما هو غير ذلك ومرفوض، ولذا فإن الوعي ذو صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تُمكّن الإنسان من التفهّم والاستيعاب كما أنها تمكّنه من التقويم الموضوعي الذي يجعل من الذات مركز الاعتدال والتوازن الانفعالي والسلوكي.

٤ . القدرة: القدرة الذاتية هي التي تُمكِّن الإنسان من التحمّل لما يجب أن يتم تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب توفير الاستعداد للقيام بالمسؤولية في حدود المقدرة، والقدرة متنوعة ومتعددة المستويات فهي على المستوى النفسي والبدني والمادي والمعرفي.

١٥ . القبض من أجل غرس الفضيلة:

القبض على الفسق والفساد والرذيلة يُمتِّنُ العلاقات بين الأفراد ويفسح المجال لامتداد الفضيلة بين الجماعات والمجتمعات، ويغرس الثقة في نفوس النشء ويُسهم في بناء الحضارات وصناعة التاريخ ويرسي قواعد التفاهم والتواصل بين الأمم والشعوب. قال تعالى: {والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار}[٦٠]، وقال تعالى: {كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون}[٦١]، وقال تعالى: {من كان يُريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا}[٦٢].

[٦٠] العد، ٢٥.

[٦١] التوبة، ٨.

[٦٢] فاطر، ١٠، ١١.

١٦ . القبض من أجل السلامة والمعافاة وطهارة النفس:

القبض على المرض وما يؤدي إلى المرض يزيد الجسم والعقل بسطة ويحفظ البيئة ويظهر سلامتها للحركة والسكون وينمي القدرات والاستعدادات ويظهرها إلى ما تأمله الأنفس وتتطلع إليه، قال تعالى: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأمَّا الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون أولا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون وهم يذَّكَّرون}[٦٣]. القبض على الفتنة بإطفاء نارها وإصلاح ذات البين والقضاء على ما توسوس به الأنفس من ظنون، والقبض على ما يلقي الشيطان من فتنة مصداقا لقوله تعالى: {وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يُلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربِّك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإنَّ الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم}[٦٤].

١٧ . القبض من أجل إصلاح الأرض وإعمارها:

خلق الله الإنسان في أحسن تقويم واستخلفه في الأرض ليكون قادرا على أداء المهمة التي من أجلها خُلق؛ ولذلك نهى سبحانه وتعالى عن الإفساد فيها، وأمر بإصلاحها لتكون النعم بين الناس رحمة. ولذلك كان القبض على الإفساد رحمة تنشر المودة بين الناس وتُمكِّنهم من إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولذا حرّم الله سفك دماء الناس بغير حق {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ

---

[٦٣] التوبة، ١٢٥.

[٦٤] الحج، ٥٢ . ٥٤.

بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[٦٥]. وقال تعالى: {ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يُصلحون}[٦٦] وقال عز وجل: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ}[٦٧].

١٧ . القبض من أجل المحبة:

القبض على الكره والبغضاء يفسح مجالات المحبة والمودة بين الذين يرثون الأرض بالحق ويستخلفون فيها، قال تعالى: {ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنَّا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط}[٦٨]، وقال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[٦٩]. وقال تعالى: {ذلك الذي يُبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حُسنا إنَّ الله غفور شكور}[٧٠].

١٩ . القبض من أجل التوبة والهداية:

القبض على المعصية والذنب يُمكِّن العباد من معرفة الحق الذي يجاز عليه بالاستخلاف في الأرض والجنة بعد توبة وهداية وإيمان راسخ لا تهزه ريح. قال تعالى: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى}[٧١]، وقال تعالى: {فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن

---

[٦٥] البقرة، ٨٤، ٨٥.

[٦٦] الشعراء، ١٥٢.

[٦٧] الأنبياء، ١٠٥، ١٠٦.

[٦٨] آل عمران، ١١٩، ١٢٠.

[٦٩] البقرة، ٢٥٦.

[٧٠] الشورى، ٣٣.

[٧١] طه، ٨٢.

الله يتوب عليه}[٧٢]. وقال تعالى: {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه}[٧٣]، وقال تعالى: {أينما تكونوا يُدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة}[٧٤].

٢٠ . القبض من أجل الموت:

يقبض الله الحياة بقبضه على الروح التي في الأنفس ليتوفاها، فالموت مرحلة لا مفر منها من مراحل البقاء المؤقت، فكما أن الحياة مؤقتة كذلك الموت مؤقت، وهذه رحمة من الله تعالى على عباده ليتقوا ويتعظوا. قال تعالى: {قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرجون}[٧٥]. وقال تعالى: {قل الله يحييكم ثم يُميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون}[٧٦]. فالذين لا يعلمون بهذا الأمر هم غير المؤمنين، وهؤلاء سيجدون ما عملوا من عمل حاضرا أمامهم يوم القيامة، ولذا فمن عمل مثقال ذرة خيرا يره ومن عمل مثقال ذرة شرا يره، وحينها الندم لا ينفع النادمين. قال جلَّ جلاله: {كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة}[٧٧].

٢١ . القبض من أجل الحياة:

وبما أن الحياة الدنيا مؤقتة والموت هو الآخر مؤقت فلا باقي إلا وجه الحي الدائم الأول والآخر جل جلاله، ولذا فالموت مقضي عليه لا محالة، وحين يقبض الله عليه تُطوى صفحات المرض والألم والموت عن جميع المؤمنين وتبقى مفتوحة على الذين بربهم يكفرون في نار جهنم {كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها}[٧٨]، ويومها يصبح اليوم الدائم الذي يرى فيه المؤمن ربه وهو في جنَّة النعيم. فلو لم يتم القبض على الموت لكان المرض

---

[٧٢] المائدة، ٣٩.
[٧٣] هود، ٦١.
[٧٤] النساء، ٧٨.
[٧٥] الأعراف، ٢٤، ٢٥.
[٧٦] الجاثية، ٢٦.
[٧٧] آل عمران، ١٨٥.
[٧٨] النساء، ٥٦.

والألم مصاحبا للإنسان حتى في حياته الأخرى. قال تعالى: {الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يُميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عمَّا يشركون}[٧٩]، وقال تعالى: {وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا}[٨٠]. وقال تعالى: {ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنّ الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين}[٨١]. وعليه فالقاعدة هي: (لا بقاء دائم إلا من بعد موت الموت).

قال تعالى: {ألم تر إلى ربِّك كيف مدَّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا}[٨٢]. قبض الظل لم يكن بيدٍ مباشرة، بل بفعل مباشر من ذات عِلِيَّه، فهو مع حركة الشروق والغروب حاله بين بسط وقبض، في الصباح يمتد مع الشروق طولا، وعند الظهيرة ينقبض تحت القدمين ومع الغروب يميل ميلا طويلا. والشمس هي التي جعلت الظل في حالة حركة مع المتحرك، وهي التي جعلته في بعض الأحيان يفوق المتحرك طولا وفي البعض الآخر يساويه ثم ينقصه كثيرا ثم تمده في البسط ثانية وهكذا فإن القابض هو الباسط جل جلاله.

قال تعالى: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون}[٨٣] القرض عطاء في الزمن الحاضر يضاعف بإرجاعه في الزمن المستقبل. إنه عطاء المكاسب الكثيرة، وبدون شك عطاء في زمن الشح يكون الجزاء عليه مضاعفا في زمن الفيض. فالله الغني ليس في حاجة لعبدٍ، ولكن الله جعل العباد في حاجة إليه وهم في حالة امتحانات فمن ينجح في إيمانه بالله يستجب فيعطي وهو يعرف أنه يعطي لمن لم يكن في حاجة، ولكن ليثبت طاعته الإيمانية بالفعل والسلوك فيتصدق في سبيل الله أي في سبيل طاعة الله جل جلاله يتصدق على من هم في حاجة سواء في حالة الحرب أو

---

[٧٩] الروم، ٤٠.

[٨٠] النجم، ٤٤.

[٨١] هود، ٧.

[٨٢] الفرقان، ٤٥، ٤٦.

[٨٣] البقرة، ٢٤٥.

في حالة السلم لأجل أن يُجازى الجزاء الأوفر في الآخرة بالجنة. وجاءت الصيغة بالقرض؛ لأن العود من القرض مؤجل، فهو المترتب على الفعل السابق مع الثبات والديمومة على العطاء دون كلل ولا ملل.

وحظ الخليفة من هذا الاسم العظيم، أن يكون فاعلا للخير وقابضا على الشر ما استطاع لله سبيلا، وأن لا يتجاوز حدود القبض في كل حق وواجبٍ ومسؤولية، وأن لا يتعدى حدود الله تعالى ويتقيه في نفسه وزوجه ونسبه وجنسه ودينه وفي قوله وعمله وسلوكه.

أن يكون قابضا ما استطاع على الحسد والحقد والظلم والقهر والذل حتى ينبسط الإيمان في قلبه وتتبسط المودة مع ذوي العلاقة به ومع بني جنسه، وينبسط العدل بين الناس حتى تكون شعرة اعتدال الميزان في مركز اعتدال الكفتين.

ولهذا فإن القبض فعل من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل وكسر القيد الذي به تُكبَّل حرية الأفراد والجماعات والمجتمعات، ومن يفعل ذلك يكون القابض بالإضافة والخليفة في الأرض والوارث فيها ومن المرضي عنهم في الجنة.

القابض بالإضافة هو القابض من أجل الحياة المطمئنة، فهو كلما قبض على فساد أو مفسدين أو أسهم في تحقيق ذلك، أطمأنت نفسه ونفوس من تربطه بهم علاقة واستقر الأمن في البلدان والأوطان، وانبسطت الحرية بين الناس على بساط من المودة.

وعليه القَبْضُ خِلافُ البَسْط، والانْقِباضُ خِلافُ الانْبِساط، وفي أسماء اللّه تعالى القابِضُ هو الذي يُمْسِكُ الرزق وغيره من الأَشياء عن العِبادِ بلُطْفِه وحِكمته[84]، فهو اللطيف الخبير بكل أمر كبيرا كان أو صغيرا دقيقا، وتظهر لقبضه جل جلاله مظاهر منها:

- قبض اللّه الأَرض والسماء: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ}[85]، وقبضه للسموات والأرض

---

[84] لسان العرب،ج٧،ص٢١٣.

[85] الحج٦٦،٦٥.

بجمعه لهما، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٨٦]، فالله خلق السموات والأراضين لحكمة يعلمها ويريد لنا بها خيرا لنكون سعداء في الدنيا قبل الآخرة، فسبحانه من رب كريم، والله تعالى لم يخلق أشياء أخرى بديلة لهذه السموات وهذه الأرض إلا لعلمه بما هو مناسب وصالح لنا، وجعلنا نتكيف معه، يستطيع فكيف من لم يتكيف أن ينظر في السماء وما حوته من فضاء هائل وكيف يستطيع أن يثبت قدميه فوق الأرض وما حوته من مساحات شاسعة، قال تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[٨٧].

- قبضه الشرّ وبسطه للخير: قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٨٨]، وقال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[٨٩]، وقال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ

[٨٦] الزمر ٦٧.

[٨٧] الأنعام٧٠-٧٣.

[٨٨] البقرة٢٤٥.

[٨٩] الأنعام١٨،١٧.

جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فإنما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فإنما يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}[٩٠].

- قبضه وبسطه في العلاقات بالكراهة والمحبة: فالخليفة يكره ويحب في الله، أي تكره ما يكرهه الله، ولكن في الحق، لا في الباطل، وتحب ولكن في الحق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فإن حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[٩١]، سبحانه وتعالى حبب للمؤمنين الإيمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فإن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فإن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[٩٢]، وبذلك يكون على الخليفة العمل على توحيد العباد على محبة رب العباد، حتى يتحقق فيهم قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٩٣].

---

[٩٠] يونس١٠٨،١٠٧.

[٩١] المائدة٥٤٥٧.

[٩٢] الحجرات ٧١٠.

[٩٣] الحجرات ١٣.

– قبض المال وبسطه: قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٩٤]، أَي يُضَيِّقُ على قوم، ويُوَسِّع على قوم، وكل ذلك بعلمه وقدرته، وللخليفة أن يراعي هذا التوزيع في مستخلفيه، فيؤدي ما فرضه الله عليه من زكاة، وعن قلب طاهر نظيف، ودون رياء أو طمع في عرض من أعراض الدنيا؛ لأنه سبب من أسباب ضياع الأعمال، قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[٩٥].

– قَبْض جناح الطائر قوة: وقبَضَ الطائرُ جناحَه جمَعَه بقوة ثم فرده، قال تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إلا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٩٦]، وقال اللّه تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ}[٩٧]، فقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ) أي: تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا، (مَا يُمْسِكُهُنَّ)، أي: في الجو، (إلا الرَّحْمَنُ) أي: بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، وبما مدهن به من قوة (إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) أي لا يغفل فهو لا تأخذه سنة ولا نوم سبحانه جل جلاله، فالله تعالى هو الذي جعل للطائر قوة تحمل جسمه مهما كان جسمه كبيرا أو صغيرا، وجعل له من القوة ما يقاوم به الهبوط الذي يعرف الآن بقوة الجاذبية، فجعل له من القوة ما يقاوم بها العلو والانخفاض، فسبحانه من خالق قدير،

---

[٩٤] البقرة٢٤٥.

[٩٥] البقرة٢٦٢٢٦٤.

[٩٦] النحل٧٩.

[٩٧] الملك١٩،١٨.

وللخليفة القابض أن يستفيد من هذه القوة؛ ليدرسها، ويتعلمها، ويعلمها لغيره، وما ينتج عنها من نظريات يستفيد منها الإنسان في مجال الطيران المدني والحربي، وبما يخترق به العالم الخارجي، والذي لا يأتي إلا بسلطان العلم والمعرفة، قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٩٨].

– قبض السمك في الماء: فالله القابض جل جلاله مثلما خلق الكائنات على اليابسة، خلق مثلها في البحار والمحيطات من المخلوقات، والناظر لذلك بتمعن يرى عجبا، فهذا الجسم الذي خلقه جل جلاله، وجعله قادرا على تحدي قوة الماء، وما به من أمواج عاتية قادرة على إغراق أكبر السفن، فهذه المخلوقات قادرة على تحدي الماء ودونما دفع لخارجه، وكيف خلق هذه الكائنات وكساها قشورا تساعدها على العوم والانزلاق بين الأمواج، وكيف جعل لها من القدرة على صيد فريستها وبكل سهولة، قال تعالى: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٩٩].

اللهم يا القابض أسألك أن تقبض على كل هم وغم حتى تفرج الكروب عنا وتمحو الذنوب، اللهم اقبض على المرض والألم حتى يأتي الشفاء وتستريح الأبدان وتطمئن الأنفس، اللهم إنك القابض على الظلم فاقبض حتى يعم العدل، وأنك القابض على الكره فاقبض حتى تسود المحبة.

اللهم إنك القابض للحياة الدنيا والباسط للحياة الآخرة فاجعل لنا نصيبا في الدنيا ونعيما في الآخرة، اللهم إنك تقبض لتبسط فاقبض على أسباب التعب والعناء والضيق وابسط اللهم لنا العمل الصالح والرزق الحلال.

---

[٩٨] الرح٣٤،٣٣.

[٩٩] النحل١٤،١٣.

اللهم إنه لا قابض للحسد والحقد والكره والضغينة إلا أنت فاقبض لتسود بيننا المودة والمحبة والرضا والتسامح إنك سميع قريب مجيب الدعاء يا الله.

اللهم إنك القابض على الشر والحياة فاقبض على كل شر وعلى كل حياة شرك وكفر وذل وخيانة إنك أنت القابض سبحانك جل جلالك.

الباسط

الباسط اسم من أسماء الله الحسنى فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويزيده بسطة لمن يشاء ويقدر عليه، والبسط كما يقول العلامة ابن منظور في لسان العرب المحيط: نقيض القبض، وبسط الشيء نشره.

الباسط جل جلاله هو الميسِّر للأمر، وهو المُغني الذي يكفي برحمته الواسعة عن كل عوز.

ويقول أبو حامد الغزالي: الباسط هو الذي "يبسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، ويبسط الأرزاق للضعفاء، ويبسط الرزق على الأغنياء حتى لا يُبقي فاقة، ويبسط القلوب بما يتقرب إليها من بره ولطفه وجماله"[١٠٠].

وقال ابن الأثير: الباسط، "الذي يبسط الرزق لعباده ويوسعه عليهم بجوده ورحمته"[١٠١].

الباسط: الموسِعُ في الرزق قال تعالى: {قل إنَّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده}[١٠٢]، وهو الموسع في الخلق قال تعالى: {وزادكم في الخلق بسطة}[١٠٣]، وهو الموسع في العلم

---

[١٠٠] الصحاح للجوهري، ج ٣، ص ١١١٦.

[١٠١] ابن الأثير، جامع الصول، ج ٤، ص ١٧٨.

[١٠٢] سبأ، ٣٩ .

والجسم قال تعالى: {إنَّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي مُلكه من يشاء والله واسع عليم}[١٠٤]. فالباسط هو موسع العطاء لمن يشاء من عباده مصداقا لقوله تعالى: {وقالت اليهود يدُ الله مغلولة غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدنَّ كثيرا}[١٠٥].

الباسط الذي بيده الأمر والمُلك والقدرة، وهو المُوسع بمقدار وفقا لما يُشبع الحاجة، مصداقا لقوله تعالى: {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن يُنزِّل بقدرٍ ما يشاء إنه بعباده خبير بصير}[١٠٦]. خبرة الله بعباده خبرة خَلقية فهو يعلم ما يسرُّون وما يخفون في صدورهم وما يظهرون ويعلنون بأفعالهم وأقوالهم، وهذه المعرفة لا تتيسر إلا له جل جلاله. ولهذا لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، وذلك لعدم تقديرهم للرزق الذي يبسطه لهم عز وجل، مما يجعل المفسدة متحركة في عدم تقديرهم للرزق الذي بُسط لهم؛ ولمعرفته الواسعة بهم وأحوالهم لا يُنزِّل الرزق عليهم إلا بمقدار الحاجة للإشباع. ولأجل الطاعة سيظل التنزيل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير.

الباسط جل جلاله لو لم يُنزِّل كل شيء بمقدار لفسدت الأرض بجهود من لا يقدِّرون ما أنزل الله عليهم من رزق وخير، قال تعالى في الحديث القدسي: " يا عبادي، لو أن أولكم وآخِركم، وحيكم وميتكم، وأنسكم وجنّكم اجتمعوا في صعيد واحد، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مرَّ بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه، ذلك بأنيِّ جواد ماجد، أفعل ما أريد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إنما أمري بشيء إذا أردته أن أقول له: كن فيكون"[١٠٧]. فالباسط عز وجل كما يقول الشيخ متولي الشعراوي: هو الذي يعطي الرزق اختبارا. فمن قدَّر الرزق الذي بُسط له

---

[١٠٣] الأعراف، ٦٩.

[١٠٤] البقرة، ٢٤٧.

[١٠٥] المائدة، ٦٤.

[١٠٦] الشورى، ٢٧.

[١٠٧] محمد متولي شعراوي ، أسماء الله الحسنى. القاهرة، مرجع سابق، ص ٢٤٧.

قُدِّر من الباسط سبحانه وتعالى، ومن لم يُقدِّر ذلك لن يجد منه قدرا ولا جزاء وافرا، وهكذا كان كل شيء بمقدار.

قال تعالى: {والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع}[١٠٨]. فالذين ينقضون عهد الله هم الذين لا يُدركون الفعل المترتب على نقضهم لميثاق الله تعالى، وهم الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم بعد، ويجهلون حقيقة الأمر الذي بسببه نقضوا عهد الله، وهؤلاء وما يفعلون هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، وبنقضهم لعهد الله وقطعهم لِما أمر به أن يوصل مع الأرحام لا يعدون من المستخلفين في الأرض، وذلك لانتهاجهم سبيل الفساد فيها. و (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) تأكيد على إبعادهم عن الاستخلاف في الأرض الذي ارتضاه الله تعالى لعباده المصلحين فيها؛ وأيضا تأكيدا على إبعادهم عن الجنة، ولذا فهم الذين خسروا الدنيا وليس لهم في الآخرة من نصيب.

(الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) الرزق خير متاح لإشباع حاجات متطورة ومتنوعة ومتعددة، والرزق بَسطهُ الله لإشباع هذه الحاجات المتطورة عبر الزمن، مع تقديره تعالى لدرجات الإشباع المتنوعة والمتباينة من حالة لأخرى، ولذا فهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقبضه عمن يشاء، وهذه من قدرته جل جلاله فهو القابض والباسط في ذات الحين سبحانه لا إله إلا هو مالك الملك يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء وهو على كل شيء قدير. {قل اللهمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير}[١٠٩].

إذن يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر تدل على أن الله تعالى يُريد أن يكون الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم خليفةً له في الأرض ليعمرها ويصلح فيها ولا يُفسد، ولهذا بسط له الرزق

---

[١٠٨] الرعد، ٢٥ ، ٢٦.

[١٠٩] آل عمران، ٢٦.

لعله يتذكر ويؤمن ولا يُشرك، ويعلم أنه لن يكون صاحب الأصل في إيجاد الرزق وخلقه، بل التابع في إيجاد الرزق مما رزقه الباسط له من عقل وقدرة وما أمده به من ثروة ونبات وحيوان وذللها له لتكون بين يديه ويكون خليفة الله عليها، ولهذا ينبغي أن يُقدِّر ويعدل ولا يُفسد فيما استخلفه الله فيه. فالخليفة ليس بأصيل في الأرض بل أنه المستخلف فيها، ولأنه كذلك فعليه أن يستمد صفاته من صفات من هو أصيل، والأصيل هو الخالق وليس المخلوق، فالإنسان من حيث انه مخلوق لا يختلف في خلقه عن أي مخلوق آخر صغر أو كبر، ولكن من حيث التمييز والتفوق فكان للخالق فيما خلق شؤون ولذا خلقه في أحسن تقويم وأراده أن يكون خليفته في الأرض، وجعل هذا الاستخلاف امتحانا له، فمن آمن بذلك وأصلح كان خليفة في الأرض، ومن أشرك ولم يؤمن كان من المفسدين فيها وليس له في الآخرة من نصيب. ولهذا لا يستوي الأصيل بمن هو غير أصيل، فالباسط المطلق هو الخالق المطلق وهو الأصيل، والباسط بالإضافة هو المخلوق وهو الخليفة الذي ليس له صفات إلا من خالقه، ومن يستمد صفاته من غير خالقه ليس له من الخليفة من شيء.

ومع أن الإنسان خلق في أحسن تقويم، إلا أنه خلق على الحاجة، ولهذا فهو لم يكن في الأرض أصيلا. ولذلك فمن يُخلق على الحاجة سيظل دائما في حاجة لمن بيده مسببات ومبررات إشباعها، فالمؤمن يُدرك أن الباسط تعالى هو الذي بيده مفاتيح الرزق فيتوجه إليه بالطاعة والعبادة حتى يستمد صفات استخلافه منه، فيعمل صالحا حتى يتمكن من الإشباع ويتطلع إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع وأفيد.

يقول الشيخ الشعراوي: "فإذا كان الحق سبحانه وتعالى الذي لا تنفذ خزائنه يعطي بمقدار، فلا يبسط على الناس جميعا، ولا يقبض عنهم جميعا، فمن باب أولى أن يكون الإنسان كذلك"[١١٠]. فالخليفة وحده هو الذي يتخذ صفاته من صفات مستخلفه، أما أولئك المبذرون والمشركون والمفسدون ليس أمامهم من يتخذ صفة منه، ولذا فهم المتبدلون والمنافقون

---

[١١٠] الشعراوي أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص ٢٤٨.

والمتظاهرون بما لا يُرضي من خلقهم في أحسن تقويم وبسط لهم الخير ومع ذلك هم يجحدون.

الخليفة هو المؤمن الذي مهما امتلك من خير ورزق وعلم وصحة وقوة يؤمن أنه لا زال الفقير لله تعالى، فهو لا يستغنى لحظة واحدة عن الباسط جل جلاله الذي خلقه وخلق له رزقا. أما أولئك الذين يفرحون بالحياة الدنيا على حساب الحياة الآخرة فلن يجدوا الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[١١١] الذين فرحوا بالحياة الدنيا هم كما جاء في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: مشركو مكة، الذين فرحوا بالحياة الدنيا ولم يعرفوا غيرها. وفي توصيفه تعالى للحياة الدنيا والآخرة، قال: (وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) وهذا الأمر يدل على صغر الدنيا وما فيها من خيرات وكنوز فهي متاع إذا ما قورنت بالآخرة، أي وكأنها قطعة من بين أمتعة الآخرة المتعددة، وفي هذا تبيان لصغر الدنيا وما بسطه الله فيها من خير إذا ما قورنت بما بسطه جل جلاله من خيرات كثيرة في الدار الآخرة، فالدنيا وما فيها من خير لا تساوي إلا وحدة صغيرة من وحدات الخير الكثير المتعددة في الدار الآخرة.

اللهمَّ يا الباسط يا الله لا تجعلنا من الذين نسوا نصيبهم من الدنيا واجعل لنا هذا النصيب مفتاحا من المفاتيح المدخلة للجنة، ولا تجعله قفلا بيننا وبين أبوابها ونعيمها، أنت ولينا نفوضك أمرنا يا الله يا بصير بالعباد.

قال تعالى: {إنَّ ربَّك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا}[١١٢]. مشيئة الله هي التي بها يُبسط الرزق لمن يشاء تعالى، وبها يُقبض عمَّنْ يشاء جل جلاله، فالمشيئة هو يعلمها ونحن لا نعلمها، ولكننا نؤمن أن ما يشاءه الله تعالى هو الخير كل الخير في ذاته. (إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) خبرة الباسط جاءت من إلمامه بطبيعة ما خلق، فهو يعلم بالحالة التي عليها خُلِقَ المخلوق وقُدِّر، ولأنه هو خالق العباد فهو لا يجهل أمرهم وما

---

[١١١] الرعد ٢٦.

[١١٢] الإسراء، ٣٠.

هم عليه، إنه يخبر أحوالهم ومكامن أسرارهم، وما تعلنه أنفسهم وما تسره أو تخفيه، ويعلم فوق ذلك ما سيفكرون فيه قبل أن يأتي زمن تفكيرهم فيه، إنه علاَّم الغيوب جل جلاله.

ففي صحيح البخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب"[113]. وقال أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقا لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: "ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ إنما الغنى غنى النفسِ"[114]

قال تعالى: {الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إنَّ الله بكل شيء عليم}[115]. بطبيعة الحال بما أن الله هو القادر المطلق فهو الباسط المطلق، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر عليه كيفما يشاء متى ما يشاء سبحانه بكل شيء عليم. ولأنه القادر على أن يبسط الرزق لمن يشاء فهو القادر على أن يقبضه عمن يشاء، ولذلك فهو القابض الباسط {والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون}[116]. فعل القبض دائما يترتب على فعل البسط، ولهذا فالأساس هو البسط وهو القاعدة، أما الاستثناء فهو القبض، فالباسط هو الذي بسط الوجود بداية ونهاية، ثم بسط الحياة قوة فاعلة في الامتداد والحركة، ثم بسط التكاثر والترابط والتصاهر، ثم بسط العلم والمعرفة، ثم حصر ذلك بين البداية والنهاية، فبسط الموت لتقبض على الحياة، وبسط المرض ليقبض على الصحة، وبسط الجهل ليقبض على العلم وأخيرا سيقبض على الموت (تموت الموت) لتبقى الحياة بساطا دائما بلا نهاية لمن آمن واتقى وعمل صالحا في الحياة الدنيا.

وعليه في الأساس الخلقي البسط هو القاعدة، وسيظل البسط حياة سرمدية باقية بعد القبض على الموت بموتها، مما يجعل العودة الباقية للصحة الباقية والفرحة الباقية والنعيم الدائم والجنة الواسعة والفيض الكثير في كل خير، فبعد موت الموت لا وجود للألم ولا المرض ولا

---

[113] يوسف المرعشلي، ولله الأسماء الحسنى. مرجع سابق، ص ١٣١.

[114] المرجع السابق، ص ١٣٢.

[115] العنكبوت، ٦٢.

[116] البقرة، ٢٤٥.

الحاجة ولا الفقر، ولا الجهل، أي لا مكان لممارسة العيوب والنقائص، فإن كنت الخليفة فبدخولك إلى دار الكمال ترى وجه ربك الأعلى جل جلاله.

ولهذا فإن الغنى والبسط في الحياة الدنيا ليسا بصفتين أصيلتين في أفعال الإنسان، فهما يفتقدان لصفة الديمومة التي يتصف بها الباسط المطلق سبحانه وتعالى، فكما أن الفقر قابل للتبدل كذلك الغنى، فليحمد الغني ربَّه تعالى على ما بسط له من رزق حتى يستمر غناه وينال أجره مرتين في (الدنيا والآخرة) وليدع الفقير ربه أن يخرجه من ديار العوز والحاجة ويبسط له الرزق الذي يخرجه من أزمات الفاقة. قال تعالى: {أو لم يروا أنِّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنَّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون}[١١٧].

هذه الآية الكريمة لا تستوجب القنوط من رحمة الله فالله الباسط للرزق قادر على أن يخرج الفقير من فقره، فالمؤمن لا ييأس بما أنه يؤمن بالله الباسط الرازق الغني، فكم من فقير أصبح من الأغنياء في الدار الدنيا، وكم من غني في الدار الدنيا سيكون من الفقراء في الدار الآخرة إذا لم يؤمن به واحدا أحدا، وإذا لم يستغفر ربه ويتب إليه إذا ما أخطأ. الآيات كثيرة بين أيدي الناس، الفقر والغنى آيتان من آيات الله العظام، اللتان يُدركهما الخليفة، وهو يعلم أن من فقد بصره أصبح فقيرا لما يُرى، ومن أصبح مريضا بعد أن كان غنيا بالصحة والعافية يُعد في حاجة للصحة وفقير لها، ومن كان معاقا وشفي من إعاقته بأسباب التقدم العلمي من فضل الله عليه أصبح غنيا بعد فقره للسلامة التي تساويه بالمعافين من الإعاقة، ومن كان غنيا وتعرض لكارثة قد يكون عضوا في طبقة الفقراء بعد أن كان عضوا فعالا في طبقة الأغنياء، وهكذا كل ما ليس بأصيل يتبدل بمعطيات التبدل ومتغيراته المتصلة والمنفصلة ولا قوة إلا بالله ربُّ العالمين، ومن يقنط من رحمة الله ليس بخليفة.

فالخليفة دائما هو غني ولا يمكن أن يكون من طبقة الفقراء، فهو الغني بإيمانه وإدراكه لرحمة الله تعالى، وهو ليس في حاجة لأحد غير الله تعالى، وهو الباسط يديه أمام الله ليشكره على ما أعطاه من نعم العقل والبصر والسمع وهو المؤمن بأنه لن يموت قبل أن تتم

---

[١١٧] الروم، ٣٧.

أيامه التي ضمنها له الله تعالى، وهو يعلم أنه سيعيش في رحمة الله مكفولا وسيأتيه رزقه من غير أن يحتسب وذلك لإيمانه المطلق بمن يرزق من يشاء بغير حساب. ألا يُعد مثل هذا المؤمن من الأغنياء؟ في مقابل من يمتلك ثروة واسعة وهو يعاني مما يعاني من أمراض أو خوف دون أن تنفعه أمواله وما يكتسب؛ إلا يعد هذا ومن هم على شاكلته هم الفقراء الذين هم في حاجة؟. ولو أدركوا لأدركوا رحمة الله.

قال تعالى: {الله الذي يُرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كِسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون}[١١٨]. بَسْطُ السحاب في السماء: امتداده مساحات كافية للحركة والانتقال والتلاقح من أجل الولادة (ولادة المطر) التي تخرج من خلال السحب الكثيفة التي جعلها الله كسفا أي متراكمة شفافة وهي تموج بالحركة والمطر المنهمر من نسيجها المنفوش. ولأن الله يرسل الرياح لتثير سحابا وتنقله حيثما يشاء به لينزله رحمة على من يشاء من عباده الذين يستبشرون فرحة بسقوطها على أراضيهم لتنبعث الحياة فيها قوة حتى تمدهم بالنعيم الذي يجعلهم على حالة نقلة من الحاجة والفاقة إلى الإشباع والادخار.

ولأن الله هو الباسط فهو الموسع الذي يرسل الرياح لتثير سحابا في السماء رحمة على العالمين، ولأنه الباسط فبقدرته يجعل الرياح مثيرة للسحاب على كامل الأرض، ولكن لحكمته جعل كل شيء بمقدار، ولكل شيء حين، ولذا فإنه قال تعالى: {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}[١١٩]. إنه تقدير دقيق لعدم حدوث الخلل، ولهذا بسط الله كل شيء بمقدار ما تتطلبه الحاجة والظرف، وذلك حتى لا يعبث العباد بما بسط لهم من نعيم وخيرات حسان.

ولأن الباسط هو الذي مدَّ كل شيء بمقدار وحسب الحاجة، لذا فحسب الحاجة قد مدَّ الباسط الظل ثم قبضه قبضا يسيرا مصداقا لقوله تعالى: {ألم تر إلى ربِّك كيف مدَّ الظل ولو شاء

---

[١١٨] الروم، ٤٨.

[١١٩] الشورى ٢٧.

لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا}[١٢٠] بدون شك الامتداد والحركة هما اللذان جعل التعاقب كل يوم بين الليل والنهار مما جعل الظل أمام الشمس غير ساكنٍ (على حالة من الامتداد والانقباض) ولهذا فكان للبسط نهاية وللقبض نهاية وفقا لقاعدة: (كل في فلك يسبحون، ولكل بداية نهاية).

البسط والقبض صفتان لذات واحدة، ولذا فهما يتزامنان في أداء الفعل وممارسته، وهذا الأمر يجعل الرحمة ظاهرة في تزامنهما، فعلى سبيل المثال: من البشر من يمتلك مالا وعلما وقوة، فمع أن هذه علامات خير (العلم والمال والقوة) إلا أنه إذا كان المستخدمون لها ليسوا على خير، ستكون نتائجها مؤذية على الآخرين، مما يجعل القبض على المفسدين في الأرض رحمة على المصلحين فيها، أي في الزمن الذي يتم فيه القبض على المفسدين في الأرض في ذات الزمن يسعد المصلحون فيها وينبسطون رحمة. ولنأخذ قصة السيد الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام حينما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار الذي كاد أن ينقض لولا أن بناه السيد الخضر صلوات الله وسلامه عليه بالرغم من اعتراضات سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام المتوالية، والتي جاءت الإجابات عليها في قوله تعالى: {أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا فأردنا أن يُبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رُحما وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يَبلغا أشُدَّهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطِع عليه صبرا}[١٢١].

من هذه الآيات الكريمة نلحظ تزامن القبض مع البسط، فالقبض على السفينة بإعابتها بسط بقائها للمساكين الذين هم في حاجة، ولو أخذها الملك غصبا لفقدوا مصدر عيشهم الذي لم يرتق بهم إلى مستوى الوفرة.

---

[١٢٠] الفرقان، ٤٥، ٤٦.

[١٢١] الكهف، ٧٩ . ٨٢.

أما القبض على روح الغلام غير الخيِّر وقتله فقد بسطت أبواب الرحمة على أبوية بإنجاب أبناء مؤمنين صالحين عوضا عن الابن الكافر.

أما الجدار فكان بناؤه من أجل أن يحفظ الكنز الذي دفنه أبوهما من قبل أن يموت، ولأنهم صغار ولم يبلغا سن البلوغ التي تمكنهما من الاعتماد على نفسيهما أقام السيد الخضر هذا الجدار الذي كاد أن ينقضَّ لولا أن بناه. ولهذا كان القبض على انقضاض الجدار بسطة بقاء الكنز مستورا ومحفوظا عن أعين السرَّاق الذين لو سقط الجدار لتمكنوا من أخذه وسرقته دون أن يحس اليتيمين أو يعرفا أن لهما من أبيهما كنزا ينقذ حياتهما ويحقق لهما بسطة الحياة بعد أن يقبض عنهما آثار الحاجة والفاقة.

الحِكم التي تؤخذ من القبض والبسط:

. **حكمة التفكر**: قال تعالى: {فأقصص القصص لعلهم يتفكرون}[١٢٢]. التفكر في القصص يجعل المتفكرين يتَّعِظون في حياتهم حتى لا تتكرر لهم تلك المواقف التي لا ترضي الله ولا ترضي عباده الصالحين، ولذا فالتفكُّر فيما قد جرى يُمكِّن من التفكر في المستقبل، ولهذا فالتفكر في حقيقة أمره هو من اجل المستقبل الأفضل.

قال تعالى: {إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زُخرُفها وأزَّيَّنت وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نُفصِّل الآيات لقوم يتفكرون}[١٢٣]. في هذه الآية الكريمة مواعظ لمن يتعظ حيث الحياة زائلة فلا ينبغي الاغترار، بل يجب التفكر في المستقبل الذي هو آتٍ لا محالة فمن ثقلت موازينه سيكون في عيشة راضية، ومن خفت موازينه ستكون أمه هاوية أي نار حامية، ولهذا يجب على الخليفة أن يتعظ ولا يغتر وأن يفكر في مستقبله ويعمل من أجله، وإلا سيكون من الخاسرين مثل الذين غرتهم الحياة الدنيا وظنوا أنهم قادرون على البقاء قوة، ولما جاء الأمر للأرض والحرث

---

[١٢٢] الأعراف، ١٧٦.

[١٢٣] يونس، ٢٤.

والزرع كان كل شيء حصيدا وكأن لم يكن، لذا على الخليفة ومن يراد له أن يكون خليفة أن يتفكر حتى يتعظ بما هو خير في الحياة الفانية من أجل حياة باقية لا تزول.

قال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فسألوا أهل الذكرِ إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون}[١٢٤]. في هاتين الآيتين الكريمتين مواعظ لأولي الألباب، فالذين قالوا إن الله أعظم من أن يكون رسوله بشر، أي أنهم يودون أن يكون رسولهم ملكا من الملائكة، وهذا الحال هو الذي كان عليه مشركو مكة الذين أنكروا نبوَّة محمد عليه الصلاة والسلام، وقالوا إنه بشر والله تعالى لا يمكن أن يكون رسوله بشراً، فجاء قوله لهم (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) أي اسألوا الذين نزلت عليهم الرسالات السابقة ليخبرونكم بحقيقة الأمر وهي أن جميع الأنبياء كانوا بشرا. وقوله تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون) الذكر هو القرآن الكريم، الذي فيه تبيان ما قد سبق تنزيله في الرسالات السابقة على الرسالة المحمدية الخاتمة وذلك بالنسخ والتبيان للأحكام التي لم تُفصَّل من قبل، وفي هذا الأمر لعلهم يتعظوا بما يتفكرون.

. **حكمة التذكر:** قال تعالى: {أولم نعمِّركم ما يتذكَّر فيه من تذكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير}[١٢٥]. ولأن الحياة تجارب وخبرة جعل الله العمر الذي يناسب ذلك حتى لا يكون الصغر حُجَّة على القصور عن الفهم والإدراك. واللوم هنا جاء على الذين عمَّروا ولم يتعظوا مما رأوا بعد أن عايشوا وعرفوا، وبعد أن جاءهم الأنبياء والرسل وبينوا لهم الصواب من الخطأ (الحلال من الحرام) ومع ذلك لم يتعظوا فقال لهم عز وجل: (فذوقوا فما للظالمين من نصير) فذوقوا العذاب بما كفرتم وأشركتم، ولذا فالعذاب حق على من لا يتعظ ويتقي الله ربه، وهذا الحق هو الذي يبسط السعادة في نفوس المؤمنين الذين يتذكرون.

---

[١٢٤] النحل، ٤٣، ٤٤.

[١٢٥] فاطر، ٢٧.

قال تعالى: {ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار يُثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء}[١٢٦]. كم هي من مقارنة رفيعة المعنى والدلالة فالكلمة الطيبة كما فسَّرها المفسرون هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، والكلمة الخبيثة هي (الشرك بالله) والشجرة التي جاءت للماثلة اعتبرها البيضاوي شجرة النخيل الشجرة المباركة الضاربة في الأرض، والشجرة الخبيثة قال شجرة الحنظل التي تنبت على سطح الأرض ولم تتمكن من ضرب عروقها فهي على عكس حال شجرة النخيل المباركة[١٢٧].

يُفهم من هذه المقارنة بما لا يدع مجالا للشك أن الكلمة الباقية والخالدة في الدارين هي كلمة الحق (لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولهذا فليتذكر أولوا الألباب لعلهم يُرحمون.

قال تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون}[١٢٨]. كتاب موسى هو التوراة الذي جاء بعد أن هلكت أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم جميعا الصلاة والسلام.

و(بصائر للناس) أنوار تنير قلوب الناس المهتدين إلى الحق والطريق المستقيم، ليميزوا بين الحق والباطل، والخطأ والصواب، ففي كتاب موسى الهداية إلى الله تعالى وإلى العمل الذي يُسهم في إصلاح الأرض ولا يُسهم في الإفساد فيها، والرحمة هي مجموع أفعال الخير بين الناس وهي التي يتم نيلها بالاتعاظ وتوحيد الله واحد أحد لا شريك له.

---

[١٢٦] إبراهيم، ٢٤ . ٢٧.

[١٢٧] تفسير البيضاوي، ج١ ، ص٣٣٣، ٣٣٤.

[١٢٨] القصص، ٤٣.

. **حكمة الاتعاظ:** الأخذ بالموعظة الحسنة ينجي من الانغماس في الرذائل، ويصوِّب إلى ما هو أفضل وأنفع وأفيد وأجود. المواعظ دروس من الحياة تفيد من له آمال أو غايات في عالم الوجود (القريب أو البعيد) فالدار الدنيا مليئة بالمواعظ التي لو أخذ بها لأدت بصاحبها إلى دخول الجنة. قال تعالى: {وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين}[١٢٩]. النص القرآني ضميره في هذه الآية يعود على موسى عليه الصلاة والسلام، والألواح هي التي كتبت عليها المواعظ التي فيها الحكم النافعة لموسى ومن اتبعه من المؤمنين، وقوله: (من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء) تدل على كل ما يجب الأخذ به، وعلى كل ما يجب الابتعاد عنه، فالمواعظ تحتوي فيما تحتوي من مضامين الأوامر والنواهي والحلال والحرام، وكل ما ينظم حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات من قيم وفضائل وشرائع، وكل ما يؤدي إلى النصيحة والتذكير بالعواقب ويرشد إلى أفعال الخير وأعماله.

وقوله تعالى: (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) تعني خذها بشوق وإرادة قوية وجد وعزيمة ولا تتردد ولا تتأخر في أخذها وأخذ المواعظ والحكم منها، وفوق ذلك لا تنس قومك فأنت مأمور مرتين: المرة الأولى، بأخذها كاملة دون تفضيل أو اختيار. والمرة الثانية، أن تُبلِّغ قومك بها وبما فيها من مواعظ، ليأخذوا بإرادة ودون إكراه المواعظ الحسنة التي تحتويها الألواح التي بين يديك يا نبي الله يا موسى عليه أفضل الصلاة والسلام، ولذلك فالأخذ بأحسنها تدل على الأخذ بالأوامر والعمل بها، وترك النواهي والحياد عما تنهى عنه. وقوله: (سأوريكم دار الفاسقين) الفاسقين الذين حق عليهم القول كقوم عاد وثمود وقوم صالح ولوط أو الذين يحق عليهم كفرعون ومن تبعه من قومه من المشركين.

قال تعالى: {يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين}[١٣٠]. مع أن نص المخاطبة يدل على المطلقية بقوله تعالى: (يا أيها الناس) إلا أن

---

[١٢٩] الأعراف، ١٤٥.

[١٣٠] يونس، ٥٧.

البعض يقول: إن المخاطبة كانت لقريش، والموعظة هي التي جاءت شافية لما في الصدور من تساؤلات واستغرابات أو ضغائن ومكائد، وظنون وسوء اعتقاد، وخلاف واختلافات في المطالب والرغبات وإظهار الحقائق، وفيما يجب وما لا يجب. والموعظة التي وردت في هذه الآية الكريمة هي الموعظة المطلقة وهي القرآن الشامل والجامع لكل حكمة وموعظة، والكاشف عن محاسن الأقوال والأفعال والأعمال ومقابحها، وذلك بما يحفِّز عليه ويُرشِّد به ويحرِّض عليه من حلال وخير، وما ينهى عنه ويحذِّر منه ويجنب عنه من مكروه وحرام، ونحن نقول: أن قوله تعالى: (يا أيها الناس) فهي عامة لكل الناس دون تخصيص لقريش.

وقوله: (وهدى ورحمة للمؤمنين) أي أن هذا القرآن الموعظة يهدي للتي هي أحسن فينقل الإنسان من حالة الضلال إلى حالة الهداية، ومن الشرك إلى الإيمان بالله واحدا أحدا لا شريك له في الملك سبحانه جل جلاله. في هذه الآية تخصيص للمؤمنين دون غيرهم، وذلك لأنهم المؤمنون الذين يدركون رحمة الله عليهم وهم مهتدون إلى الجنة.

. **حكمة النقلة:** النُقلة متعدية بالحالة التي كان عليها الخليفة إلى حالة الهداية التي هي أكثر تفضيلا إذا ما قورنت بالحالة السابقة على الإيمان بالله تعالى واحدا أحدا لا شريك له. والنقلة الإيمانية بلوغ مستوى قيمي أفضل في زمن قياسي قد يكون وفقا لِما هو متوقع وقد يكون وفقا لغير المتوقع، مما يجعل غير المتوقعين في حالة استغراب وكأنهم لا يُصدِّقون ما يحدث أو ما حصل بالفعل. وهذه النقلة هي التي تتزامن مع قوله تعالى: {وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}[١٣١]. إنه أمر القبض والبسط على من يشاء ولِما يشاء، ومتى ما يشاء، وكيفما يشاء سبحانه على كل شيء قدير.

قال تعالى: {ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير}[١٣٢]. التسخير جاء مطلقا ليشمل كل ما خلق الله تعالى وبسط في السماوات والأرض، سواء الذي

---

[١٣١] البقرة، ١١٧.

[١٣٢] لقمان، ٢٠.

تَمكَّن الإنسان من كشفه ومعرفته أو الذي سيتمكن عبر الزمن بالبحث العلمي من بلوغه وتسخيره فيما يفيد بني آدم وينفعهم، وكلما تمكن الإنسان من المزيد المعرفي تحققت له النقلة العلمية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإنسانية، التي تنقله من مستوى أقل إلى مستويات أكثر رفعة وعلوا، وكلما تأخر الإنسان عن ذلك تأخر. وبما أن الله تعالى قد سخَّر لنا ما في السماوات والأرض، إذن لِما لا نبحث ونتعلم حتى تتحقق لنا النقلة، كما تحققت من قبل حين انتقل أباؤنا الذين سبقونا بالإيمان من الجهالة إلى الهداية ونشروا الدين وبشروا بالرسالة الخاتمة حتى انتشرت في المعمورة. وقوله: (وأسبغ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنةً) أي أنه أظهر نِعَمَهُ بالتمام والكمال لتعم الناس جميعا، وبذلك الدين الإسلام يُعد الشامل لنعمه وفضائله التي تحقق لبني آدم النقلة إذا ما اهتدوا. وبدون شك من النعم ما هو ظاهر للمشاهدة والملاحظة ومنها ما هو كامن مثلما يكمن الزيت في حبة الزيتون أو بذرته، ومثلما تكمن الحقيقة في العلل والأسباب، ومثلما تكمن الإبل والسماء والجبال والأرض في الكيفية التي عليها وبها خلقت، ومثلما يكمن الإنسان في المعنى الذي يجب أن يكون فيه إنسان.

فالظاهر هو ما ليس بكامنٍ ما يجعله خاضعا للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها، وهكذا تُحلل المعلومات وفقا للبيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضحا، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية؛ والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

الظاهر هو المبسوط الذي لم يعد مخفيا عن المشاهدة والملاحظة مما يجعله بيّن للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، وهو قابل للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية. الظاهر ما ليس بكامن، فالعلاقة بينهما

كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلى حيز الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة التي عندما تُغرس في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها وتتبسط للمشاهدة والملاحظة وتتقبض النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تُثمر.

وعليه، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خيِّر أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة. وكثيرا ما يكون الظاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرف عليه. ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن. فالسلوك كظاهر، قد يكون أمام المشاهد سويا، أو مثالا أو فيه القدوة، ولكنه في الواقع، قد يكون غير ذلك، فالابن، أو الابنة كثيرا ما يكونان أمام أسرتهما، وخاصة الوالدين، مبسوطان على الخُلق والالتزام والأدب، ولكنهما في حقيقة الأمر قد لا يكونان كذلك، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرف مع الاتجاهات السلبية، فإنهما قد يفورا رافضين وبغضبان من هذا الإدعاء، مع أنه الحقيقة، ولذلك الحكم بالظاهر على الظاهر قد لا يؤدي إلى الصواب، والظاهر قد يكون شكلا وصورة، وقد يكون قولا أو سلوكا، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعى في تقصي الحقائق. في العلوم الطبية، والتحليل النفسي، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة، أو التشخيص، أو العلاج، وذلك لأن الحكم على الظاهر بمشاهدته ووصفه، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته، قد لا يؤدي إلى نتائج علمية يمكن اعتبارها والاعتماد عليها، والظاهر قد يكون مشاهدا، وقد يكون محسوسا (ملموسا ومدركا) مثل ارتفاع حرارة المريض، التي بالمس يتم التعرف عليها، وعند قياسها يمكن تحديد درجتها بدقة، ولكن الذي يُريد أن يعرفه الطبيب، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن ورائها، فعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي إلى مريض مصفرٍّ الوجه،

هل يتوجهون هؤلاء الأخصائيون إلى معالجة الاصفرار الظاهر؟ أم إلى البحث عما يكمن وراءه من علل وأسباب؟ لذلك يكون الإصفرار كظاهر مؤشر إلى البحث عن كامن، لأن الإصفرار مسبب، وبما أنه مسبب، إذن لابد وأن تكون من ورائه أسباب، ومسببون له، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرى ظاهرة بعد التعرف عليها، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر الله في الكبد، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة، وقد يكون السبب غير ظاهر، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان، أو من نتائج مترتبة على ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدان والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلى الهلاك، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها، مثل الجندي في جبهة القتال، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك، دون أن يكون له وجهة نظر في ذلك.

أما الكامن فهو الذي لم يباح به بعد وهو المقبوض عليه مع وجوده يشغل حيز، وهو المضمون الذي عليه الظاهر، ولهذه المعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يُهتمُّ بالظاهر والكامن في التعرف على الأشياء أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية.

الكامن ما ليس بظاهر، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس. ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي: الكمون هو أن تكمن بعض الأشياء في بعض. وفي نظرية التعلم هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدوث الاستجابة[١٣٣].

ولذا فإن الكمون هو مكمن انقباض الحقيقة، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالانبساط والحركة، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزا ولا تراه العينان ولكن يدركه كل عقل ناضج سليم. وهكذا تكمن الأسرار في الصدور حتى يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة.

---

[١٣٣] عقيل حسين عقيل، الموسوعة القيمية لبرمجية الخدمة الاجتماعية . الجزء الأول، القاهرة، الدار الدولية ، ٢٠٠٧، ص ٩٦.

الكامن في حاجة للاستثارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبذل من جُهدٍ، وقد يظهر شيء منه في فلتات اللسان، ولهذا لا ينبغي أن يغفل الأخصائي الاجتماعي أثناء قيامه أو إجرائه لمقابلات مهنية مع العملاء عمّا يرد عن فلتات اللسان، إلى جانب ما يتمكن من معرفته بالأساليب الإسقاطية أو عن طريق استخدام التصانيف القيمية، وأساليب التحليل العلمي مع الملاحظة والمشاهدة الواعية.

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف على جوهره، على أسراره وخفاياه، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته، وعليه إن دراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاته، بل الغاية تكمن فيما وراءه. ولذلك فإن تحليل البصمات لم يكن الغاية منه التعرف على البصمة، بل الغاية معرفة صاحبها أولا. وثانيا معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك. وثالثا معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلى ارتكابه، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث. وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ، يكون كامنا في الشيء ذاته. وليس معنى ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد، فكثيرا من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكمنها، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة، ولم يتم القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة، وكأنه لم يكن سارقا، وبعد إجراء عملية المقارنة البصمتية، تم القبض عليه فكان هو السارق.

إذن الإنسان كظاهر يكمن وينقبض في بصماته، كما تكمن المطر في السُحب، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون، وهكذا يكمن الكائن في النطفة وتكمن السنبلة في البذرة.

وبناء على ذلك قد يكون الكامن مشاهدا، وقد لا يكون كذلك. وقد يتوحَّد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها، والمجتمع في حشوده. ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع، تكوينات لا يمكن أن تشاهد، ولكنها تُلحظ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يرى الزواج بأم عينيه؟. فالزواج لا يمكن أن يخضع للمشاهدة أو الرؤية، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) على موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعى الناس

إليه. إذن الذي تتم مشاهدته، هو الزوجين الذكر والأنثى، والعقد المكتوب بينهما على ورق، والناس الذين حضروا لأجل ذلك، وهذا كله لم يكن الزواج، بل هذه مراسم الزواج. الزواج مودة، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلى التباس بعضهما حبا واشتياقا وتقديرا وإيمانا مصداقا لقوله تعالى: {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها}[١٣٤] وقوله تعالى: {والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا}[١٣٥] وفقا لاتفاق على مستقبل مشترك، يجعل الآخرين شاهدين على ذلك بأنه الحق، ومحرضين عليه.

إذاً الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة، وذكر وأنثى، وهذه تُلحظ، ولا تشاهد بالعينين. والطلاق كموضوع هو الآخر يُلحظ، ولا يشاهد، وهكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما، ولا يخضعان للمشاهدة؛ لأن الذي يشاهد هم الأفراد، كبار وصغار، ذكور وإناث، وحشود من البشر، وهؤلاء لم يكونوا هم الأسرة، ولا المجتمع، مع أنهم عناصر تكوينهما، فبدون علاقات مشتركة ذات معنى لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنى للأسرة، أو المجتمع، ولهذا تتكون معارفنا من ظاهر وكامن وتوحُّد بينهما. فنحن نعرف الأبوة، والأمومة، والأخوة، ونعرف الخال والجد، ونعرف أيضا أنَّ جميع هذه المعاني غير قابلة للمشاهدة العينية؛ لأنها كامنة ومترتبة على علاقات يمكن ملاحظتها.

وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية، بل قد يكون الكامن هو المعرفة الوافية. ولكن من أجل المعرفة العلمية ولكي تكون متكاملة ينبغي أثناء تحليل البيانات والمعلومات، أن لا يغفل البحاثة والمحللون العلميون والمفسرون الموضوعيون عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتى لا تكون المعرفة قاصرة.

وللمزيد التوضيحي أتساءل: هل العبادات كدلائل كامنة هي العبادات كسلوك مشاهد؟ فالحج على سبيل المثال، هل هو ما نشاهده من سلوك، أم أنه أكثر من ذلك؟.

---

[١٣٤] الروم، ٢١.

[١٣٥] فاطر، ١١.

إنَّ ما نشاهده أثناء أداء فريضة الحج هو مشاهدة حشود من البشر، ترتدي زيا موحدا (الإحرام) وتتبع سنة واحدة في مواقيت معينة وأماكن محددة، ويلحظ عليها التعاون، والانضباط، والمساواة في أداء الفرائض، وأنه لا رئيس لهذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم. فهل هذا السلوك المشاهد، والملاحظ هو الحج؟. في اعتقادنا السلوك الظاهر، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج، ولم يكن الحج في ذاته. فالحج فريضة وعقيدة وإيمان بوحدانية الله، واعتراف بقدسية ذلك المكان الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان، ويقينا بأن ما قام به محمد صلى الله عليه وسلم من سنة عملية، هو الحق الذي يستوجب الاتباع. ولهذا لو لم يكن هناك مدلول كامن لفريضة الحج، ما كان هناك ظاهر سلوكي له.

وعليه لا تحدث النقلة إلا بدليل ظاهر وآخر كامن، أي أنها لا تحدث إلا بنية صادقة، وعزيمة واعية، وقرار مسؤول، وعمل نافع.

ولذا فإن النقلة تقع في دائرة البسط ولا تتحقق إلا بعد تطلُّع وإصرار وعزيمة عن وعي وإرادة مع تحدٍ لكل الصعاب حتى مغالبتها وتحقيق الأمل. فالذين تتغير أحوالهم من مستوى قيمي منخفض إلى مستوى قيمي أكثر رفعة ورقيا هم الذين يصنعون النقلة وهم الذين يستمدون صفة بسطهم من صفة الباسط المطلق جل جلاله وهم المهتدون.

وعليه فالقاعدة: (الذي يبسط هو الذي يقبض) ولذا قال تعالى: {ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير}[١٣٦]. فقوله: (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) أي لو كانت من صفاته البسط فقط لكان الفساد في الأرض بين الناس فتنة على ما بسط لهم من رزق، وذلك لانعدام تقديرهم لفعل الباسط، وللرزق المبسوط. ولهذا يُحمد الله تعالى على أن من صفاته الحسان صفة القبض التي تجعل القوة في حالة اتزان، فلا يسود الاستثناء على حساب القاعدة (الذي يبسط هو الذي يقبض) وهو الذي يعدل ويُقدِّر كل شيء تقديرا، مصداقا لقوله تعالى: (ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) تدل هذه الآية الكريمة على أنه يُنزِّل كل شيء وفقا للحاجة وما يُشبعها

---

[١٣٦] الشورى، ٢٧.

حتى لا يطغى العباد بما بسط لهم من رزق، ولهذا على العباد المؤمنين الإكثار من حمد الله وشكره على نعمه وما يجود عليهم منها من خيرات وفضائل وإلا فسيكونوا من النادمين.

وبما أن القاعدة: (الذي يبسط هو الذي يقبض) إذاً الله وحده هو الباسط القابض وهو المقتدر بالمطلق مصداقا لقوله تعالى: {وكان الله على كل شيء مقتدر}[١٣٧] ولأنه المقتدر على كل شيء ولا شريك له في الملك خلق كل شيء وقدره تقديرا مصداقا لقوله تعالى: {ولم يكن له شريكا في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا}[١٣٨]. إذاً لا بسط إلا بمقدار، ولهذا لا مبسوط بالمطلق إلا الباسط المطلق جل جلاله.

قال تعالى: {والله يقبض ويبسط}. في هذه الآية الكريمة مثلما ورد القبض فعلا كذلك ورد البسط فعلا ولم يردا اسمين، ولأنهما فعلان فهما يؤكدان على صفتين من صفاته المتعددة، فكما أن من صفته القبض فهو أيضا من صفة البسط، ولهذا كانت لأفعاله صفات يتصف بها في الفعل والقوة والإرادة دون أن يشركه أحد فيها سبحانه لا إله إلا هو فعَّال لِما يُريد وهو السميع العليم.

ومع أنَّ الفعلين (يقبض ويبسط) وردا في الآية السابقة بمعنيين متباينين، إلا أنهما لذات علية واحدة، ولذلك كلما تعددت الصفات الحسان تعددت أفعالها الحسنة والمتصف والفاعل واحد. ومع أن القبض لا يعني البسط إلا أن القابض هو الباسط جل جلاله. ولهذا فمن صفات الله الحسنى تلازم الصفتين دون تفرد في الذكر الحكيم وهما: (القابض الباسط) حتى إن بعض علمائنا الأجلاء رأوا أنه لا فاصل بينهما أبداً، ونحن ولأجل التدقيق في ما تدل عليه كل صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى ارتأينا أن نخصَّ كل صفة من صفاته بالبحث والتفحُّص والتحليل الموضوعي لأجل إزالة اللبس والغموض الذين قد يعلقان بأذهان بعض الباحثين وذلك لِما يدلا عليه فعلي القبض والبسط من تباين في المعنى والدلالة. ولهذا قلنا مع أنهما فعلين على معنيين متباينين إلا أنهما معا لفاعلٍ واحد أحد. وعليه فإن جميع

---

[١٣٧] الكهف، ٤٥.

[١٣٨] الفرقان، ٢.

أسماء الله الحسنى وما تؤدي إليه من أفعال هي متصلة وغير منفصلة، فكما أن الذي يقبض هو الذي يبسط كذلك الذي يقبض ويبسط هو الذي يُهيمن وهو الملك ومالك الملك والرحمن الرحيم.

وبناء على ما تقدم وكما سبق أن بينا فمن يريد أن يكون خليفة لله في الأرض عليه بشيئين اثنين:

الشيء الأول: أن يستمد صفاته من صفات خالقه تعالى.

والشيء الثاني: أن يصلح الأرض ولا يفسد فيها.

فالله الذي بسط لنا الأرض والسماء بسط لنا خيرا كثيرا، ولأجل ذلك إذن من مهام الخليفة في الدار الدنيا أن يعمل خيرا كثيرا يرضاه الله الذي بسط له السماوات والأرض وما فيهنَّ من خير كثير.

ولأن الله بسط لعباده الرزق لأجل أن يعيشوا حياةً طيبةً ولا يُفسدوا في الأرض ويسفكوا الدماء فيها، لذا فمن يرد أن يكون خليفة لله فعليه أن يعمل عملا صالحا مصداقا لقوله تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم}[١٣٩]. وقال تعالى: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولنجزينَّهم أحسن الذي كانوا يعملون}[١٤٠]. وقال عز وجل: {وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون}[١٤١]. هذه مجموعة من الآيات العظام والحُجج النبيلة فيها؛ فإن لم تكن حُججها بيد من يُراد له أن يكون الخليفة فبالضرورة ستكون حججها دَيناً عليه.

لقد بسط الله لنا الجسم لنمشي سويا تمييزا لنا عن تلك الزواحف وتلك التي تمشي مكبة على وجهها، لذا فليحمد الخليفة ربه الذي لم يجعله زاحفا أو يمشي مكباً على وجهه مثلما تزحف

---

[١٣٩] النور، ٥٥.

[١٤٠] العنكبوت، ٧.

[١٤١] غافر، ٥٨.

الأفاعي أو تمشي البهائم التي لا تستطيع أن تنظر إلى المستقبل الأفضل ولا تتمكن من إحداث النقلة التي تحيد بها من الظلمة إلى النور.

قال تعالى: {ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهنَّ نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يُعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا}[١٤٢] البسط أساس الوجود وهو السابق على القبض واللاحق عليه؛ سابق له من حيث أولا: أن الله قد مد الكون بأمره فكانت السماوات المبسوطة والأرض المبسوطة. ثم ثانيا يتم فعل القبض فتصبح الأرض تحت قبضته والسماوات مطويات بيمينه مصداقا لقوله تعالى: {والأرضُ جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون}[١٤٣]. ثم ثالثا: يبسط الحياة ويبعث عباده من جديد لحياة دائمة بعد حساب عادل مصداقا لقوله تعالى: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قياما ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقُضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون وسيق الذين كفروا إلى جهنم زُمرا حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رُسُلُ منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زُمرا حتى إذا جاءوها وفُتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين وترى الملائكة حافين من حول العرش يُسبِّحون بحمد ربهم وقُضي بيتهم بالحق وقيل الحمد لله ربِّ

---

[١٤٢] نوح، ١٥ . ٢٠.

[١٤٣] الزمر، ٦٧.

العالمين}[١٤٤]. وهكذا حال الوجود حياة. ثم موت. ثم بعت الحياة وبسطها من جديد. ومن تُبعت له الحياة من جديد فلن يموت أبدا.

ولأن القبض والبسط من صفات الله الحسنى لذا فهو باسط الحياة وقابضها ثم باسطها من جديد، وباسط الرزق وقابض الحاجة والفاقة، وباسط الطمأنينة وقابض الخوف، وباسط الخوف في قلوب الضالين وقابضه من قلوب المؤمنين، باسط المحبة في قلوب الوالدين والأخوة وفي قلوب الأبناء رحمة، وباسط القلق فيهم محبة بينهم وخوف على كل منهم من الأذى والألم والمرض والحاجة، وهكذا هو باسط كره المظالم بين المؤمنين رحمة. إنه باسط الحق والعدل وقابض الباطل والظلم، وإنه باسط الليل سكنا، والنهار مبصرا مصداقا لقوله تعالى: {هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا}[١٤٥]. وهو الذي بسط لعباده الشمس والقمر دائبين مصداقا لقوله تعالى: {وسخر لكم الشمس والقمر دائبين}[١٤٦]. سبحانه جل جلاله باسط السمع وقابض الصم، وباسط البصر وقابض العمي، وباسط الكلم وقابض البكم وباسط الجمال على حساب القُبح وباسط الحركة على حساب السكون، وباسط الفوز على حساب الهزيمة.

وعليه فالعلاقة ارتباطية بين البسط والقبض، فبسط اليد على حساب قبضها، وقبضها على حساب بسطها، والتوسط في البسط والقبض خير، وهكذا يبسط الرزق والغنى على حساب الشح والفقر، والتوسط في الإنفاق خير. ولأن بين البسط والقبض تزامن لذا كلما فاز فريق في ميادين المنافسة والصراع، انهزم في ذات الوقت الفريق المقابل له في المنافسة أو الصراع، وكلما شفي المريض انبسطت الصحة في بدنه ونفسه وانقبض الألم والحسرة منهما، وهكذا كلما بُسطت الخطى في اتجاه التقدم إلى الأمام طويت المسافة وقُبضت بين نقطة الانطلاق ونقطة النهاية. وعندما تُفك القيود من الأيدي وتُهد السجون وأركانها القابضة تَبسط

---

[١٤٤] غافر، ٦٧ . ٧٥.

[١٤٥] يونس، ٦٧.

[١٤٦] إبراهيم، ٣٣.

الحرية جناحيها وتقوى الإرادة على أدائها وفقا لحقوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات يتم حمْلها، وهكذا تكون الولادة باسطةُ فرحة، والمعاناةُ باسطةُ ألم، والمحبة بين الناس قيمة وفضيلة.

وتفصيلا لما أجمل في الصفحات السابقة، وتوضيحا لما أغلق على البعض لأن بحثنا هذا موجه لأصناف عدة منهم علماء الدين والفلاسفة وطلاب العلم وخاصة المسلمين وعامتهم وأهل الفكر والرأي وأهل الديانات الأخرى فمن وجد شيئا أغلق عليه فهو لغيره ولا ينكره حتى يتبين مخرجا لنفسه أو مدخلا يلج منه إلينا، فنقول: إن من معاني الباسط منه ما يعود على الله ومنه ما يعود على الخلق، والكلمة تأتي بالمعنى الحقيقي والمجازي أو تتصرف إلى دلالة أخرى لا علاقة لها بما نبحثه.

والبَسْطةُ الفضيلة وفي التنزيل العزيز قال إِنَّ اللّه اصطفاه عليكم وزاده بَسْطةً في العلم والجسم، وقرئ بَصْطةً قال الزجاج أَعلمهم أَن اللّه اصطفاه عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم فاعْلَمَ أَن العلم الذي به يجب أَن يقَع الاخْتيارُ لا المالَ واعلم أَن الزيادة في الجسم مما يَهيبُ.

ومن الإنبساط السرور، وإِنه ليَبْسُطُني ما بسَطَك ويَقْبِضُني ما قبضَك أَي يَسُرُّني ما سَرَّك ويسُوءُني ما ساءك وفي حديث فاطمة رِضْوانُ اللّه عليها يبسُطُني ما يبسُطُها أَي يسُرُّني ما يسُرُّها لأَن الإِنسان إِذا سُرَّ انبسط وجهُه واستَبْشر، وللتوضيح أعرض الآتي:

١- (هو الذي يَبْسُطُ الرزق لعباده ويوسّعه عليهم بجُوده ورحمته)[١٤٧]. فالله يجعل الرزق سهلا ميسورا لأنه خلق أسبابه وما على الإنسان إلا أن يسعى ليحصل عليه بأسباب الله على مراد الله، فبسط الرزق أي سهّل الحصول عليه قال الله تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

---

[١٤٧] لسان العرب ،ج ٧ ، ص ٢٥٨.

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٤٨].

نعم {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ} فالله وحده خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١٤٩]. ورد الفعل المباشر للمؤمن في كل وقت أن يقول: (الحمد لله) ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وهنا يؤكد الله للخليفة المتخلق بأخلاق الكتاب المقدس وأخلاق النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) فهو الغني الذي منح غناه لخليفته على الأرض ببسط أسباب الرزق له والغني عمن سواه لأنه يملك الغني لأنه لا يفتقر إلى أحد والكل يفتقرون إليه، وهو الذي لا يفيده عبادة عابد، ولا يضره معصية عاصٍ تصديقا لما جاء في الحديث القدسي، عَنْ أَبِي ذَرٍّعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي

---

[١٤٨] الشورى،١١ ١٢.

[١٤٩] لقمان،٢٥ ٢٦.

إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)[١٥٠].

فإن ادعى مدع بأنه يستطيع أن يمنع رزقا أو يبسطه أو لديه القدرة على منع ما أراد الله أن يبسطه للناس يكون الرد عليه من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأن الله له ما في السموات والأرض وهو وحده الذي يملك تسخير الشمس والقمر لمصلحة الخليفة الذي يصلح ولا يفسد ويبسط الرزق لعباد الله بأسباب الله على مراد الله، ولا يقبضه عن خلق الله اعتقادا بأن الرزق من الله ولا حرمانا لعباده من رزقه لأن الله وحده الذي أنزل الماء من السماء، ووحده الذي يسخر الشمس والقمر لتنظيم حركة الحياة على الأرض من خلال تنظيم الوقت، ومعرفة الفصول، وتعدد المناخ لتهيئة الأرض لتبسط نباتها بقوته جل جلاله في الوقت الذي حدده له من قبل ذلك، قال الله تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[١٥١] فبسط الله الوقت ليمكن الإنسان من تقدير الجهد الذي يستطيع بذله وقياس المدة التي يحتاجها هذا الجهد، وتقدير الوقت الذي يحتاجه الجسم من السكون ليعيد مزاولة الحركة مرة أخرى بتجدد.

ولذا فالذي يملك الملك هو الذي يبسط الرزق، ولا ينازعه فيه أحد قال تعالى في آية أخرى تعطي الدلالة نفسها: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[١٥٢].

---

[١٥٠] صحيح مسلم ،ج ١٢ ، ص ٤٥٥.

[١٥١] التوبة، ٣٦

[١٥٢] العنكبوت، ٦١ ٦٣.

بل والأكثر من ذلك إن سئل أحد من المنكرين في قضية بسط الرزق وأسبابه عن طريق إنزال الماء من السماء الذي يحيي الأرض ومن عليها، فتكون الإجابة السابقة، الله الذي فطر السموات والأرض والله الذي أنزل الرزق من السماء واستودعه في الأرض، وهنا تطمين لمن يسير في طريق الخلافة اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم (الحمد لله) تصديقا لقوله تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ).

ومن البسط أن {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا} لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، فكان من الباسط جل جلاله الرزق مبسوطا لما خلق ولمن خلق، ولذا فإن الزوجين هما أساس الانبساط في الأرض التي جعل فيها الباسط خليفة له لتعمر وتصلح ولا تفسد ولا تسفك دما بغير حق، ولذلك فالباسط هو الذي مد الأرض وجعل فيها من كل زوجين اثنين مصداقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[١٥٣]، وقال تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١٥٤] وقال تعالى: {وَمِنَ الأنْعَامِ أَزْوَاجًا} ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرا وأنثى، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، جعل ذلك لأجل الإنسان ليعينه على تحمُّل المسئولية في الإصلاح، ولهذا قال: (يذرؤكم فيه) يبسطكم ويبثكم ويكثركم ويكثر أنعامكم، ويبسط النعم لكم، سبحانه إنه هو الباسط المطلق الذي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة بالمطلق، فليس كمثله شيء، لانفراده بالعزة والعبودية وتوحده بالكمال من كل وجه. {وَهُوَ السَّمِيعُ} لجميع الأصوات والمطالب وهو الكفيل بإشباع كل الحاجات، وهو {الْبَصِيرُ} للحال الظاهر والحال الباطن، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} إنه المتصف بالكمال والعظمة والجلال {له مقاليد السموات والأرض} فله وحده دون شريك مفاتيح الرزق في السموات وفي الأرض، لذا فهو

---

[١٥٣] الرعد ٣.

[١٥٤] الذاريات ٤٩.

وحده الذي يبسط الرزق ويقدر، {يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر} وإنه بكل شيء عليم، ولهذا فهو الباسط لكل شيء لمن شاء قال تعالى: {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ}.

وفي ثنائية الخلق لأنه قال تعالى: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ}[١٥٥] فقد بسط الله الهداية وأسبابها فمن قبلها كان سعيدا ومن رفضها وحرم منها كان شقيا، لذا فمن يختار الدنيا على لقاء الله وعلى الثواب الجزيل في الآخرة فهو لا محالة في النهاية يكون شقيا، ومن يختار والهداية والطاعة والإصلاح والخلافة فهو سعيد، ومن ينتفع بأسباب الرزق المبسوط له من الله في رغبات فاسدة وفي الفساد في الأرض فهو شقي محروم من بسط الرحمة له في الآخرة كما قال الله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[١٥٦].

٢- الباسط هو الذي يبسُط الأَرواح في الأَجساد عند الحياة، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[١٥٧] الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ولم يك شيئا وبسط له الروح وبسط له أسباب الرزق فلما اشتد عوده وقويت بنيته توهم غرورا، ولذا نزلت الآيات السابقة في أبي الأشدين أسيد بن كلدة من كفار مكة وقد قتل يوم فتح مكة، فالمتوهم أنه خلق عبثا لابد أن توقفه هذه الآية ويتفكر في الباسط الذي بسط له الرزق، ومن أول الأرزاق رزق الحياة فلو شاء الله لكان سقطا أو لم يُقدِّر خلقه من الأساس، ففي هذا وحده ما يجعل الإنسان يخر ساجدا شاكرا لله تعالى على نعمة بسطه له مع عالم الأحياء، ثم فلينظر إلى الرزق المبسوط له والنعيم الموعود في الجنة لمن آمن وعمل وأصلح، فمن الثابت بالنص القرآني أن من اغتر بعقله وخرج عن الأمر الإلهي قبض الله عنه نعمة الصورة الجميلة ولنبصر ما قاله الله في كتابه الكريم: {قُلْ هَلْ

---

[١٥٥] هود، ١٠٥

[١٥٦] الرعد ، ٢٦

[١٥٧] الانفطار ، ٦ ـ ٨.

أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}[١٥٨].

ولا لعنة أكبر من قبض نعمة مبسوطة بالرحمة إلى نعمة مقبوضة تتحول إلى لعنة وطرد من رحمة الله وهؤلاء أشر من في الأرض.

وهنا قبض النعمة بشكل مركب:

١- لعنة الله على العاصي.

٢- وغضب الله الموجب لعذابه.

٣- ومسخ الصور شر عقاب لهم سبق العذاب في الآخرة وهذا العذاب قبض لما بسطه لهم حين خلقهم في صورة حسنة .

قال الله تعالى: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}[١٥٩] وهنا يوجه الله سبحانه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يتوجه بالسؤال إلى الذين غضب عليهم ولعنهم وقبض عنهم نعمة بسط الرزق، وكان ذلك امتحانا لهم فلما اختاروا الرزق المادي على عبادة الله وتوجهوا للصيد غضب الله عليهم ومسخهم كما بينا من قبل.

ولعل المتأمل لهذه القصة يتدبر أن الخليفة الذي يخلف الله في الأرض اقتداء بالرسل وبرسالة الإسلام على وجه التحديد لابد أن يكون عالما بالتاريخ، فلولا أن علم الله رسوله الكريم صلى اله عليه وسلم بتاريخ القرية المغضوب عليها ما كان يسأل عنها، فالعلم يسبق السؤال، والسؤال لابد أن يكون هادفا ليفضي إلى نتيجة وتحويل في فكر المسؤول إلى

---

[١٥٨] المائدة،٦٠.

[١٥٩] الأعراف ١٦٣ ١٦٦

الصواب، وعلى هذا فالسائل في مقام التعليم دائما ما يعرف الإجابة، وهذا من أسباب بسط العلم ونشره، ولنضرب لذلك مثلا من كتب الصحاح:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ قَالَ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الْإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنهُ يَرَاكَ قَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ، قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ جَعَلَ ذَلِك كُلَّهُ مِنْ الْإِيمَانِ[١٦٠].

فالشاهد أن السائل علم بالإجابة وهذه وسيلة لبسط العلم لا لقبضه، وهذا النمط العلمي موجود في القرآن الكريم باتساع، ولنرى مثلا قوله تعالى: {ألم تر} فقد وردت هذه الصيغة إحدى وثلاثين مرةً ولا بد لنا أن نقف عند مثل هذه العلامات والإضاءات في القرآن الكريم لنتعلم منها كيف نبسط العلم، ونبسّطه في آن واحد فقال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}[١٦١].

وقال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[١٦٢].

---

[١٦٠] صحيح البخاري ،ج ١ ، ص ٨٧.

[١٦١] البقرة ٢٤٣.

[١٦٢] البقرة ٢٤٦.

وقال الله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فإن اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[١٦٣].

وهكذا في بقية القرآن الكريم.

وقد يكون السؤال للإعجاز، وهنا على الخليفة أن يبحث ويتعلم ليبسط العلم لمجموعته، وليسد الثغرات على بغاة الفساد الذين يدعون أن أعلم لهم لا لغيرهم، ومن أمثلة ذلك سؤال الكافرين عن أصحاب الكهف {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا}[١٦٤].

فالكافرون من أهل الكتاب والمشركون من العرب تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول على سبيل الامتحان فقال تعالى: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) فلا تحسبن ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادراً على تخليق السموات والأرض ثم يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان ثم يجعلها بعد ذلك صعيداً جرزاً خالية عن الكل كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر في النوم العميق.

وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحاً فقال: كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلموا فإنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فار، ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل

---

[١٦٣] البقرة ٢٨٥.

[١٦٤] الكهف ٩.

الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإن حديثهم عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح وما هو؟ فأن أخبركم فهو نبي وإلا فهو متقول، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد، وأخبروا بما قاله اليهود فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أخبركم بما سألتم عنه غداً) ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة فشق عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطواف.

ولأن الباسط الذي يبسط الروح في الأجساد فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وتولى الله الإجابة عنها بأن ألهم النبي صلى الله عليها وسلم الرد، (قل الروح من أمر ربي) قال الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[165] (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروحِ) الظاهرُ أن السؤالَ كان عن حقيقة الروح الذي هو مدبّرُ البدنِ الإنساني ومبدأُ حياتِه، روي (أن اليهودَ قالوا لقريش: سلوه عن أصحاب الكهفِ وعن ذي القَرنين وعن الرّوح، فإن أجاب عنها جميعاً أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبيٌّ، فبيّن لهم القصتين وأبْهم أمرَ الروح) وهو مُبْهمٌ في التوراة (قُلِ الروح) أُظهر في مقام الإضمارِ إظهاراً لكمال الاعتناءِ بشأنه {مِنْ أَمْرِ رَبّى} كلمةُ (من) بيانيةٌ والأمرُ بمعنى الشأنِ والإضافةُ للاختصاص العِلْميِّ لا الإيجادي لاشتراك الكلِّ فيه وفيها من تشريف المضافِ ما لا يخفى كما في الإضافة الثانيةِ من تشريف المضافِ إليه، أي هو من جنس ما استأثر الله تعالى بعلمه من الأسرار الخفيةِ التي لا يكاد يحوم حولها

---

[165] الإسراء،٨٥.

عقولُ البشر. (وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إلاَّ قَلِيلاً) لا يمكن تعلّقُه بأمثال ذلك روي أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك. قالوا: نحن مختصّون بهذا الخطابِ قال عليه الصلاة والسلام: (بل نحن وأنتم). فقالوا: ما أعجبَ شأنَك، ساعةً تقول: (وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) وساعةً تقول هذا، فنزلت: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[١٦٦]، وإنما قالوا ذلك لركاكة عقولِهم فإن الحكمةَ الإنسانيةَ أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقةُ البشريةُ بل ما نيط به المعاشُ والمعادُ وذلك بالإضافة إلى ما لا نهايةَ له من معلوماته سبحانه قليلٌ يُنال به خيرٌ كثيرٌ في نفسه أو بالنسبة إلى الإنسان أو هو من الإبداعيات الكائنةِ بمحض الأمرِ التكوينيِّ من غير تحصّلٍ من مادة وتولُّدٍ من أصل كأعضاء الجسدِ حتى يمكن تعريفُه ببعض مبادئه، ومآلُه أنه من عالم الأمرِ لا من عالم الخَلق وليس هذا من قَبيل قوله سبحانه: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}[١٦٧] فإن ذلك عبارةٌ عن سرعة التكوينِ سواءٌ كان الكائنُ من عالم الأمرِ أو من عالم الخلقِ، وفيه تنبيهٌ على أنه مما لا يحيط بكنهه دائرةُ إدراكِ البشر وإنما الممكن هذا القدرُ الإجماليُّ المندرجُ تحت ما استُثني بقوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُم مّن العلم إلاَّ قَلِيلاً} أي إلا علماً قليلاً تستفيدونه من طرُق الحواسِّ فإن تعقّلَ المعارفِ النظرية إنما هو من إحساس الجزئياتِ[١٦٨].

وفي هذا المقام الذي نوضح فيه بسط الأرواح في الأجساد نتوقف في خشوع أمام الآية الكريمة التي تذهل العقل إجلالا وتزيد البصيرة والبصر نورا، وتدفع بيقين ثابت لا يتزعزع إلى أن الله الذي يبسط الأرواح في الأجساد قادر على قبضها وقادر على بسطها مرة أخرى سبحانه لا إله إلا هو، يقول الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

---

[١٦٦] لقمان ٢٧، ٢٨.

[١٦٧] ياسين ٨٢.

[١٦٨] تفسير أبي السعود ،ج ٤ ، ص ٢٢٢.

مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}[١٦٩].

البسط نقيض القبض:

البسط والقبض قاعدة ممتدة في دائرة الوجود الحي، وهذا المعنى موجود في كل الكون وتتعدد مظاهره، فالغنى بسط وقبض، والفقر بسط وقبض، والعلم بسط وقبض، والعمر بسط وقبض، والكون كله بسط وقبض. فترميش الأهداب الراعية للعينين في حالة الصحوة هي في حالة بسط وقبض إلى النوم الذي تنبسط فيه الأجفان حتى الصحوة ثانية، وهكذا حركة المشي أو السير على الأقدام هي حالة من الامتداد (انبساط) وانكماش إلى النهاية، ولذا فالحياة امتداد متصل إلى النهاية والموت انكماش متصل إلى النهاية، فنهاية الحياة الموت ونهاية الموت البعث، وعليه لا انبساط مستمر إلا بالحياة ولا انقباض مستمر إلا بالموت، ولهذا فالخلق بين بسط وقبض إلى النهاية.

وبناء على ما تقدم فإن البسط والقبض كل منهما مكون تركيبي، أي أن البسط والقبض هما في دائرة الممكن بين سالب وموجب، وبين متوقع وغير متوقع، فبسط اليد على ممتلكات الآخرين فعل سالب يمتد في دائرة الممكن، وبسط اليد على المُلك الحق، هو حق، والقيام به فعل موجب في دائرة الممكن المتوقع.

وعليه إن لم تسد قيمة التقدير بالبسط والقبض بين الناس فقد يؤديا إلى سالب، ولهذا فقبض الحق من السيادة مظلمة وبسط الظلم على حساب الحق مظلمة، وبسط الخوف على حساب الطمأنينة مظلمة إن لم يكن ذلك الانبساط حق، إي يكون حقا عندما يكون الخوف من الله طاعة له، فتكون الطاعة في هذه الحالة في حالة انبساط موجب في دائرة الممكن. وفي بعض الأحيان يكون بسط الرغبة في غير محله مما يجعل القبض ضرورة أو واجب ولهذا

[١٦٩] يس ٧٧ . ٧٩

يقول تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[١٧٠]

ومن مظاهر البسط ما يمكن أن يغطي كل ألوان الحياة، فبسط الفلاح باهتمامه بزراعته، وبسط العامل بإتقان عمله، وبسط العالم بنشر العلم النافع، وبسط الحاكم بالعدل ودفع الظلم عن المظلومين، وهكذا لا يكاد لا يخلوا مجال من مجالات الحياة إلا وفيه بسط أو قبض.

والخليفة دائما في حالة بسط وقبض، بسط للحق وقبض للظلم، بسط للعدل وقبض للباطل والانحياز بغير حق، ولهذا لا يسمى من المستخلفين أحد إلا إذا كان من الذين يستمدون صفاتهم من خالقهم الباسط بالمطلق، ولهذا يصبح الخليفة في دائرة النسبية باستمداده للصفات الحسان من الله جل جلاله.

والخليفة هو الذي يبسط الرزق ولا يشح في بسط يد العون لمن هم في حاجة، فيُبسط له الرزق من الباسط المطلق بدون حساب مصداقا لقوله تعالى: {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[١٧١].

ومن الهدي النبوي نلمح تلك الرحمة العامة، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنْ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ"[١٧٢].

ومن البسط أن بسط الله الأرض لعباده: وفي هذا المعنى توسعة على عباده فإن هم ضاق عليهم الرزق في مكان ساروا في أرض الله يصلحونها ويبتغون فيها الرزق لأن الذي بسطها بسط فيها الرزق، والذي يفهم هذا المعنى هو من سار في طريق الخلافة الحقيقية لا من

---

[١٧٠] البقرة ٢١٦.

[١٧١] النور ٣٨.

[١٧٢] سنن الترمذي ،ج ٧ ، ص ٢١٣.

خنع وقنع بالأخذ والفقر وتباطأ وكسل، فقد قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[١٧٣].

الله وحده هو الذي جعل لكم الأرض سهلة ممهدة تستقرون عليها، فامشوا في نواحيها وجوانبها، وكلوا من رزق الله الذي يخرجه لكم منها، وإليه وحده البعث من قبوركم للحساب والجزاء. وفي الآية إيماء إلى طلب الرزق والمكاسب، وفيها دلالة على أن الله هو الإله الحق وحده لا شريك له، وعلى قدرته، والتذكير بنعمه، والتحذير من الركون إلى الدنيا.[١٧٤]

البسط في دائرة الممكن بين المادي والمعنوي.

البسط المادي نراه في المال، والجسم، والبسط المعنوي نراه في العلم والفكر. ولذا فالبسط المادي في المال مع قارون الذي طغى بماله وادعى إنه من علم عنده وليس من عند الله، قال الله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[١٧٥].

ولما بغى قارون أهلكه الله فكان حاله بسط ثم قبض، وهنا قال الذين في نعمة البسط، وهو الفقر الذي لا يؤدي إلى معصية، كما قال الله تعالى: {وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[١٧٦].

ومن البسط المادي، البسط الجسدي بالقوة الجسدية التي لابد للإنسان أن يستخدمها في الخير والنفع ولتأخذ على ذلك مثالا من كتاب الله للفقير الذي منحه الله بسطة في الجسم للهيبة وللجهاد في سبيله، ثم أتم عليه ذلك البسط بأن بسط عليه في العلم، فيقول الله تعالى:

---

[١٧٣] الملك، ١٥

[١٧٤] التفسير الميسر ،ج ١٠ ، ص ٢٠٥.

[١٧٥] القصص٧٦ ، ٧٧

[١٧٦] القصص٨٢

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١٧٧].

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا) طالوت علم عبري كداود، روي أن نبيهم صلى الله عليه وسلم لما دعا الله أن يملكهم أتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم فلم يساوها إلا طالوت (قَالُوٓاْ أنى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا) من أين يكون له ذلك ويستأهل. (وَنَحْنُ أَحَقُّ بالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مّنَ المال) يعني نحن الأغنياء وهو الفقير لا مال له يعتضد به فكيف يكون ملكا؟! قالوا ذلك لأن طالوت كان فقيراً رَاعياً أو سقاء أو دباغاً من أولاد بنيامين ولم تكن فيهم النبوة والملك، وإنما كانت النبوة في أولاد لاوى بن يعقوب والملك في أولاد يهوذا وكان فيهم من السبطين خلق. (قَالَ إِنَّ الله اصطفاه عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العلم والجسم والله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء والله واسع عَلِيمٌ) لما استبعدوا تملكه لفقره وسقوط نسبه رد عليهم ذلك وفقا للآتي:

أولاً: بأن العمدة فيه اصطفاه الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم.

ثانياً: بأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب، لا ما ذكرتم. وقد زاده الله فيهما.

ثالثاً: أن الله تعالى مالك الملك على الإطلاق فله أن يؤتيه من يشاء.

رابعاً: أنه واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره.

(وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ) لما طلبوا منه حجَّة على أنه سبحانه وتعالى اصطفى طالوت وملكه عليهم. (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ) ويريد به صندوق التوراة وكان من خشب الشمشاد مموهاً بالذهب نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين. (فِيهِ سَكِينَةٌ مّن رَّبّكُمْ) الضمير للإتيان أي في إتيانه سكون لكم وطمأنينة، أو للتابوت أي مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة. وكان

---

[١٧٧] البقرة،٢٤٧.

موسى عليه الصلاة والسلام إذا قاتل قدمه فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون. وقيل صورة كانت فيه من زبرجد أو ياقوت لها رأس وذنب كرأس الهرة وذنبها وجناحان فتئن فيزف التابوت نحو العدو وهم يتبعونه فإذا استقر ثبتوا وسكنوا ونزل النصر. وقيل صورة الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام. وقيل التابوت هو القلب والسكينة ما فيه من العلم والإخلاص وإتيانه مصير قلبه مقراً للعلم والوقار بعد أن لم يكن، والله اعلم[١٧٨].

والرحمة بسط من الله والقنوط قبض للبسط من العبد بعدم الفرار إلى الله الباسط، قال الله تعالى: {وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[١٧٩].

والوسطية هي مطلب الإسلام فلا إنفاق بإسراف ولا بخل بإفراط والعدل في ذلك حُجَّة، قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[١٨٠] فالمطلوب "الاعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتر على من يعول في الإنفاق، ولا ينبغي أن يسرف، بل يقتصد. قال تعالى: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[١٨١]، وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}[١٨٢]. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "خيركم خيركم لأهله، وقال صلى الله عليه وسلم " دينار أنفقه في سبيل الله، ودينار أنفقه في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك: أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك"[١٨٣].

---

[١٧٨] تفسير البيضاوي ،ج ١ ، ص ٢٧٩.

[١٧٩] لروم ٣٦، ٣٧

[١٨٠] الإسراء ٢٩ ٣٠

[١٨١] الأعراف ٣١.

[١٨٢] الإسراء ٢٩ . ٣٢.

[١٨٣] إحياء علوم الدين ،ج ١ ، ص ٣٩٩.

والابتعاد عن البخل لأن البخل من المهلكات، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلاً؟ وما من إنسان وهو يرى نفسه سخياً وربما يراه غيره بخيلاً، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم: هذا بخل ويقول آخرون ليس هذا من البخل. وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حباً للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلاً فإذا لا ينفك أحد عن البخل. وإذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك؟ وما حد السخاء الذي يستحق به البعد صفة السخاوة وثوابها؟ فنقول كما يقول المستخلفين فيها: (إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى)، ونقول: (التوسط خير في بسط الخير، والعدل حق، ومخافة الله أكبر، ومن يراعي ما يجب ويقدم عليه وما لا يجب ويمتنع عنه ويجتنبه ويتقي الله يجد له مخرجا ويرزقه الباسط بغير حساب). وقال قائلون البخيل هو الذي يستصعب العطية، وهو أيضاً قاصر، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة كالحبة وما يقرب منها، ويستصعب ما فوق ذلك؟ وإن أريد به أن يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا؟ وهو ما يستغرق جميع ماله أو المال العظيم. فهذا لا يوجب الحكم بالبخل. وكذلك تكلموا في الجود، فقيل الجود عطاء بلا منن وإسعاف من غير روية. وقيل: الجود عطاء من غير مسألة على رؤية التقليل. وقيل: الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن. وقيل: الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى والعبد لله عز وجل فيعطى عبد الله مال الله على غير رؤية الفقر. وقيل: من أعطى البعض وأبقى البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود، ومن قاسى الضر وآثر غيره فهو صاحب إيثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل[١٨٤].

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل، بل نقول: المال خلق لحكمة ومقصود وهو صلاحه لحاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصرف إليه، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو

---

[١٨٤] إحياء علوم الدين ،ج ٢ ، ص ٤٤٥.

أن يحفظ حيث يجب الحفظ، ويبذل حيث يجب البذل. فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير. وبينهما وسط وهو المحمود وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه؛ إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء، قال تعالى: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) وقال تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً}[185]، فالجود وسط بين الإسراف والإقتار وبين البسط والقبض، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا يكفي أن يفعل ذلك بجوارحه ما لم يكن قلبه طيباً به غير منازع له فيه. فإن بذل في محل وجوب البذل ونفسه تنازعه وهو يصابرها فهو متساخي وليس بسخي، بل ينبغي أن لا يكون لقلبه علاقة مع المال إلا من حيث يراد المال له وهو صرفه إلى ما يجب صرفه إليه.

اللهم ابسط لنا ما تحب واقبض عنا ما تكره، بحق ما بسطت من نعم على من أحببت من الأنبياء والمرسلين وعبادك الصالحين الذين استخلفت. اللهم ابسطنا بالإيمان واحفظنا بآيات القرآن، وابسط أنفسنا بالأمن والاطمئنان، اللهم إنك أنت الباسط للحق فاجعل لنا الحق بساطا لا نحيد عنه ولا يحيد عنا، واجعل لنا الرزق بساطا كما تشاء يا من ترزق من تشاء بغير حساب، اللهم اقبض عنا العناء والشقاء والبلاء والغفلة عن ذكرك وحبك يا من بعث المرسلين والأنبياء منذرين ومحرضين ومبشرين بما تحب وترضى. اللهم ابسط مكرك وكيدك بالماكرين والكائدين بغير حق، اللهم ابسط النور في أبصارنا وأسماعنا وجميع حواسنا وفي أنفسنا واجعله ربيع قلوبنا إنك أنت الباسط جل جلالك. اللهم ابسط الرعب والخوف والذل في أعدائنا وحسادنا وابسط في نفوسنا القوة والهيبة في طاعتك أنت ربي سبحانك جل جلالك، اللهمَّ يا باسط يا الله لا تجعلنا من الذين نسوا نصيبهم من الدنيا واجعل لنا هذا النصيب مفتاح من المفاتيح المدخلة للجنة، ولا تجعله قفل بيننا وبين أبوابها ونعيمها، أنت ولينا نفوضك أمرنا يا الله يا البصير بالعباد.

---

[185] الفرقان ٦٧.

الخافض

الخافض اسم من أسماء الله الحسنى، وفعله فعل الحق فالله تعالى من صفاته لا يرفع إلا من جعل نفسه في محل الرفعة، ولا يخفض أحداً إلا من وضع نفسه في محل الخِفضة، والخافض هو من يمتلك القوة التي بها يتم فعل الخفض العادل، ولهذا فإن الله لا يظلم أحدا، فهو يرفع أهل الطاعة ويخفض أهل المعصية.

قال القرطبي في تفسير أحكام القرآن: "الخفض والرفع: يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعزة والمهانة"[١٨٦].

ويقول الدكتور محمد بكر إسماعيل في كتابه أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها: "الخافض: معناه الوضع والذل، والإهانة والنقص، والحط من علو والهبوط من سمو، وهو الذي يخفض أهل المعاصي بالانتقام فلا تراهم يرفعون الرأس أبدا؛ وهو الذي يخفض الأغنياء بأموالهم إن اغتروا بها ولم يشكروه عليها"[١٨٧].

---

[١٨٦] مصدر سابق ، ص ١٩٤.

[١٨٧] محمد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها أسرارها. مرجع سابق، ص ٩٨.

الخافض: هو الفاعل لِما يؤدي إلى خفض بسبب، دون ظلم. خافض التوتر بأسباب الرضا التي تدفع بالمتوترين إلى قول الحق أو فعل الحق أو الاثنين معا مما يجعل الاستجابة ذات أثر موجب على من ساد بينهم توتر.

والخفض تقليل الشيء أو التقليل منه، ففي حالة تقليله، يصبح على حالة من النقيصة، وفي حالة التقليل منه، يصبح على حالة من التخفيف والخفض، مثل تخفيف التوتر، أو تخفيف الألم والمرض.

قال ابن القيم في نونيته:

هو قابض هو باسط هو خافض .... هو رافع بالعدل والميزان[١٨٨].

وفي لسان العرب المحيط، الانخفاض: هو "الانحطاط بعد العلو"[١٨٩].

قال تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[١٩٠]. تشير هذه الآية الكريمة إلى العلاقة القيمية بين الأبناء والآباء، وجاءت الرحمة في موضع التشبيه وكأنها ذات الجناحين: جناح الذل وهو جناح اللين، وجناح القوة وهو جناح القسوة، وجاء فعل الأمر بخفض إحدى الجناحين وهو: جناح الرحمة، الذي يملأه اللين والرقة الذوقية في اختيار أساليب التعامل والملاطفة السلوكية المُمكِّنة من اكتساب ودّ الأبوين دون رفع لتوتراتهما. ومن هذه الآية الكريمة تُستمد وجوبية الطاعة لثلاثة أوامر هي:

. الأمر الأول: طاعة الله عز وجل مصداقا لقوله تعالى: {واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور}[١٩١].

. الأمر الثاني: طاعة الأمر (أمر الرحمة) مصداقا لقوله عز وجل: (واخفض لهما جناح الذُّلِّ من الرحمة) وقوله تعالى: {الَمَ تلك آيات الكتاب الحكيم هُدى ورحمةً للمحسنين}[١٩٢].

---

[١٨٨] منهج الإمام ابن قيم الجوزية، رسائل جامعية. مشرف بن على بن عبد الله، ولله السماء الحسنى. الرياض، دار ابن الجوزية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٤٢٧.

[١٨٩] لسان العرب المحيط، مصدر سابق، الرابع، ص ١٥٥.

[١٩٠] الإسراء، ٢٤.

[١٩١] المائدة، ٧.

. والأمر الثالث: طاعة الوالدين في غير معصية الله مصداقا لقوله تعالى: {وقضى ربك إلا تعبدوا إلا إياه وبالولدين إحسان إما يبلغنَّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربيان صغيرا}[١٩٣]. وقوله جل جلاله: {ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تُطعهما إلى مرجعكم فأنبِّئكم بما كنتم تعملون}[١٩٤].

(واخفض لهما جناح الذُّلِّ من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربيان صغيرا) في هذه الآية الكريمة أمران للأبناء في حق الأبوين هما:

أ . الأمر بخفض جناح الذل لهما من الرحمة (واخفض لهما جناح الذُّلِّ من الرحمة).

ب . الأمر بالدعاء لهما بالرحمة التي لهما سابق فضل بها برعاية الأبناء (وقل ربِّ أرحمهما كما ربياني صغيرا).

وعليه ففي هذه الآية الكريمة يكون العلو بأسباب الانخفاض، أي إذا لم يخفض الأبناء جناح الذل من الرحمة للوالدين الذين هما على طاعة الله تعالى، لا يمكن أن تُعدَّ مراتبهم من ضمن مراتب العليين. وهذا يعني أن الترفُّع على الوالدين انخفاض قيمي يجعل الأبناء في مستويات أسفل السافلين. ولذا فإن الانخفاض لهما رفعة وعلوا ومقربة من الله وطاعة لأمره جل جلاله. اللهمَّ ارحمهما كما ربياني صغيرا، واجعل لي من رحمتك الواسعة رحمة من رضائهما، واغفر لي ولهما الذنوب وارحمنا وتب علينا إنك أنت الرحمن الرحيم.

قال تعالى: {إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة}[١٩٥]. الواقعة هي القيامة التي لا شك في وقوعها فعندما يحين وقتها، لا تتأخر ولا تتقدم والله عليم حكيم في وقوعها. والوقوع هو الذي ستكون فيه الواقعة خافضة لمن خفت موازينه مصداقا لقوله تعالى: {وأما

---

١٩٢ لقمان، ٣ ،

١٩٣ الإسراء، ٢٣ ، ٢٤.

١٩٤ العنكبوت، ٨.

١٩٥ الواقعة، ١ . ٣.

من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هيه نار حامية}[١٩٦]. وتكون فيه رافعة لمن ثقلت موازينه مصداقا لقوله تعالى: {فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية}[١٩٧]. في هذه الآية تشير الموازين إلى من ثقلت حسناته وزادت في الميزان الذي به يتم نيل الجزاء الأوفر من الله تعالى في مقابل قول الحق وفعل الحق اللذين يُرضيان الله فيجازي عليهما بالنعيم والجنة.

قال عمر ابن الخطاب: "الخافضة الرافعة: هي التي خفضت أعداء الله في النار، ورفعت أولياء الله في الجنة"[١٩٨].

وقال قتادة: "الخافضة الرافعة: هي التي خفضت أقوام في عذاب الله، ورفعت أقوام إلى طاعة الله"[١٩٩].

وقال محمد راتب النابلسي في موسوعة أسماء الله الحسنى: "الخافضة الرافعة: هي التي تخفض أقوام بمعاصيهم فيصيرون إلى النار، وترفع أقوام بطاعاتهم فيدخلون الجنة"[٢٠٠].

الخفض والرفع أفعالهما لا يتمان إلا بقوة الرافع الخافض، وفي كلتا الحالتين المترتب على الخفض والرفع تغيير أحوال مَن يتعلق بهم أمرهما، مما يجعل الاختلاف بينهما في النتيجة السالبة والنتيجة الموجبة، ولذا فمن ثقلت موازينه سيكون في عيشة راضية، ومن خفت موازينه سيكون في الهاوية، وهي جهنم اللهمَّ يا لله اجعلنا من المبعدين عنها والداخلين في الجنة.

قال تعالى: {واخفض جناحك للمؤمنين}[٢٠١]. هذه الآية موجهة للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأفضل السلام ليكون لينا مع الذين آمنوا بالله تعالى، وخفض الجناح بالنسبة للنبي

---

[١٩٦] القارعة، ٩ . ١١.

[١٩٧] القارعة، ٦ . ٨.

[١٩٨] تفسير القرطبي، الجزء السابع عشر، مصدر سابق ، ص ١٩٤.

[١٩٩] المصدر سابق ، ص ١٩٤.

[٢٠٠] محمد راتب النابلسي، موسوعة أسماء الله الحسنى، الجزء الثاني، دمشق، دار المكتبي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣، ص ٨١٠.

[٢٠١] الحجر، ٨٨.

هو لين الجانب. وفي هذا القول تشبيه لين الجانب بجناح الطائر، فلين الجانب فيه دفء مثل دفء جناحي الطائر، الذي يحتضن بهما أفراخه تدفئة وحماية.

واخفض جناحك للمؤمنين جاءت مطلقة لكل المؤمنين بدون استثناء، وفي هذا الأمر تمييز لِما يجب وهو عدم الاستغلاظ عليهم أو معاداتهم، فالاستغلاظ لا يكون على مؤمن، ولهذا لا إكراه في الدين، مصداقا لقوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم}[٢٠٢] وباتباع أساليب اللين تطوى الهوة بين المؤمنين فيميلون إلى الرسول ليِّن الجانب، ويميلون إلى بعضهم بعضا.

ولذا فإن خفض الجناح (لين الجانب) يؤدي إلى علوٍ في الحسنات حيث به تعم المحبة وتتبادل بين المؤمنين والرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، ولو لم يكن لين الجانب لانفضوا من حوله مصداقا لقوله تعالى: {فبما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعفو عنهم واستغفر لهم}[٢٠٣].

قال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[٢٠٤]. هذه الآية مبنية على التخصيص بخلاف الآية السابقة المبنية على المطلقية لكل المؤمنين مما جعل قضاياها جامعة لا مانعة، جامعة لكل المؤمنين ومانعة لغيرهم، أما قوله (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) فهذه الآية قضاياها جامعة مانعة، وذلك لبنائها على التخصيص، ولذا فهي تجمع كل المؤمنين الذين اتبعوا محمد صلى الله عليه وسلم وآمنوا برسالته الخاتمة، ولا تجمع الذين آمنوا من قبله ولا الذين لم يؤمنوا، ولهذا أطلقنا على قضاياها بالجامعة المانعة.

وعليه نزلت الآية الأولى للمطلقية (واخفض جناحك للمؤمنين) ونزلت الآية الثانية للتبعيض (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) بعض من المؤمنين، وهم الذين آمنوا بما أنزل

---

[٢٠٢] البقرة، ٢٥٦.

[٢٠٣] آل عمران، ١٥٦.

[٢٠٤] الشعراء، ٢١٥.

الله من الحكمة على محمد صلى الله عليه وسلم. ولذا فقد أمر الله تعالى رسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، بأن يخفض جناحه مرتين:

المرة الأولى: يخفضه على جميع المؤمنين وهم الذين آمنوا برسالة موسى ورسالة عيسى ومن آمن برسالته الخاتمة.

المرة الثانية: يخفضه على بعض المؤمنين وهم الذين اهتدوا بالرسالة الإسلام الخاتمة دون غيرهم.

وبما أن الله قد أمر رسوله الذي استخلفه بالرسالة الخاتمة بأن يخفض جناح اللين للمؤمنين. إذن خفض الجناح أو الجانب باللين قاعدة تستوجب الاتباع من الذين استخلفهم الله في الأرض. فلا إغلاظ بينهم ولا عليهم، بل التوادد والتراحم بينهم مع التقدير والاعتبار للخصوصية التي تميزوا بها أصحاب الرسالة الخاتمة، عن غيرهم من الذين آمنوا. وبهذا التميز فمن آمن منهم بالله ولم يُفسد في الأرض ولا يسفك الدماء فيها بغير حق، وعمل عملا صالحا يرضاه الله كان من المستخلفين فيها. ومن عمل غير ذلك فليس له من الاستخلاف فيها من شيء.

ولذا فقواعد الاستخلاف في الأرض هي الآتي:

١ . الإيمان بالله وعدم الشرك به. قال تعالى: {والذين هم برهم لا يشركون}[٢٠٥]. وقال تعالى: {لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون}[٢٠٦]. وقال عز وجل: {إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار}[٢٠٧]. وقال تعالى: {قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا احد}[٢٠٨].

٢ . الإيمان بالأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله تعالى دون تبعيض مصداقا لقوله تعالى: {والذين آمنوا بالله ورُسُلِهِ ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا

[٢٠٥] المؤمنون، ٥٩.

[٢٠٦] التوبة، ٣١.

[٢٠٧] المائدة، ٧٢.

[٢٠٨] الإخلاص، ١ . ٤.

رحيما}[209]. وقوله تعالى: {لا نفرق بين أحدٍ من رُسُله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}[210].

٣ . الإيمان بالملائكة والكتب، قال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله}[211]. وقال تعالى: {ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا}[212].

٤ . الإيمان بأن الآخرة هي دار القرار. قال تعالى: {يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار}[213]. وقال تعالى: {من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[214]

٥ . الالتزام بما أمر الله من صلاة وصوم وزكاة وحج بعد توحيده واحدا أحدا. قال تعالى: {الذين إن مكَّناهم في الأرض أقاموا الصلاة واتوا الزكاة}[215]. وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}[216]. وقال تعالى: {ولله على الناس حجَّ البيت من استطاع إليه سبيلا}[217]. وقال تعالى: {إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة واتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[218].

---

[209] النساء، ١٥٢.

[210] البقرة، ٢٨٥.

[211] البقرة، ٢٨٥.

[212] النساء، ١٣٦.

[213] غافر، ٣٩.

[214] المائدة، ٦٩.

[215] الحج، ٤١.

[216] البقرة، ١٨٣.

[217] آل عمران، ٩٧.

[218] البقرة، ٢٧٧.

٦ . التصدق وعدم الأخذ بالربا. قال تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم}[٢١٩]. وقال تعالى: {ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات}[٢٢٠]. وقال تعالى: {يمحق الله الربا ويربي الصدقات}[٢٢١]. وقال تعالى: {وما أتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله}[٢٢٢]. وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلمون}[٢٢٣].

٧ . الأمر بالمعروف والنهي عن الفحشاء والمنكر والإسراع في فعل الخيرات. قال تعالى: {ويؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين}[٢٢٤]. وقال تعالى: {وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون}[٢٢٥].

٨ . الأخذ بما أمر الله عز وجل، والابتعاد عما حرَّم ونهي. قال تعالى : {قل إنما حرَّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن}[٢٢٦].وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيكان فاجتنبوه لعلكم تُفلحون}[٢٢٧]. وقال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ}[٢٢٨].

---

[٢١٩] التوبة، ١٠٣.

[٢٢٠] التوبة، ١٠٤.

[٢٢١] البقرة، ٢٧٦.

[٢٢٢] الروم، ٣٩.

[٢٢٣] البقرة، ٢٧٨، ٢٧٩.

[٢٢٤] آل عمران، ١١٤.

[٢٢٥] النحل، ٩٠.

[٢٢٦] الأعراف، ٣٣.

[٢٢٧] المائدة، ٩٠.

[٢٢٨] المائدة، ٣.

٩ . الإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها. قال تعالى: {ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون}[٢٢٩]. وقال تعالى: {ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون}[٢٣٠]. وقال تعالى: {إنَّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يُذبح أبناءَهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ونُريد أن نَّمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون}[٢٣١].

٩ . عدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وعدم تشويهها بالزنا وبما لا يرضي الله عز وجل . قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}[٢٣٢]. وقال تعالى: {ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق}[٢٣٣]. وقال تعالى: {ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردنا تحصننا}[٢٣٤].

١٠ . الحكم بين الناس بالعدل، قال تعالى: {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إنَّ الله نعمَّا يعظكم به إنَّ الله كان سميعا بصيرا}[٢٣٥]. وقال تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله}[٢٣٦].

١١ . العمل على تأكيد المشاورة حق بين الناس، والمشاورة هي من أرقى أساليب ممارسة الحرية بأسلوب ديمقراطي. قال تعالى: {وشاورهم في الأمر}[٢٣٧] وقال تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}[٢٣٨].

---

[٢٢٩] الشعراء، ١٥٢.

[٢٣٠] الأنبياء، ١٠٥.

[٢٣١] القصص، ٤ . ٦.

[٢٣٢] الفرقان، ٦٨.

[٢٣٣] الأنعام، ١٥١.

[٢٣٤] النور، ٣٣.

[٢٣٥] النساء، ٥٨.

[٢٣٦] النساء، ١٠٥.

[٢٣٧] آل عمران، ١٥٩.

[٢٣٨] الشورى، ٣٨.

١٢ . الإيفاء بالعقود والعهود، والوفاء بالكيل والميزان. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}[٢٣٩]. وقال تعالى: {وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم}[٢٤٠]. وقال تعالى: {وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا}[٢٤١]. وقال تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأولا}[٢٤٢].

١٣ . التحابب في الدين وعدم الإكراه فيه، مصداقا لقوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[٢٤٣]. وقال تعالى: { أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[٢٤٤]. وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها}[٢٤٥].

١٤ . الشفافية في المعاملة مصداقا لقوله تعالى: {قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا انتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا انتم عابدون ما اعبد لكم دينكم ولي دين}[٢٤٦]. وقال تعالى: {قال لا تتريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين}[٢٤٧]. وقوله تعالى: {وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا}[٢٤٨]. وقال تعالى: {وشاورهم في الأمر}[٢٤٩] وقال تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}[٢٥٠]. وقال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[٢٥١]. وقوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى

---

[٢٣٩] المائدة، ١.
[٢٤٠] النحل، ٩١.
[٢٤١] الإسراء، ٣٤.
[٢٤٢] الإسراء، ٣٤، ٣٥.
[٢٤٣] البقرة، ٢٥٦.
[٢٤٤] يونس، ٩٩.
[٢٤٥] النساء، ١٩.
[٢٤٦] الكافرون، ١ . ٦.
[٢٤٧] يوسف، ٩٢.
[٢٤٨] النساء، ٨٦.
[٢٤٩] آل عمران، ١٥٩.
[٢٥٠] الشورى، ٣٨.
[٢٥١] البقرة، ٢٥٦.

كلمة سواء بيننا وبينكم}[٢٥٢]. وقال تعالى: {قال يا قومِ أرأيتم إن كُنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعمِّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون}[٢٥٣].

وبناء على هذه القواعد المُمكِّنة للإنسان من الاستخلاف في الأرض فمن أراد أن يكون خليفة لله فيها فعليه أن يستمد صفاته القولية والفعلية والسلوكية من صفات خالقه جل جلاله، ولذا فله من صفة الخافض نصيب كبير في خفض التأثر السالب نفسيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وذوقيا وثقافيا لأجل أن يُسهم في إعادة التوازن الموضوعي للأفراد والجماعات البشرية على أبعادٍ قيمية إنسانية حتى ينال مرضاة الله عنه. وأن يعمل كل ما من شأنه أن يخفض الألم عن بني جنسه حتى يُسهم في تحقيق الرفعة لهم فيما يُرضي الخالق سبحانه وتعالى.

وأن يخفض جناح الذل من الرحمة لوالديه، وأن ينقل هذا الشعور المؤسس على الفضيلة لأبنائه من بعده، وأن يدعوهم إلى ما يؤدي بهم إلى مرضاة الله، وأن يعمل على إصلاح أحوالهم بخفض كل ما من شأنه أن يؤثر عليهم سلبا، أو يعيق سبيلهم تجاه ما يؤدي بهم إلى الإصلاح في الأرض، وعدم الإفساد أو سفك الدماء فيها، حتى تؤسس أقوالهم وأعمالهم وسلوكياتهم على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالخليفة هو الذي يعمل على خفض المرض لأجل أن يرتفع المستوى الصحي في البلاد ويعم العباد حتى ولو لم يكونوا مؤمنين، وذلك لأن الصحة حق عام لبني الإنسان وحق خاص لمن يُراد لهم أن يكونوا الخلائف في الأرض. وهكذا يكون العدل بين الناس حق يستوجب الإحقاق ولو كره المجرمون والمفسدون في الأرض. وهذا الأمر يستوجب من الخليفة أن يخفض جناحه الذل لبني جنسه، ولا يغض الطرف عنهم فيما لهم فيه حق، مما يجعل استشارتهم واجبة في كل ما يتعلق بهم من أمر. فالتعليم على سبيل المثال: أمر يتعلق بالمواطنين، فلا يحق لأحد أن يحرمهم منه، بل على من يتولى مسؤوليةٍ أو تكليفٍ

---

[٢٥٢] آل عمران، ٦٤.

[٢٥٣] هود، ٢٨.

بمهمةٍ أن يعمل جاهدا على تخفيض الجهل بالعلم مثلما يعمل على تخفيض المرض بالشفاء والمعافاة، وذلك من أجل إيجاد بيئة سليمة خالية من المرض والجهل والتخلف. وبطبيعة الحال كلما ارتفع المستوى التعليمي والصحي، انخفض الفقر الذي بانخفاضه يرتفع المستوى الاقتصادي للفرد والجماعة والمجتمع بأسره خاصة عندما تسود العدالة بين الناس رحمة.

الخليفة هو الخافض والرافع بالإضافة، أي أنه لا يستطيع أن يخفض شيء أو يرفعه، إذا لم يبتغهِ الخافض الرافع المطلق أن يُخفض أو يُرفع، لأجل أن يتغير حاله من حالة إلى أخرى. ومع أن من صفات الله تعالى الخافض، إلا أنه لا يخفض الحق أبدا، ولا يخفض من هو على الحق، ولهذا فصفة الخفض صفة خير على العباد وبينهم، وذلك لِما هو مُستهدف من خير من ورائها.

ولأجل التبيين فإن للمقارنة أهمية في توضيح قيمة الظلم الذي بخفضه يرتفع مستوى الرحمة بين العباد، وبرفعه تزداد الشدة عليهم مع الباطل؛ وكذلك قيمة العدل الذي برفعه بين الناس تعم الرحمة، وبخفضه بينهم يعم الظلم والفساد أخلاق العباد؛ وهكذا قيمة الرحمة وقيمة الرزق، فبزيادة الرحمة يزداد الفضل، وبخفضها تنقص المحبة بينهم، وبزيادة الرزق الحلال تُشبع الحاجات البشرية المتطورة والمتنوعة، ويعم الخير، وبنقصه وخفضه تزداد الحاجة وينتشر الفساد في الأرض، مما يجعل المحتاج ضحية بين أيدي المستغلين والمفسدين.

قال تعالى: {وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم}[٢٥٤]. الله العادل في ملكه مُحِقٍ للحق ومُبطلٍ للباطل، ولذا جعل كلمة الكفر والشرك به سفلى مهزومة مدموغة بالحق حتى زُهقت، وفي مقابل ذلك رفع شأن الكلمة الحق بين المستخلفين في الأرض حتى امتدت في أرجاء المعمورة بين الناس رحمة.

وقال تعالى: {لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير منون فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم

[٢٥٤] التوبة، ٤٠.

الحاكمين}[٢٥٥]. بلى أنه احكم الحاكمين الذي أتقن كل شيء في خلقه، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، (شكلا ومضمونا) شكلا، من حيث صورته التي ميزه بها الخالق سبحانه وتعالى ولم يخلقه كمن خلق يمشي مُكباً على وجهه، بل خلقه يمشي سويا في أحسن تقويم. وأحسن تقويم تعني: أحسن صنعة، صنعة لا مثيل لها فيما خلق سبحانه، ولهذا فضَّله على ما خلق، وفضَّل المؤمنين منهم على كافتهم.

والذي جعل خلق الإنسان في أحسن تقويم، هو قدرته على استمداد صفاته من صفات خالقه، التي بها جعله الله الخليفة في الأرض، وذلك بعقله الذي يميز به بين ما يجب ويقدم عليه، وبين ما لا يجب ويتجنبه ويبتعد عنه ولا يرتضيه أن يسود بين الناس، والذي إن ساد بينهم ساد الفساد الذي يجعل المفسدين منهم يُردَّون إلى أسفل السافلين، أي أنهم يهبطون من الرفعة التي خلقهم الله ليكونوا عليها إلى التدني الذي لا يرتضيه الله لخلقه الذين خلقهم في أحسن تقويم. فالله يريدهم أن يكونوا على الأحسن وهم ارتضوا أن لا يكون إلا على الأسوأ، ولهذا ليس لهم من نعت إلا أسفل السافلين. وأسفل السافلين هو المستوى الذي هو تحت المستويات المتدرجة في السفلية والدونية الوضيعة. فالله يريد لعباده الجنة، ولا يُريدهم في النار، ولهذا خلقهم في أحسن تقويم حتى يتمكنوا من إدراك السبل المؤدية بهم إلى الجنة ويسيرون عليها حتى بلوغها، ويدركون السبل المؤدية بهم إلى النار ويجتنبونها. وهذا الأمر جعلهم مُفرَّقين بين الآتي:

. المؤمنون الذين اسلموا وجوههم لله ربِ العالمين، ولم يُشركوا به أحداً وهم المصلحون في الأرض وغير المفسدين فيها، وهؤلاء هم أصحاب الجنة الذين ارتضوا أن يكونوا في عليين مصداقاً لقوله تعالى: {كلا إنَّ كتاب الأبرار لفي عليين}[٢٥٦]. وقال تعالى: {وما نُرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[٢٥٧]. وقال

---

[٢٥٥] التين، ٤ . ٨.

[٢٥٦] المطففين، ١٨.

[٢٥٧] الأنعام، ٤٨.

تعالى: {إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدنٍ تجري من تحتها النهار خالدين أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه}[٢٥٨]. وقال جل جلاله: {ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون إنَّ في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين قل إنما يوحى إليَّ أنَّما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون}[٢٥٩].

. الكفرة وهم الذين أشركوا بالله تعالى بما لم يُنزِّل به سُلطاناً، وهم المفسدون في الأرض، وهؤلاء هم أصحاب النار الذين ارتضوا بأن يكونوا في أسفل السافلين. قال تعالى: {ويلٌ يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون}[٢٦٠]. وقال تعالى: إنَّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية}[٢٦١].

وقال تعالى: {قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين}[٢٦٢].

. الخاطئون، وهم الذين لم يلتزموا بالتمام بما آمنوا به قولا وعملا وسلوكا، فهم تارة من المصلين والمتصدقين وتارة هم من الذين يغفلون عن ذلك أو يسهون، وهم الذين قد يصلحون من أحوالهم ويصبحون من أصحاب الجنة، مصداقا لقوله تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحمِّلنا مالا طاقة لنا به واعفو عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فانصرنا على القوم الكافرين}[٢٦٣]. وقد لا يصلحون فيصبحون من أصحاب النار مصداقا لقوله تعالى: {فليس له اليوم هاهنا

---

[٢٥٨] البينة، ٧، ٨.

[٢٥٩] الأنبياء، ١٠٥.

[٢٦٠] المطففين ، ١٠ . ١٧.

[٢٦١] البرية، ٦.

[٢٦٢] الصافات، ٩٧ ، ٩٨.

[٢٦٣] البقرة، ٢٨٦.

حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون}[٢٦٤]. وقال تعالى: {إنَّ فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين}[٢٦٥].

. المسلمون الذين اسلموا بالوراثة في المجتمعات أو الأسر الإسلامية وهم الذين وجدوا أنفسهم على ديانة أبائهم المسلمين، فهؤلاء هم في حاجة لمناهج وعلوم فكرية وشرعية تمكنهم من بلوغ الإيمان عن دراية وتبيُّن، بعقل لا بعاطفة وهذا حال الكثيرين من المسلمين المنتشرين في بقاع المعمورة، وهؤلاء إن كانت أخطائهم لقصور ممن يتولون الأمر في بلدانهم من حيث عدم تمكينهم من تصحيح معلوماتهم الخاطئة بمعلومات صائبة فإن الذنب سيلاحق ولي الأمر ويلاحق من بلغ من العقل والمعرفة ولم يسأل ويسعى ويبحث حتى يستبصر ما يجب استبصاره. قال تعالى: {قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمّنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وأن تُطيعوا الله ورسوله لا يلتكم عن أعمالكم شيئا إنَّ الله غفور رحيم إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون}[٢٦٦]. وقال تعالى: { فإن حاجُّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد}[٢٦٧].

. مرتكبو الكبائر والفواحش، التي حرَّمها الله كالزنا وقتل النفس التي حرَّم الله بغير حق، والخمر والميسر وغيرها مما حرَّم الله ونهى عنه، فهؤلاء في حاجة للتكفير عن سيئاتهم وجرائمهم وفي حاجة للاستغفار والتوبة، ورحمة الله تعالى واسعة فقد يتوب عليهم بواسع فضله. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إنَّ الله كان بكم رحيما ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم

---

[٢٦٤] الحاقة، ٣٦، ٣٧.

[٢٦٥] القصص، ٨.

[٢٦٦] الحجرات، ١٤ ، ١٥.

[٢٦٧] آل عمران، ٢٠.

وندخلكم مدخلا كريما}[268]. وقوله تعالى: {والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون}[269]. وقال تعالى: {الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّمم إنَّ ربَّك واسع المغفرة}[270].

. المُغالون في الدين وهم الذين وكأنهم لم يقرأوا قوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}[271]. وقوله تعالى: { فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد}[272] وهؤلاء إن كانت مغالاتهم سببا في تكفير البعض، أو سببا في تنفير البعض عن دخول الدين الإسلامي أو كانت مغالاتهم سببا في إشعال نار الفتنة فهؤلاء سينالون الحساب العسير، وإن كانت مغالاتهم مبالغة في الحرص على الدين فإن الله يعلم بنواياهم وهو الغفور الرحيم.

. القابلون للهداية، وهم الذين في حاجة لجهود المبشرين والدعاة وهؤلاء في مُعظمهم بعيدون عن المركز الذي يشع بدين الإسلام، مما يستوجب الاتصال بهم بوسائل الاتصالات المتنوعة والمتطورة، ولذا فمن أراد الخير فليعمل وفضل الله واسع. قال تعالى: {وادع إلى ربِّك إنك لعلى هدا مستقيم وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون}[273]. وقال تعالى: {له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لربِّ العالمين}[274]. وقال تعالى: {أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين}[275].

---

[268] النساء، ٢٩ . ٣١.

[269] الشورى، ٣٧.

[270] النجم، ٣٢.

[271] البقرة، ٢٥٦.

[272] آل عمران، ٢٠.

[273] الحج، ٦٧.

[274] الأنعام، ٧١.

[275] آل عمران، ٩٠.

وعليه فإن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم من حيث حُسن المظهر والبناء الذي أسس على العقل والسمع والبصر والكلام، والقدرة على الملاحظة وملكة الذاكرة والذوق الرفيع، مع المقدرة على الاستدراك والاستنباط والتذكر والتفكر، ولذا فمن حيث الخلق فهو في أحسن تقويم، ولكن من حيث الاستخدام قد لا يكون على ما يُراد له أن يكون عليه وهو (أحسن التقويم). والاستخدام بطبيعة الحال يتعلق بالبشر لا بخالق البشر، فما يتعلق بخالقهم هو (أحسن التقويم) وما يتعلق بهم مؤسس على القاعدة التي تتضمنها الآية (لا أكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي). وبناء على ذلك آمن من آمن، وكفر من كفر، وأخطأ من أخطأ، واستغفر من استغفر، وكفَّر من كفَّر، وارتد من ارتد.

وعندما نضع قيم الإيمان والكفر والشرك والخطأ والصواب، والتكفير والاستغفار والردة نلحظ تدرج البشر على السُلَّم القيمي من أعلى إلى أسفل السافلين، وحينها نعرف أنّ الإيمان هو الذي يضع أصاحبه على قمم السُلَّم القيمي وإنَّ الكفر والشرك هما اللذين يضعان أصحابهما على درجات السُلَّم القيمي في أسفل السافلين.

ولذا نرى ضعفا في تفسير البعض لقوله تعالى: (ثم رددناه أسفل سافلين) بأنها تتعلق بمن بلغ أرذل العمر، فأرذل العمر مرض يُمكن علاجه مع مراحل التقدم العلمي، وإلى جانب ذلك تُلحظ أنَّ الإنسان كلما تقدم به العمر اقترب إلى ربه أكثر طاعة وعبادة، وفي هذا الأمر رُقيٍّ وتقدم على درجات الرفعة على السلُّم القيمي الذي يضع المؤمن في علِّيين، وليس في أسفل السافلين الذي يوضع فيه من يمضي عمره كاملا على الشرك أو الكفر بالله تعالى، أو يرتد من علوٍ إلى أسفل السافلين.

ولو كان الكبر معيبا لكان بنو آدم معفيين من خفض جناح الطاعة للوالدين اللذين هما في حاجة أكثر للمزيد من الطاعة. ولو كان الأمر كذلك، لمحونا قيمة الإجلال لمن تقدم العمر بهم من علمائنا الكبار ومشايخنا الأفاضل وآياتنا الكرام الذين نتخذهم مرجعا في اتخاذ الآراء الشرعية والفتاوى ونحن مستأنسين بما يقولون. نحن دائما مع امتداد أعمارهم نوقِّرهم،

ونلتجئ إليهم كمصادر للمعلومات النافعة، وذلك لأنهم في أحسن تقويم وليس لأنهم في أرذل العمر.

ولهذا جاءت آية الاستثناء بقوله تعالى: (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فالذين دخل الإيمان في قلوبهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، (قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمانا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبكم) فالذي يَرُدُّ الإنسان إلى أسفل السافلين هو الطمع، فأبونا آدم قد خلقه الله عز وجل في الجنة في أحسن تقويم وفضَّله على ما خلق وفي ذلك تذكير بسجود الملائكة له عرفإنا به وطاعة لأمر الله تعالى. ومع ذلك طمع فأهبطه الله منها إلى الحياة الدنيا وفي هذا المعنى أخفضه من علوٍ إلى ما تحته على درجات السلم القيمي، وهو المستوى السفلي إذا ما قورن بمستوى الجنة الذي أُهبط منه أبونا آدم. وفي المستوى الدنيوي ساد الخلاف بين ابنيه قابيل وهابيل على من يتزوج توأمة من، حتى كانت النتيجة المؤسفة بقتل قابيل أخيه هابيل الذي تقبَّل الله منه قربانه، فكانت النتيجة أن قابيل أصبح في أسفل السافلين ودام هابيل في مرضاة الله تعالى في الجنة.

هذا المثال هو الذي يحدد من سيكون في عليين ومن الذي سيكون في أسفل السافلين (من الذي يكون في حالة الانخفاض ومن الذي يكون على حالة الارتفاع). أمَّا العمر فزمن يقاس بالأيام والشهور والأعوام والدهور والقرون، فنحن بني آدم مِنَّا نوح عليه الصلاة والسلام لبث نبيا تسعمائة وخمسين عاما، ومنَّا من رفعه الله إليه كعيسى عليه الصلاة والسلام، ومنَّا محمد صلى الله عليه وسلم الذي مات في الستين ونيف من عمره، وهكذا أجدادنا وآباؤنا بين هذا وذاك يحيون ويموتون إلى يوم البعث الذي لا تجد الموت مكانا لها لتستقر فيه، مما يجعل حياة المؤمنين من بعدها هي الحياة الحيوان في الجنة.

ولأن العمر زمان يمتد ويسجل بين الحركة والسكون، لذا فالعمر كزمان لا يتأثر، بل الذي يتأثر عبر الزمن هو الجهد والقدرة والاستعداد، ولأن الدين والإيمان لا يرتبطان بالليل والنهار والشروق والغروب كزمن، والحركة الكونية بين الكواكب والنجوم والشمس، بل يرتبطان بدرجة الالتزام والتمسك بالمعتقد والتفكُّر والتذكُّر في آيات الخالق عز وجل. ولذا فالعلاقة علاقة

عاقل ومعقول (مُدرِك ومُدرَكْ) وعلاقة حكمة وحكيم، وعابد ومعبود، وتوحيد بدون شرك، ولذلك فلا علاقة بالزمن إلا من حيث تسجيل الأحداث والقصص والرسالات وتحديد الأعمار التي تُقضىَ في الحياة الدنيا.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات، هم الخلفاء في الأرض الذين بقي حالهم على أحسن التقويم، فلم يُفسدوا في الأرض، ولم يسفكوا الدماء فيها بغير حق، وإذا ما اخطأوا يستغفرون ربهم ويتوبون إليه، حتى ينالوا الرحمة. وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال: "من قرأ القرآن لم يُردَّ إلى أرذل العمر. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (طوبى لمن طال عمره وحسن عمله)"[٢٧٦].

والذين آمنوا وعملوا الصالحات، هم الذين لهم أجر غير ممنون، أي أنهم هم الذين لم يتبدَّلوا (هم كما هم) في أحسن تقويم، ولذلك فأجرهم مُتَّصل غير مُنقطع. وهذا الحكم من الله تعالى، ولأنه كذلك فهو الأجر الذي لا يُمكِن أن ينقطع، وفي هذا الأمر حكمة بقاء الأجر لمن يؤمن بالله واحدا أحدا لا شريك له في المُلك سبحانه ما أعظم شأنه.

بعد كل هذه المعجزات العظام بعض الناس يُكذِّبون الرُسُل والأنبياء ويشككون ويكفرون ويشركون بالله الواحد القهَّار، ومع أنه الخافض الرافع، إلا أنه يترك الأمر لمن يتذكر ويتفكر لعله يُدرِك الحقيقة الإيمانية كما أدركها المؤمنون. ولذا فجاء قوله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) التي تستوجب من المؤمن كلما استمع إليها أن يقول: بلى، إنه أحكم الحاكمين. كان ابن عباس وعلى ابن أبي طالب رضي الله عنهما إذا قرأا "أليس الله بِأحْكَمِ الحاكمين، قالا: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين"[٢٧٧].

ومع أن الخافض هو الله عز وجل إلا أنَّ فعل الخفض لا يأتي إلا مترتبا على فعل الرفع، فلو لم يكن للرفع فعل ما كان للخفض وجود، ولذا فالعلاقة ارتباطية بين الخفض والرفع،

---

[٢٧٦] القرطبي، الجامع لحكام القرآن، ج ٢٠، ص ١١٦.

[٢٧٧] المصدر السابق، ص ١١٧.

وبطبيعة الحال في الحياة الدنيا إذا تحقق الارتفاع، تحقق فعل الخفض المحقق لفعل نهاية الارتفاع، وذلك وفقا للقاعدة الطبيعية: (لكل بداية نهاية).
قال تعالى: {إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة}[٢٧٨]. الواقعة هي القيامة، التي إذا ما وقعت لا تتطلب دليلا لإثباتها، فإثباتها بقيامها، لا بتبيانها معناً ودلالةً، ولذا لا مجال لأحد أن يُكذِّب هذا الأمر خاصة وأن الجميع سيكونون في مخافة يوم قيامها وهم لا يستطيعون أن يتدبروا أمرا، ولا قولا ولا فعلا ولا سلوكا حيث رفعت الأقلام وجفت الصحف، وبقيامها يُعد الزمن مطوي مع السماوات المطويات بيمينه كطي السجل للكتبِ. ولذا فيوم وقوعها لا يجد الكاذب مقعد للجلوس عليه، ولا حتى مغارة للاختباء فيها، فكل شيء هالك إلا وجهه جل جلاله.
ويوم القيامة يَجِدُ العباد ما عملوا من عملٍ مكشوف أمامهم وهم أمام المساءلة والمحاسبة والعقاب والجزاء على ما قدمت أيديهم في الحياة الدنيا، وفي ذلك اليوم يرتفع المؤمنون بأعمالهم في الجنة، وينخفض الكافرون والمشركون ومرتكبو الفواحش والكبائر إلى أسفل السافلين في النار. ولذا فالقيامة لا ترفع ولا تخفض، بل التي تخفض هي الأعمال الوضيعة المتدنية، والتي ترفع هي الأعمال الرفيعة الراقية، ولكن لأن هذه الأعمال ستكون واقعة يوم القيامة فكان الارتباط بين ما يؤدي إلى الانخفاض والدونية، وما يؤدي للرفعة والرقي شاهدا ودليل إثبات غير قابل للتكذيب يوم القيامة حتى وصفت بأنها (الخافضة الرافعة) مصداقا لقوله تعالى: (إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة).
منذ أن خلق الله العباد وخلق طبائعهم الخاصة التي تُميِّزَ كل فرد عن غيره من أفراد البشرية، بدأت أفعال الخافض جل جلاله تمتد إلى ملاحقة الكفر لتشده عن الامتداد أولا. ثم ثانيا: لتخفضه بالإيمان. وثالثا: لطي مساحات الكفر أمام امتداد مساحات الإيمان.

[٢٧٨] الواقعة، ٤.

وباسم الخافض وقوته وعزته، كل يوم تنقص أعداد وجموع الكافرين وتزداد وتتعاظم أعداد وجموع المسلمين. وفي داخل المجتمع المُسلم كل يوم بجهود المستخلفين في الأرض تنخفض مساحات الظانين وتمتد مساحات الواثقين بالإيمان.

ولأن الإسلام دين الله تعالى، فامتداده ورفعته وسيادته في المعمورة أمر لا مفر منه والمسألة مسألة وقت فقط، ولذا لا تنفع الردة إذا ظنَّ أحد باطلا، ولا ينفع تطفيف للميزان إذا وزن أو اكتال تاجر أو بائع، ولا ينفع كتم الشهادة إذا ظهر مزورا للحقيقة، كما لا ينفع الإكراه في الدين. هذه وغيرها من الأعمال الوضيعة التي ستنقبض وتنتهي دون أن تكون قادرة على أن تصمد أمام امتداد الحق بالكلم الحق والفعل الحق والعمل الحق.

ومع أن الخفض جاء مرتبطا بالرفع وسابق عليه قراءة في قولة تعالى: (الخافض الرافع) إلا أنه من حيث الوجود والحدوث، كان الرفع أولا والخفض ثانياً، فالخالق عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم أولا، ونبهه بما يجب والأخذ به، وإلى ما لا يجب والابتعاد عنه، وتركه يعمل وفقا للإرادة الحرة. وبأعماله الحرة كانت الخطيئة بيديه، مما جعله ينخفض من مستوى الرفعة والرقي الخَلقي (المتماثل مع أحسن التقويم) إلى الدنيا التي هي أقل من العليا الرفيعة. وفيها أُعطيَ الإنسان الفرصة ليُكفِّر عمَّا يفعل خطأ ليُخفِّض بالإيمان من كفره وشركه حتى تتحقق له الرفعة ويفوز بالجنة.

وفقا لقاعدة الخفض والرفع كانت خطيئة أبينا آدم دَيناً علينا نحن أبناءه، لنُكفِّرَ عنها حتى تُمحى بالحسنات، التي تُخلِّص البشرية من الهموم المترتبة عليها بأسباب ما تعمل على طمس الحقيقة كفرا وشركا وعصيانا وجنوحا، (حقيقة الخالق والمخلوق، حقيقة الواحد الذي لا يتعدد الأول والآخر. وحقيقة الواحد القابل للتعدد حتى النهاية).

لقد ارتفع الكفر والشرك في المعمورة، فعمَّ الفساد سلوك العباد، حتى بعث الله الرُسُل والأنبياء لأقوامهم وشعوبهم تحت راية الإسلام التي جاءت رسالته الخاتمة للناس كافة مصداقا لقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا}[٢٧٩]. مما جعل المآذن ترتفع وتعلوا بصوت

---

[٢٧٩] سبأ، ٢٨.

الحق وجعل الكفر والشرك كل يوم ينخفض أمامها حتى يبلغ بإذن الله بجهود المؤمنين المستوى الصفري، ويرتفع الحق حتى يلامس السماء. وبذلك يكون العباد قد كفَّروا عن الخطيئة التي بالتكفير عنها تُفتح لهم أبواب الجنة، والله غفور رحيم.

ولذا، فالخليفة هو الذي يؤمن بأن يخفض من إسرافه، حتى لا يكون من المبذرين مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين}[٢٨٠]. ويخفض رأسه وظهره سجودا وركوعا طاعة لله تعالى، ويأبى أن يخفضه لغيره، مما يجعل له من هذا الخفض رفعة، ومقامٍا محمودا في فسيح جنَّاته.

وعليه فالخليفة دائما إذا ما أخطأ بما يَخفض له أعماله وحسناته استغفر ربه، حتى يتوب عليه بواسع رحمته ويزداد إيمانا. فيتواضع مع بني جنسه ولا يظلم أحدا لأجل أن يرفعه الله مقاما محمودا، وهو الذي لا يُسرِفَ فيما ينفق، ولا يُطفِف في الكيل ولا ينقص في الميزان الَّذينِ بأعمال التطفيف والنقص، تُطفف بأسبابهما الأعمال الحسنة وتُخفض وترتفع السيئات، وحتى لا يحدث ذلك مخافة وطمعا في وجه الله تعالى وإيمانا به واحداً أحداً يملك الملك ويرزق من يشاء بغير حساب يرتفع الخليفة إلى ربه بالأعمال الخيرة التي يرتضيها سبحانه وتعالى حتى يقترب منه طاعة وإيمانا ورؤية في الجنة.

وعليه، الخافِضُ هو الذي يَخْفِضُ الجبّارِينَ أَي يضَعُهم ويُهِينُهم[٢٨١]. ويقلل من شأنهم بل يذلهم ويمحو ما لهم من مكانة ويتبع ذلك إهانة تتبعهم في حياتهم وإن ماتوا فتكون ميراثا لهم من الذل والعار، لأنهم تبعوا هوى النفس واستعلوا على الخلق ونسوا الخالق واستكبروا وهم أذل وأقل من أن يعضلوا الله في ملكه، فكان جزاؤهم أن وضعهم الله وخفض شأنهم، ومن هؤلاء المتعالين:

الحاكم المتجبر:

البطانة السيئة للحاكم:

---

[٢٨٠] الإسراء، ٢٧.

[٢٨١] لسان العرب ،ج ٧ ، ص ١٤٥.

العالم الظالم:

الغني الجاحد:

الفقير الحاقد:

على مستوى الحاكم:

أما الحاكم فقد ضرب الله له من الأمثال في كتابه ما فيه الشفاء من داء الكبر والاستعلاء، وبين سبحانه كيف خفض وأذل وأهان المتكبر المتجبر، مع أهمية الاستعانة بوسائل منحها الله للنبيين لخفض المتكبر، فهنا لما ظهر جبار في الأرض يخالف ما أمر به الله أرسل الله إليه نبيين ليعيدوه إلى طريق الحق، مع التأكيد على أن الله لا يهلك أحداً إلا بعد أن يمنحه الفرصة الكافية للعودة قال الله تعالى قال الله تعالى لنبييه موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي}[٢٨٢].

الإجابة : لبيك يا رب.

الله يأمرهما بألا ينسيا أهم سلاح للمؤمن (الذكر) فيقول لهما: (ولا تنيا في ذكري) لا يشغلكم شاغل عني في ضيق أو فرج، في عسر أو يسر، فإنا مع من ذكرني وفي الحديث القدسي، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "أَنَا مَعَ عَبْدِي حَيْثُمَا ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ"[٢٨٣] وهنا الذكر سيكون جهادا شاقا أمام طاغية يفسد في الأرض ويدعى أنه ربا للخلق من دون الله، فالذكر أمام هذا الطاغية بأن الله لا إله إلا هو جل جلاله.

قال الله تعالى لنبييه: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}.

يبين الله لنبييه سبب الذهاب لهذا الطاغية، والسبب الرئيس إنه طغى بملكه، وتطاول في الطغيان بأن ادعى إنه إله، وأذل العباد وقتل منهم الكثير بغير حق، واتخذ عباد الله عبيد له.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف سيكون الموقف في دعوة الطاغية لعبادة الله؟.

---

[٢٨٢] طه ٤٢.

[٢٨٣] صحيح البخاري ،ج ٢٣ ، ص ٥٠.

الإجابة تأتي من الله في كيفية المعاملة مع المتكبر المتجبر، بقوله تعالى: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}[٢٨٤].

وهذا القول اللين من باب الخفض بمعنى اللين الذي يؤدي إلى استمالة القلوب للحق دون حقد أو كره أو أحكام مسبقة، ولهذا جاءت الآية بصيغة الأمر (اذهبا إلى فِرْعَوْنَ) أي جمعهما في صيغة أمر الحاضرِ مع غَيبة هارون إذ ذاك للتغليب، وكذا الحالُ في صيغة النهي. {إِنَّهُ طغى} تعليلٌ لموجب الأمر. والفاء في قوله تعالى: {فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً} لترتيب ما بعدها على طغيانه فإن تليينَ القولِ مما يكسِر سَوْرَةَ عنادِ العُتاة ويُلين عريكةَ الطغاة. وقيل: القولُ اللين مثل ما جاء في قوله تعالى: {هَل لَّكَ إِلى أَن تزكى وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبّكَ} فإنها دعوةٌ في صورة عَرْض ومَشورة، ويرده ما سيجيء من قوله تعالى: {فَقُولا إِنَّا رَسُولاَ رَبّكَ} والقول اللين قول التهذيب والأدب وذلك لأجل (لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ) بما بلغتُماه من ذكري ويرغب فيما رغّبتماه فيه {أَوْ يخشى} عقابي، ولذا فالقول اللين لا يعني الإغفال عن قول الحق، بل الحق يقال هو كما هو، ولكن بأسلوب يدعو إلى التقبل ولا يؤدي إلى النفور، ومحلُّ الجملة النصبُ على الحال من ضمير التثنية، أي فقولا له قولاً ليناً آملين أن يتذكر أو يخشى وكلمةُ أو لمنع الخلوّ أي باشِرا الأمرَ مباشرةَ مَنْ يأمل في أن يُثمر عملُه ولا يخيبَ سعيُه وهو يجتهد بطَوْقه ويحتشد بأقصى وُسْعه. وجدوى إرسالِهما إليه مع العلم بحاله إلزامُ الحجة وقطعُ المعذرة[٢٨٥].

إذاً الأمر بأن تكون الدعوة باللين لا بالعنف، ولكن النبيين عليهما الصلاة والسلام أرادا أن يكونا في حفظ من الله ولهذا لا يخافا في الحق لومة لائم.، ومع ذلك {قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى}[٢٨٦]. وهذا القول لأنهما يعرفا طغيان فرعون، مما قد يضعهما أمام موقفين:

---

[٢٨٤] طه ٤٤.

[٢٨٥] تفسير أبي السعود ،ج ٤ ، ص ٣٥٧.

[٢٨٦] طه ٤٥.

١ . اللين وهو مطلب في صيغة أمر من الله تعالى.

٢ . طغيان فرعون الذي يتطلب الرد دون خوف، وبالتالي قد يجدا نفسيهما أمام موقف لا لين فيه، خاصة وأن فرعون قد رأى رؤية تفيد أن هلاكه سيكون على يد موسى، مما يجعل فرعون والحقد في دائرة السوء.

فيطمئنهما الله بقوله تعالى:{ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا اسمعُ وَأَرَى}[٢٨٧].

لا تخافا منه فإنا معكما اسمع وأرى ما يقول الجبار المتكبر فأكيد لكما وأبطل كيده وأمحق مكره وأصرف عنكما شره، ثم أعاد الله تعالى الأمر من جديد بعد أن جاء موسى من مهربه بسبب القتل الخطأ الذي ارتكبه في مصر، فكان الأمر اذهبا لفرعون وأخبراه أنكما رسولا ربك، الذي هو رب العالمين.

{فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ} (ربك) وتكفي هذه الكلمة لإثارة جبروت الفرعون الذي يدعي إنه إله.

وهنا يتوالى الخفض المعنوي لفرعون، فالبداية: مجيء اثنين من رعاياه، هارون ممن يعدهم عبيده، وموسى ممن يعتبر إنه صاحب فضل عليه لأنه رباه في قصره، وكان سيتخذه ولدا، ثم يسمع فرعون لأول مرة في حياته من يوقفه ويتجرأ على أن يكلمه بوصفه عبدا لله لا ربا للناس، ثم يأتي خفض جديد إذ يأمر موسى عليه الصلاة والسلام فرعون بقوله كما جاء في القرآن الكريم: {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}[٢٨٨].

ويخبر النبيان فرعون أنهما يتلقيان الوحي من الله رب العالمين إن العذاب الدائم سيقع لا محالة على الكاذب الذي يتولى كبره ولا يتواضع لله، وسيكون هذا العذاب خافض له ومذل مهين، قال الله تعالى: {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى}[٢٨٩] فهنا خفض

---

[٢٨٧] طه ٤٦.

[٢٨٨] طه ٤٧.

[٢٨٩] طه ٤٨.

من شأن فرعون فهو إن لم يؤمن بالله فيكون كاذب، ومبعد عن رحمة الله، يا لها من قوة بأس تحلى بها سيدنا موسى ليخفض من شأن فرعون المتكبر!

ويسأل المتكبر المتعالي بالباطل هل هناك إله آخر؟

فيسأل موسى عن ربه، كما ورد في قوله تعالى على لسان فرعون: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى}[٢٩٠].

اعتقادا منه أنه بهذا يخيفهما، ولعلمه الباطل أنه لا إله غيره غرورا بنعم الله التي منحها له.

قال سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام:

{ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[٢٩١].

ربنا الذي أعطاك هذا الملك الذي تكبرت به ظلما وبغيا، حتى تطاولت على العباد فاستعبدتهم، وعلى نفسك بأن وضعتها في غير مكانها، ثم تطاولت بالعلم الذي تعتقد أنه لك وحدك، لأن فرعون يعتقد أن علم القرون الأولى لا يعلمه أحد، قال فرعون:

{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى}[٢٩٢] سؤال معجز من وجهة نظر فرعون !!!

قال موسى عليه الصلاة والسلام:

{قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}[٢٩٣].

فعلم القرون الأولى وغيرها من علم ربي من قبل أن يخلق الخلق، ثم يزيد سيدنا موسى إجابته التي أوحى الله له بها، فيخبر فرعون عن الله المستحق للعبادة، ويخبره بنعم الله عليه وعلى الناس جميعا فيقول:

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى}[٢٩٤].

---

[٢٩٠] طه ٤٩.

[٢٩١] طه ٥٠.

[٢٩٢] طه ٥١.

[٢٩٣] طه ٥٢.

[٢٩٤] طه ٥٣.

فأرض مصر في معظمها أرض ممهدة مستوية صالحة للزراعة والعمران، عامرة بالماء الوفير من النيل ومن الأمطار ومن الآبار التي تستمد من جوف الأرض، متعددة المحاصيل الصالحة لحياة الإنسان، قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فإن لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ}[٢٩٥] قوله عز وجل: {وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد} وذلك أنهم سئموا من المن والسلوى وملوه، فاشتهوا عليه غيره لأن المواظبة على الطعام الواحد تكون سبباً لنقصان الشهوة. فإن قلت: هما طعامان فما بالهم قالوا على طعام واحد. قلت: أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل ولو كان على مائدة الرجل عدة ألوان يداوم عليها في كل يوم لا يبدلها كانت بمنزلة الطعام الواحد {فادع لنا ربك} أي فاسأل لنا ربك {يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها} قال ابن عباس: الفوم الخبز وقيل هو الحنطة، وقيل هو الثوم {وعدسها وبصلها} إنما طلبوا هذا الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة {قال} يعني موسى {أتستبدلون الذي هو أدنى} أي الذي هو أخس وأردى وهو الذي طلبوه {بالذي هو خير} يعني بالذي هو أشرف وأفضل وهو ما هم فيه {اهبطوا مصراً} يعني إن أبيتم إلا ذلك. فأتوا مصراً من الأمصار، وقيل : بل هو مصر البلد الذي كانوا فيه ودخول التنوين عليه كدخوله على نوح ولوط، والقول هو الأول { فإن لكم ما سألتم} يعني من نبات الأرض[٢٩٦].

ويفتخر سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بمجد ربه ورفعته وعظمته فيقول للواهم العاصي الذي جعل من نفسه إله للناس مع كونه وإياهم عبيد لله: {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}[٢٩٧].

---

[٢٩٥] البقرة ،٦١.

[٢٩٦] ،تفسير الخازن ،ج ١ ، ص ٤٨.

[٢٩٧] طه ٥٤، ٥٥.

والأسلوب الحواري في الُقرآن الكريم كما ورد في الآيات السابقة يعلمنا كيفية إقامة الحجة على الكافر، وهذا من واجب خليفة الله في الأرض أن يكون مناقشا عقلانيا يقابل الرأي بالرأي والحجة بالحجة ليقيم شرع الله، مثل:

قالا عليهما الصلاة السلام:لا(إنا رسولا ربك قال لهما) قال فرعون: (فمن ربكما يا موسى) ففرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير الجند، وسيدنا موسى عليه الصلاة السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشغل فرعون باله بالبطش والإيذاء بل استمر مع سيدنا موسى في المناظرة لأنه لو بدأ أولاً في الإيذاء لنسب إلى الجهل والسفاهة فتكبر فرعون أن ينسب إلى الجهل مع كونه الجاهل الأكبر بحقيقة إنه جاهل، ولذلك استمر في المناظرة وذلك يدل على السفاهة وعجز حجة فرعون وكمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي العلم؟ وفرعون لما سأل موسى عليه الصلاة السلام عن ذلك قبل سيدنا موسى ذلك السؤال وأقام الدليل على وجود الله الخالق الرازق.

وهنا تعلمنا الآية مبادئ الأسلوب الحواري في الاستماع للآخر واللين معه واستماع كلام الكافر واللين معه لعله يهتدي للحق، والله سبحانه تعالى حكي كلام فرعون في إنكاره لله وذكر في القرآن شبهات منكري النبوة وشبهات منكري الحشر، مع وجوب الرد بالجواب الشافي الزاهق للباطل لئلا يبقى الشك في نفس الكافر المنكر كما فعل الله تعالى في كتابه الكريم.

كما دلت الآية على أن صاحب الحق يجب عليه استماع كلام صاحب الباطل والرد عليه من غير إيذاء ولا سوء كما فعل موسى عليه الصلاة السلام مع فرعون، وكما أمر الله تعالى سيدنا محمدا في قوله: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٢٩٨] وقال تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المشركين استجارك فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ الله}[٢٩٩].

---

[٢٩٨] النحل ١٢٥.

[٢٩٩] التوبة ٦.

والسؤال هنا : هل كان فرعون عارفاً بالله تعالى؟

نرى إنه كان عارفاً إلا أنه كان يظهر الإنكار تكبراً وتجبراً وزوراً وبهتاناً، والدليل قول سيدنا موسى له: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السموات والأرض}[300]. فمتى كانت التاء في علمت كان ذلك خطاباً من موسى عليه السلام على فرعون فدل ذلك على أن فرعون كان عالماً بذلك وكذا قوله تعالى: {وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً}[301].

قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى}[302] فلما أبى تقرر أنه قد هزم في النقاش، وهنا سيكون الخفض من معنوي إلى خفض مادي، وهذا ما سنعرض له.

. خفض حال فرعون بهزيمته في النقاش، والتحول إلى شكل آخر من أشكال الخفض.

فلما فرغت حيلة فرعون في تلك المناقشة، وانخفض شأنه أمام قومه وهو المدعي بأنه إله لجأ إلى سلاح الضعيف سلاح التهديد، واللجوء إلى الغير لينتصر بهم، يا لها من دعابة من جاهل متكبر يقول إنه إله ويستعين بغيره لينصره، وهذا فشل آخر لفرعون يحط ويخفض من ربوبيته المزعومة أمام من استضعفهم، فقال الله عن هذا المغرور في القرآن الكريم: {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ

---

[300] الإسراء ١٠٢..

[301] النمل ١٤..

[302] طه ٥٦..

السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى   فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فإن لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى   وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا   جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}[٣٠٣].

فقد وضح الله تعالى أنه أرى فرعون الآيات كلها وفرعون لم يقبلها، وهي آيات تؤدي إلى التوحيد، مصداقا لقوله تعالى: {رَبُّنَا الذي أعطى كُلَّ شيء خَلْقَهُ ثُمَّ هدى}[٣٠٤] وقوله: {الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض مَهْداً}[٣٠٥] وقوله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين قَالَ رَبّ السموات والأرض}[٣٠٦]، وكذلك من دلائل نبوة موسى وهارون وهي الآيات التسع التي خص الله بها موسى عليه الصلاة السلام وهي العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل، فأريناه عرفّناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها، ثم أثبت الله تعالى شبهة فرعون وهي قوله: (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يا موسى) فصار فرعون يعزف على الجانب الوطني، ليصرف المصريين عن موسى بوصفه عدو لمصر، وغير بعيد من ذلك احتلال الهكسوس لمصر ثم كفاح المصريين لطردهم، ومن المعلوم تعاون بني إسرائيل مع عزيز مصر وهو من الهكسوس، فلهذا السبب كان المصريون يبغضون بني إسرائيل، فألقى فرعون في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين لموسى جداً وهو قوله: (أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا) وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان في النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساوياً للقتل في قوله: {أَنِ اقتلوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخرجوا مِن

[٣٠٣] طه٥٧ ، ٧٦

[٣٠٤] طه ٥٠.

[٣٠٥] طه ٥٣.

[٣٠٦] الشعراء ٢٣، ٢٤.

ديارکم}[٣٠٧] ثم لما صاروا في نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة في نبوته عليه الصلاة السلام وهي أن ما جئتنا به سحر لا معجز، ولما علم أن المعجز إنما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال: (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ) أما قوله تعالى: (فاجعل بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ) فكان الموعد، وكان النصر لنبي الله والخفض والهزيمة لفرعون، ثم تحدث المفاجأة فيؤمن السحرة المستكرهون، فيهددهم الضعيف الذي خفض شأنه، والله تعالى لما حكي تهديد فرعون لأولئك حكي جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم في أصول الدين، فقالوا: (لَن نُّؤْثِرَكَ على مَا جَاءنَا مِنَ البينات) وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم فقالوا: (لَن نُّؤْثِرَكَ) جواباً لما قاله وبينوا السبب وهو أن الذي جاءهم بينات وأدلة، والذي يذكره فرعون غرور الدنيا الفانية، ومنافع الدنيا وأضرارها لا تساوي منافع الآخرة وأضرارها، و قوله تعالى: (والذي فَطَرَنَا) لن نؤثرك يا فرعون على ما جاءنا من البينات وعلى الذي فطرنا وعلى طاعة الذي خلقنا وعلى عبادته. فلما هددهم قالوا: (فاقض مَا أَنتَ قَاضٍ) فذلك الوعيد لا يزيلهم أبدا عن إيمانهم وعما عرفوه من الحق علماً وعملاً، ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال عذاب فرعون فقالوا: {إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، وهذه الحياة الدنيا فانية وإنما مطلبنا سعادة الآخرة وهي باقية، ثم قالوا: {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خطايانا} ولما كان أقرب خطاياهم عهداً ما أظهروه من السحر وهو الخافض وليس برافع، قالوا: {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السحر} ثم قالوا: {والله خَيْرٌ} ثواباً لمن أطاعه.

والله سبحانه وتعالى قد أرسل سيدنا موسى بتسع آيات كما ورد في القرآن الكريم ليرتدع ويعود وخفض من كبره ولكنه أبى وتعالى، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى}[٣٠٨].

---

[٣٠٧] النساء ٦٦.

[٣٠٨] طه ٥٦.

وتتوالى أحداث الصراع والصعود إلى الهاوية ليقع فرعون ويكون عبرة لغيره من المتكبرين وسنعيش مع القرآن الكريم لنتتبع كيف أخفض الله فرعون إلى يوم القيامة.

قال الله تعالى يصف كبر فرعون واتهامه لموسى عليه الصلاة والسلام:

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآَيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فأنظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[٣٠٩].

فلما استعان الضعيف المتكبر بالسحرة راح يستعين بهامان ضعيف بأضعف ولكن الفشل حالف الاثنين، ومن تبعهما وأغرقهما الله في اليم والحمد لله الذي اخفضهم وشانهم.

وذلك في موقف آخر في القرآن الكريم يقول الله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}[٣١٠].

أخذ العبرة من كبر فرعون وخفض الله له واجب على كل من يتأمل تجلي الخافض بتجليه الجلالي على فرعون فخفض شأنه المعنوي والمادي، يقول الله تعالى: {وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ

---

[٣٠٩] القصص ٣٦ . ٤٣

[٣١٠] يونس ، ٩١ ، ٩٢

فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ}[311] وقوله عز وجل: {وفي موسى} أي وتركنا في إرسال موسى آية وعبرة {إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين} أي حجة ظاهرة {فتولى} أي أعرض عن الإيمان {بركنه} أي بجمعه وجنوده الذين كان يتقوى بهم {وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم} أي فأغرقناهم في البحر {وهو مليم} أي آت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل[312].

-البطانة السيئة للحاكم:

ومن هؤلاء هامان الذي كان وسيلة من وسائل خفض فرعون وضياع هيبته، وهذه الفئة المنتفعة دائما ما تدفع الحكام إلى الباطل، قال الله تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ}[313]، أي فَلَمَّا جاءهم موسى {بالحق مِنْ عِندِنَا} الحق من عند الله خافض المكيدين والماكرين والمتكبرين بغير حق. {اقتلوا أبناء الذين آمَنُواْ مَعَهُ} يعنى مع موسى {واستحيوا نساءهم} يقول: اقتلوا أبناءهم ودعوا البنات، فلما هموا بذلك حبسهم الله عنهم حين اقطعهم البحر، يقول الله عز وجل: {وَمَا كَيْدُ الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ}[314] وَمَا كَيْدُ فرعون الذي أراد ببني إسرائيل من قتل الأبناء واستحياء النساء { إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} يعنى خسارة.

---

[311] الذاريات، ٤٠

[312] تفسير الخازن ،ج ٥ ، ص ٤٨٤.

[313] غافر،٢٦،٣٠

[314] غافر ٢٥.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ لقومه القبط {ذروني أَقْتُلْ موسى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} فليمنعه ربه من القتل {إني أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ} يعنى عبادتكم إياي {أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأرض} أرض مصر الفساد، يعنى بالفساد أن يقتل أبناءكم ويستحيى نساءكم كما فعلتم بقومه يفعله بكم، فلما قال فرعون لقومه: {ذروني أَقْتُلْ مُوسَى}. استعاذ موسى {وَقَالَ موسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحساب}[٣١٥] يعنى فرعون لا يصدق بيوم يدان بين العباد {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ} يعنى قبطى مثل فرعون {يَكْتُمُ إِيمَانَهُ} مائة سنة حتى سمع قول فرعون فى قتل موسى، عليه السلام. فقال المؤمن: {أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ الله وَقَدْ جَآءَكُمْ بالبينات مِن رَّبِّكُمْ} يعنى اليد والعصا {وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ} من العذاب {إِنَّ الله لاَ يَهْدِي إلى دينه {مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} يعنى مشرك مفتن[٣١٦]. ولسان حال كل مصلح يريد الإصلاح يقول كما قال سيدنا لوط لفئة الشر الذين بغوا وطغوا: {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}[٣١٧]

٣-الله يخفض الغني المتكبر، وليس مثالا أدل على ذلك من قارون الذي خسف الله به وبداره الأرض لأنه منع الزكاة، واعتقد زورا أن المال الذي أنعم الله به عليه إنما من عند نفسه وليس نعمة من الله وهبها له ليمتحنه ويكون الامتحان صعبا، ففشل فشلا ذريعا فخفضه الله، يقول الله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ

---

[٣١٥] غافر ٢٧.

[٣١٦] تفسير مقاتل ،ج ٣ ، ص ١٨٣.

[٣١٧] هود ،٧٨.

قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[٣١٨] فقوله عز وجل: (إن قارون كان من قوم موسى) قيل كان ابن عم موسى لأنه قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى بن عمران بن قاهث. وقيل كان عم موسى ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ منه للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامري (فبغى عليهم) قيل كان عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فظلمهم وبغى عليهم وقيل بغى عليهم بكثرة ماله (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه) جمع مفتح وهو الذي يفتح به الباب وقيل مفاتحه يعني خزائنه (لتنوء بالعصبة أولي القوة) معناه لتثقلهم وتميل بهم إذا حملوها لتثقلها. والعصبة اللحمة والكثرة، (إذ قال له قومه لا تفرح) يعني لا تبطر ولا تأشر ولا تمرح (إن الله لا يحب الفرحين) أي انه لا يحب الفرحين بغير الحق، ولهذا فالشماتة والسخرية في العباد بأسباب النقص أو الحاجة لا يحبه الله ولا يحبه أحدا من المستخلفين في الأرض طاعة لله ولما يحب. قال الشاعر:

أشد الغم عندي في سرور ... تيقن عنه صاحبه انتقالا

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) يعني اطلب فيما أعطاك الله من الأموال الجنة وهو أن تقوم بشكر الله فيما أنعم عليك وتنفقه في رضا الله (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أي لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا أن يعمل فيها للآخرة بالصدقة وصلة الرحم وقيل لا تنسى صحتك وقوتك وشبابك وغناك أن تطلب بها الآخرة. عن عمر بن ميمون الأزدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: « اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك"[٣١٩] (وأحسن كما أحسن الله إليك) أي أحسن بطاعة الله كما أحسن إليك بنعمته وقيل أحسن إلى الناس (ولا تبغ) أي ولا تطلب (الفساد في الأرض) الأرض التي جعل الله فيها خليفة له ليصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك دما بغير حق، وكل من عصى الله فقد طلب الفساد في الأرض (إن الله لا يحب المفسدين قال) يعني

---

[٣١٨] القصص ،٧٦ ، ٧٩

[٣١٩] تفسير الخازن ،ج ٥ ، ص ١١١.

المفسدين في الأرض كما هو حال قارون وفرعون وغيرهم كثير حيث أن الله يعلم ما تكن صدوره وأكثرهم لا يشكرون مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ}[٣٢٠]، وهؤلاء ومن على مثلهم يخفض الله أعمالهم التي يظنون ببسطهم بها في الدنيا نهاية، هؤلاء هم الذين لا يؤمنون بيوم الحساب الذي فيه تبسط أعمال المستخلفين في الجنة وتقبض أعمال المشركين والمتكبرين والطاغين ويبسطون بها في النار.

وهكذا أيضا حال العلم فالعلم الباسط للخير قد يكون هو الذي به تخفض الأعمال، فالعلم لا للتطاول به ومتابعة السفهاء أو صرف وجوه الناس عن عبادة الله فمن يكون كذلك يكون مصيره العذاب المهين بدخول النار، فعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ"[٣٢١] وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ"[٣٢٢].

قال الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [٣٢٣] فالقرآن مرفوع علمه للإنسان بعد أن أنزله إلى الأرض ليبسط الحق ويخفض الظلم، ورفع الشمس والقمر نورا وضياء، والنجم المرتفع أو نبات الأرض على اختلاف المعاني ينخفضان طواعية لله بالسجود كما يسجد له ويركع

---

[٣٢٠] النمل ٧٣، ٧٤.

[٣٢١] سنن الترمذي ،ج ٩ ، ص ٢٥٥.

[٣٢٢] سنن ابن ماجه ،ج ١ ، ص ٢٩٦.

[٣٢٣] الرحمن ١ ، ١٣

الخلفاء في الأرض إيمانا طائعين، لذا أمرنا المولى جل وعلا أن نقيم الوزن ونرفع العدل ونخفض الظلم ونبطل الجور.

ووفقا لقاعدة البسط والخفض فإن لكل سبب مسببا، ولكل علة معلولا، قال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[٣٢٤]" فخَفْضُ العَدْل ظهور الجَور عليه، وبسط العدل خفض الجور والظلم عن المظلومين.

فأمر المترفين بذنوب الناس، وبذنوب الناس يرتفع الجور وينخفض العدل، ولذلك فالمتخلق باسم الله الخافض يعمل على خفض الظلم ورفع العدل وبسطه بكل ما أوتي من وسائل تتيح له أن يخفض الظلم والفقر والجوع وغير ذلك من عقبات تعوق مسيرة إصلاح الأرض وتعميرها التي هي أساس ما يسعى إليه لتحقيق الخلافة المرجوة على الأرض.

وفي التنزيل العزيز (خافِضةٌ رافِعةٌ) قال الزجاج المعنى أَنها تَخْفِضُ أَهل المعاصي وترفع أَهل الطاعة وقيل تخفض قوماً فتَحُطُّهم عن مَراتِب آخرين ترفعهم إليها والذين خُفِضُوا يَسْفُلُون إِلى النَّارِ والمرفوعون يُرْفَعُون إِلى غرف الجنان. ففي حديث أَبي بكر قال لعائشة رضي اللّه عنهما في شأْن الإفك خَفِّضي عليك أَي هَوِّني الأَمر عليكِ ولا تَحْزَني له[٣٢٥]. فكان حادث الإفك إعلاءً للسيدة عائشة وخفض لها بمعنى تهوين عليها لما لاقته من ظلم بسبب الافتراء عليها.

وعليه لا خفض ولا رفع وبسط إلا بيد الله لا يقوم بذلك إلا هو جلت قدرته،

ويقول الله تعالى للحبيب صلى الله عليه وسلم:(واخفض جناحك للمؤمنين) أي ألن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم. وأصله أن الطائر إذا ضم فرخه إلى نفسه بسط جناحه ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان اتباعه. ويقال: فلان خافض الجناح، أي وقور لين ساكن.

---

[٣٢٤] الإسراء،١٦ ، ١٧.

[٣٢٥] لسان العرب ج٧ ص١٤٥

وقال الشاعر:

وحسبك فتية لزعيم قوم ..... يمد على أخي سقم جناحا[٣٢٦].

اللهم يا الخافض إنك تملك القوة التي بها تخفض الطغاة والمتجبرين والمتكبرين بغير حق فاخفض جناحهم بقوتك وذلهم وكد كيدهم وامكر بمكرهم إنك الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه، اللهم اجعلهم في خفضة واجعلنا في رفعة يا الله.

اللهم إنك الخافض بعدلك فاجعل حكمك في من غدر بخير أمة أخرجت للناس آية، اللهم إنك الخافض للتوتر فاخفض كل توتر بين أبناءها، اللهم إنك الخافض لأهل المعصية فاجعلهم أسفل سافلين واجعل المسلمين على طاعتك عليين.

اللهم إنك لا تخفض حالا ولا درجة ولا قوة إلا بسبب فاجعل لنا الأسباب والقوة التي بها تقضى الحوائج وتُرفع الدرجات وتتحسن الأحوال.

اللهم اجعلنا خافضين جناح الذل من الرحمة لآبائنا واجعلنا محسنين إليهم، وارحمهم يا الله على رعايتهم وحسن تربيتهم لنا ويسِّر لهم ولنا من أمرنا رشدا.

---

[٣٢٦] تفسير القرطبي ،ج ١٠ ، ص ٥٧.

الرافع

الرافع "هو الذي يرفع من استحق الرفع من أوليائه يرفع منزلتهم في الدنيا بإعزاز كلمتهم ويرفعهم في الآخرة بارتفاع درجتهم"[٣٢٧].

وَالرَّافِعُ الْمُعْلِي لِلأَقْدَارِ[٣٢٨].

الرافع هو الذي بيده القوة المُمكّنة من تحقيق الرفعة وإحداث النقلة إلى ما هو أفضل وأجود وانفع وأفيد. والرافع في القرآن الكريم هو الاسم الدال على الله تعالى مصداقا لقوله عز وجل: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٣٢٩].

وفي لسان العرب المحيط: الرافع هو "الذي يرفع المؤمن بالإسعاد وأولياءه بالتقريب، والرفع ضد الوضع، رفعته فارتفع فهو نقيض الخفض في كل شيء"[٣٣٠].

ولو عُدنا للآية السابقة (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إنَّ ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) لعرفنا أنَّ الرافع جل جلاله هو

---

[٣٢٧] تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٤١.

[٣٢٨] الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ١٩٢.

[٣٢٩] الأنعام، ١٦٥.

[٣٣٠] لسان العرب، ج ١، ص ١١٩٧.

الذي جعل الخلائف تتوالى من ولادة سابقة إلى موت يلاحقها، ومن ولادة جديدة إلى موت متجدد، حتى النهاية بالولادة التي لا يلاحقها الموت أبدا (البعث).

وبما أن الله جعلنا خلائف الأرض، إذن الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. وبما أن الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. إذن الرزق في الأرض والعيش عليها لن ينتهي مادام الموت لم يمت بعد. والموت بطبيعة الحياة لن يموت إلا بقيام الساعة، وحينها تصبح الأرض مطوية مثل طي السماوات.

والخلائف: جمع خليفة، وهم الذين يأتون من بعد سابق عليهم من بني جنسهم، وهم من ترتبط صفات اللحوق بهم، مما يجعل الموت يلاحق كل ولادة ويجعل الاتصال لا ينقطع بالرغم مما يفعله الموت، ولذلك فلله في خلقه شؤون.

وقوله: (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أي مع أنه خلقكم في أحسن تقويم، إلا أن مصائركم على الأرض تعتمد على ما تقدمه أيديكم من عملٍ، فمن يُصلح في الأرض لا يتساوى مع من يُفسد فيها. ومن هنا تتفاوت الدرجات بالإيجاب وبالسلب، فالذين استجابوا لربهم الذي جعلهم خلائف الأرض، سينالون جزاءهم حسنات، والذين لم يستجيبوا لربهم الذي يُرِيدهم أن يكونوا خلائف الأرض سينالون أجورهم من العذاب مصداقا لقوله تعالى: {ولكلٍ درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون}[٣٣١]. ولذلك فالعلو في الدرجات الحسان رفعة مقام، وتميُّز عن الذين لم يتمكنوا بأعمالهم من بلوغ الرفعة الحسنة. فرفع الله بعض من الخلائف درجات ولم يرفع البعض الآخر بالأسباب، أي بما تقدم الأيدي، ولذا فأسباب تحقيق الرفعة لم تكن محجوبة عن العباد، أو مقصورة على فئة منهم، بل هي متاحة في دائرة الممكن لمن يعمل صالحا يرضاه الله، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يرهُ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يرهُ وما ربك بظلام للعبيد. ولهذا فالخليفة في الأرض هو الذي يعمل فيها صالحا، ويعمل على إصلاحها بإصلاحه لِما يفسده المفسدون فيها.

---

[٣٣١] الأنعام، ١٣٢.

الرافع: هو المُمكِّن من إحداث النقلة، من مستويات دنيا إلى مستويات عُليا، والرافع هو الذي لا يَرفَع إلا بعد تقديرٍ لِما يُرفع، والذي لو حاول الإنسان القيام به لدرس الشيء المستهدف بالرفع قبل أن يَقدِمَ على رفعه. ولكن لأن الرافع في هذه الآية الكريمة هو الله عز وجل، لذا فهو الرافع بقوة علمه لعلم الغيب.

ولأن وراء فعل الرفع هدف وغاية، لذا أظهر الله الهدف من الرفع وهو (ليبلوكم في ما آتاكم) وهذه الآية تعني ليمتحنكم فيما رزقكم به وما أعطاكم من نعم، فمن يُسر له البصر والسمع والعقل والفؤاد وما يملك من مُلك من مُلكه تعالى في طاعته وإجلاله، يتفوق في ما يُبتلى به من امتحانٍ، ويفوز بالجنة، ومن لم يطع الله ويشرك به أو يفسد في الأرض فيخسر المستوى الذي خلقه الله تعالى عليه وهو (أحسن التقويم) ويخفضه على كفة الميزان إلى أسفل السافلين كمقياس سالب في مواجهة مقياس أعلى العليين على الكفة المماثلة للميزان العدل.

ولذلك فإن الله سريع العقاب (إنَّ ربَّك سريع العقاب) أي أنه في الوقت الذي يَحدث فيه السلوك الانحرافي يُكتب في ذات الوقت الفعل العقابي المناسب للفعل الانحرافي، الذي لا يُمحى إلا بالاستغفار والتوبة والرحمة من الله تعالى. ولذلك، مع أنَّ ما يَقدِم عليه الإنسان ويراه سريعا من أفعال خارجة عن الطاعة التامة لله تعالى، إلا أن الله خالق العباد والأعمال يرى الأعمال والأفعال قبل حدوثها وحدوث السرعة التي يرى بها المخلوق ما يرى، وفقا لقاعدة: (يعلم ما لا نعلم) مصداقا لقوله تعالى: {عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير}[٣٣٢]، وقوله جل جلاله: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو}[٣٣٣]. ولهذا فالله سريع العقاب لمن عصاه فيما أمر، وهو سريع في إحداث المغفرة مصداقا لقوله تعالى: (وإنه لغفور رحيم)، فالله القادر بكل سرعة على رفع الأعمال بالحسنات، قادر بالسرعة ذاتها على إحداث المغفرة والرحمة لمن يتعظ ويهتدي للتي هي أحسن وأقوم. ولذا فإن الرحمة فعل

[٣٣٢] الأنعام ٧٣.

[٣٣٣] النعام، ٥٩.

استجابة للطاعة، فمن أطاع الله فقد فاز بالرحمة فوزا عظيما، ومن عصَ الله فقد خسر بخسران الرحمة خسرانا كثيرا، وما ربُّك بظلامٍ للعبيد.

وبما أن الله هو الرافع الذي قال: {وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يُفسد فيها ويَسفِكُ الدماء ونحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون}[٣٣٤]. بما أنه كذلك، إذن الخليفة هو من يستمد صفة الرفع من صفات الرافع المطلق جل جلاله، حتى يتمكن من الإسهام في إحداث النقلة لمن يستوجب رفعهم إلى درجات التفضيل والتمييز الحق. فبالرفع يتحسَّن المستوى النفسي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والذوقي والثقافي للأفراد والجماعات والمجتمعات، وبه أيضا يتأهلون إلى تأدية الوظائف والمهام المفضلة إنسانيا، ويلعبون أدوارهم بما يفيد وينفع ويُقدَّر من قبل الآخرين في مرضاة الله عز وجل، وبالرفع أيضا يتم حمْل المسؤوليات الشخصية والمسؤوليات المشتركة مع الآخرين سواء كانوا أزواجا أم أباء أم رفاق دراسة وعمل أم مواطنين من أبناء البلد.

وعليه فمن صفات الخليفة التي ينبغي بها أن يُصلح في الأرض هي: الرفع الذي به يتمكن من بلوغ الدرجات العلا، أي أنه كلما أسهم في رفع مستوى الأفراد إلى ما فيه خير، ارتقع مستواه عند الله في العليين مع الذين ورثوا الأرض واستخلفوا فيها، وورثوا الجنة بما عملوا.

ولذا عليكم يا بني آدم أن ترفعوا من مستويات إخوانكم المسلمين حتى يبلغوا درجات الإيمان، ويكونوا متعاضدين معكم على الرفع بأفعال الخير، وعلى الأبناء الخلفاء أن يخفضوا لآبائهم أجنحة الذل من الرحمة ليزدادوا رفعة على المقامات العظام، وعلى أحفادهم من بعدهم أن يتعظوا بما يعمل المصلحون في الأرض ليكونوا على الطاعة والشهادة من العاملين عليها. وليتقوا الله ربَّهم في ما يعملون ويؤدون من مهام وأعمال إنسانية، وفي ما يحرثون ويزرعون ويحصدون، وما يرعون، ويكيلون ويَزِنُونَ، وفي ما يشهدون عليه بالحق دون زيادة ولا نقصان.

---

[٣٣٤] البقرة، ٣٠.

الرفع علو من مستوى أقل إلى مستوى أعلى مصداقا لقوله تعالى: {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منَّا إنك أنت السميع العليم}[٣٣٥].

القواعد ثوابت لإرساء ما هو قائم، والرفع علو من أسفل إلى أعلى، وقواعد البيت الحرام لم يعرف بالتحديد من وضعها، ولكن الذي يُعرف هو رافعها (إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام) اللذين عَمِلا على رفعها من الأرض إلى ما هو قائم عليه، مما يجعل القواعد الثابتة في الأرض مؤسسة على حمْل ما يُرفع عليها.

والروايات تتحدث عن توقعات لواضعي القواعد، فهناك من يرى أن الملائكة هي الواضعة لها، وهناك من يرى أن آدم هو الذي هبط بها من الجنة، وهناك من يقول بأن القواعد مؤسسة يوم أن خلقت الأرض، وهناك من يقول بأن علاقة قوية بين المكان الذي هبط عليه آدم وقواعد البيت الحرام. إلا أنَّ هذه الروايات والأقوال وإن وجدت في الكتب أمهات وفروع، فهي في حقيقة الأمر لم تمتلك الدليل القاطع والحُجَّة اليقينية فيما كُتب فيها، ولكن الشيء الوحيد المتفق عليه هو أنَّ أسرارا كثيرة لا يعلمها إلا هو جل جلاله خلف هذه القواعد التي تم رفعها من قِبل إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام[٣٣٦].

ومن وجهة نظرنا وفقا للقاعدة التي تقول: (وراء كل مخلوق خالق) فإن الأرض وما فيها ومن عليها من ورائها خالق واحد أحد لا شريك له في المُلك بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وبما أن البيت هو بيت الله الحرام، إذن هو المكان الذي لا يأتيه طائف ولا راكع ولا ساجد ولا عاكف إلا مؤمنا بالله جل جلاله. ولذا فهو المكان المقدس للمسلمين من آدم وإبراهيم إلى محمد ومن تبع رسالة محمد بالهداية والإيمان.

ومع أن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام هما اللذان رفعا القواعد بناءً ماديا، إلا أن الغاية من رفع القواعد هي إظهار الإيمان برب واحد لا شريك له. وفي ذلك الإظهار ارتفاع عن الكفر والشرك بعبادة الله الواحد القهار. وبالطواف والركوع والسجود والاعتكاف في البيت

---

[٣٣٥] البقرة، ١٢٧.

[٣٣٦] تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٢٠ . ١٢٤ .

الحرام يُكفِّر الإنسان عن ذنوبه ويمحو سيئاته، وفي هذه نقلة من مستويات الدنوِّ، إلى مستويات العلو والارتفاع.

ولذا يُعد البيت الحرام آية من الآيات الكرام، فكما يطوف الملائكة حول العرش يطوف الخليفة حول بيت الله الحرام إيمانا وتوحيدا واعترافا وتقربا وتضرعا لله جل جلاله؛ وفي كلا الطوافين تماثل، ففي العالم غير المنظور لبني الإنسان تطوف الملائكة، وفي العالم المنظور الذي اختير فيه الإنسان خليفة في الأرض يكون هو الطائف المشاهد حول البيت المُحَرَّم. ولذا فالطَّواف المشاهد هو المقصور على الخليفة، والطواف غير المشاهد لله تعالى فيه من المسلمين والمؤمنين الموحدين الذين هم لله طائعين ولا يشركون بالله شيئا مصداقا لقوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}[٣٣٧].

إذن الرفعة هي الغاية التي تكمن وراء الإيمان والطاعة التامة لله جل جلاله، ولذا فمن رغب عن ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لن يبلغ عند الله رفعة، مصداقا لقوله تعالى: {ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو مُحسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا}[٣٣٨].

ولأن إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام غايتهما بلوغ الرفعة، قالا: (ربنا تقبل منَّا إنك أنت السميع العليم) أي بعد أن أتما عملية رفع القواعد من المستوى الأرضي إلى المستوى الارتفاعي، كان لهما الأمل في بلوغ الغاية وهي أن يتقبل الله عملهما حتى ينالا الثواب الذي به تتحقق الرفعة لهما في الحياة الخالدة.

قال تعالى: {في بيوت أَذِنَ اللهُ أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه يُسبح له فيها بالغدو والآصال}[٣٣٩]. المقصود بالبيوت هي بيوت الله (المساجد) التي يُراد لها أن تُرفع وتعلو ما حولها من العمران، ليرتفع في مآذنها الآذان نداء المصلين للصلاة. ليعلم المسلمون بأن الوقت قد حان

[٣٣٧] الذاريات، ٥٦.

[٣٣٨] النساء، ١٢٥.

[٣٣٩] النور، ٣٦.

للصلاة فيأتون مقبلين على ذكر اسم الله جل جلاله، وإقامة الصلاة والتسبيح باسمه في المساجد التي فيها يُذكر ويُسبح باسمه تعالى، دون خوض في حديث آخر لا علاقة له بعبادة الله عز وجل، ولذلك فالمساجد للصلاة والتعبد ولذكر اسم الله تعالى، فهي لم تكن آماكن للترف وقول الزور، ولا أماكن للهو واللعب فهذه الأفعال وما يماثلها تُبعد وتلهي عن ذكر اسمه جل جلاله فلا تُذكر في المساجد التي فيها يُرفع اسم الله فوق كل مسمى.

قال تعالى: {ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربِّك خيرُ مما يجمعون}[٣٤٠]. بطبيعة الحال بما أنَّ هناك درجات بين العباد، هناك تفاوت بينهم في كل ما من شأنه أن يجعل بعضهم مرتفع أو على حالة من الرفعة والارتقاع، وبين من هم في أسفل ومن هم في أسفل السافلين. فقوله تعالى: (رفعنا بعضهم فوق بعض درجات) تعود على ذات الرافع جل جلاله، الذي رفع البعض درجات عن البعض الآخر، من حيث المقدرة والنبوة والمُلك، فهناك المؤمن وهناك الكافر، وهناك الموحِّد وهناك المُشرك، وهناك الرئيس والمرؤوس، والحر والعبد، والغني والفقير، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، والفطن والغبي، والبائع والمشتري، والحاكم والمحكوم، والجميل والقبيح، والحكيم ومن لا حكمة له، والماهر ومن لا مهارة له، وهناك الخليفة وهناك من لم يتمكن من الاستخلاف فيها؛ وبين هذه وتلك ينتشر العباد على درجات السلم القيمي بين عليين وأسفل السافلين.

وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٣٤١] هذه الآية الكريمة تبين الضعف الإيماني الذي يَلَمَّ بالإنسان حتى يسخر البعض من البعض الآخر من بني جنسه، وذلك حيث يسخر الغني من الفقير، دون أن يمد له يد العون التي تُحفِّزه على الخروج من أزمات فقره وما يلمُّ به من حاجة، ويسخر الحاكم من المحكوم فيزجَّ بالبعض في السجون دون رحمة ولا شفقة، وكأنهم ليسو من طينته، ويقلل المالك من شأن المملوك دون أن يسعى لفك قيده أو كسره حتى تعم الحرية من يريد لهم الله أن يكونوا

---

[٣٤٠] الزخرف، ٣٢.

[٣٤١] التوبة ٧٩.

خلائف في الأرض، ويسخر القوي من الضعيف دون أن يمد له يد العون التي تخرجه من وهنه. وفي مقابل ذلك يجد المسخور منه نفسه تسخر هي الأخرى من الساخر الذي لم يذكر فضل الله عليه ويتوب إليه وينتهي عن كل سخرية واستهزاء ببني جنسه الذين فضلهم الله على ما خلق ويطيع الله تعالى استجابة لما نهي الله عنه بقوله عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكنَّ خيرا منهنَّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون}[٣٤٢]. ولذلك قال تعالى: (ورحمة ربِّك خيرٌ مما يجمعون)، أي أن رحمة الله عز وجل هي خير مما يجمعونه في الحياة الدنيا التي هم فيها يسخرون من بعضهم بعضا، ولذا لو يتذكرون هذه الرحمة الواسعة ما سخر احد من احدٍ، ولا ظن أحد منهم ظن السوء الذي يجعل صاحبه يسخر من الآخرين ويعتقد في نفسه أنه بما يملك هو خير منهم، وهو في حقيقة أمره قد لا يكون كذلك.

وعليه فالخليفة هو من يُسهم بلسانه وأفعاله وأعماله إلى ما يؤدي إلى تغيير أحواله وأحوال بني جنسه من الدرجات السفلية إلى الدرجات الرفيعة العلية التي تجعل النفس بالاتعاظ تقتدي وتسلك سبل الحق. ولذا عندما يكون الخليفة رافعا للظلم عن المظلومين، والكيد عن المكيدين، والحقد والحسد عن المحقودين والمحسودين، والاستغلال عن المستغَلين، والعبودية عن المستعبدين، عندما يكون الخليفة كذلك يكون بطبيعة الحال من المصلحين الذين يرثون الأرض ويستخلفون فيها ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء بغير حق، وهم الذين إذا ما أخطؤوا يستغفرون من كل خطيئة، ولذا فهم الذين لا يقترفون ذنبا ولا إثما وهم الذين يخافون الله ويتقونه فيما يقولون وما يفعلون ويعملون ويسلكون.

فالإنسان بطبيعته خيِّر، ولكن بأساليب التربية المتباينة تتباين حياته وتختلف مما يجعل البعض في حاجة لمن يُسهم في رفعهم من المستويات الدنيا إلى المستويات العليا، فالكافر على سبيل المثال هو في حاجة لمن يرتفع به من مستويات الكفر إلى مستويات الإيمان،

---

[٣٤٢] الحجرات، ١١.

وهذه رسالة على المؤمنين المستخلفين في الأرض، وليست رسالة على المفسدين فيها، والمشرك دائما هو في حاجة لمن يرتفع به من الشرك إلى الوحدانية الإلهية، والجاهل في حاجة لمن يرفعه من جهله إلى النور ويظهره عليه، والمريض في حاجة لمن يرفعه من مرضه وعلته إلى الصحة والشفاء، والمظلوم في حاجة لمن يرتفع به إلى العدل حتى يتمكن من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته بإرادة وحرية، وهكذا كل إنسان في حاجة لبلوغ درجات الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة، التي ببلوغها تتحقق الرفعة بالأبناء حتى يرثوا الأرض ويعملوا على إصلاحها ولا يُفسدوا فيها، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعملون صالحا يرضاه الله تعالى. ولذا فإن عمليات الإصلاح تكون أول ما تكون للأسرة وبها من أجل مستقبل يُرسِّخ القيم والفضائل الإنسانية الخيرة، ومن يرد أن يكون خليفة الله في الأرض فعليه أن يعمل كل ما من شأنه أن يحقق الرفعة والارتفاع بالمستوى القيمي الأخلاقي لبني الإنسان ذكورا وإناثا.

قال تعالى: {ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك فإن مع اليسر يسرا إنَّ مع العسر يُسرا}[٣٤٣]. بدأت سورة الانشراح بالاستفهام المتضمن للإجابة اليقين، (ألم نشرح لك صدرك!) أي أنَّ شرح صدر الرسول صلى الله عليه وسلم يقينا لا شك فيه، وذلك بالدليل القاطع وهو وضع الوزر عنه، والوزر: العبء. وهو الذنب الذي كان فيه، ويقصد بذلك (الجاهلية) أي لقد حدثت الرفعة للرسول صلى الله عليه وسلم من الجاهلية إلى النور (الإيمان)، وهذه نقلة سريعة لم تتم بالتعليم المدرسي والمنهجي المقولب بل تمت النقلة بالإعجاز، الكامن في الأمر (كن).

وشرح الصدر ليس الشرح المادي، بل هو الشرح المعرفي الذي به انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى العلم بالأمر الذي كان يجهله مما جعل الله عز وجل يصف الرسول بالنبي الأمي، وذلك تبرئة له من أي قول وظن بأن الرسالة من بنات أفكاره قال تعالى: {وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ

---

[٣٤٣] الشرح، ٦.

ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتلى عليهم يخرون للأذقان سجَّدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا}[٣٤٤].

وعليه لا يتحقق شرحُ الصدر إلا بما يحقق الرفعة القولية والعملية وهذه لا تتحقق إلا بالآتي:

. أولا: الإيمان: قال تعالى: {آمن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدا من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}[٣٤٥]. إنَّ إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم بما أُنزل إليه من ربِّه مبنيا على إيمان الرسول بربه أولا. ثم ثانيا الإيمان بما أنزل إليه. أي أنه لو لم يؤمن بالله ربه ما آمن بما أنزل إليه منه جل جلاله. وبذلك لا يمكن أن يتم الإيمان بالله وبما أنزل على الرسول إلا بعد شرحٍ للصدر ليستوعب النور الذي يمتلئ به بعد غفلة وجهالة عنه.

. ثانيا: العلم: قال تعالى: {اقرأ باسم ربِّك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربُّك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم}[٣٤٦]. القراءة نور يدخل الصدر وينير العقل بالعلم والمعرفة الواسعة التي تهدي للحقيقة وتنقل القراء من ميادين الجهل التي تضيق بالصدور إلى ميادين العلم الواسعة التي ترشد وتهدي للتي هي أحسن.

. ثالثا حُب الآخرين أقارب وأباعد: قال تعالى: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم تُرحمون}[٣٤٧]. وقال تعالى: {ويطعمون الطعام على حبِّه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا}[٣٤٨]. وقال تعالى: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليك إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته

---

[٣٤٤] الإسراء ١٠٥ . ١٠٨.

[٣٤٥] البقرة، ٢٨٥.

[٣٤٦] العلق، ١ . ٥.

[٣٤٧] الحجرات، ١٠.

[٣٤٨] الإنسان، ٨ ، ٩.

إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون}[٣٤٩]. وقال تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا}[٣٥٠].

بناء على هذه المتغيرات الثلاثة سابقة الذكر شرح الله تعالى صدر نبي الكافة بالإسلام، وبها نَقلهُ من الأمية التي لا تعرف الحقيقة يقيناً إلى النور الذي يهدي للتي هي أحسن وأقوم. ولذلك لم يُعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أميا بعد أن مكَّنهُ الله تعالى من القراءة بقوله تعالى: {اقرأ باسم ربِّك الذي خلق خلق الإنسان من عق اقرأ وربُّك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم}[٣٥١]. إنها أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفقا لما روته عائشة رضي الله تعالى عنها[٣٥٢]. ومعنى اقرأ باسم ربك: أن تذكر اسم ربِّك افتتاحا لما تقرأه من القرآن الكريم وذلك بقولك (بسم الله الرحمن الرحيم) إنها المفتاح لدخول آيات الله الكريمة باسمه الكريم.

ولأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يَعد أميّاً، جاءه أمر القراءة لازما مع الضرورة وذلك بتكرار أمر القراءة لمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: (اقرأ وربك الأكرم) وفي هذه الآية تأكيد ودليل لعدم القنوط مما جعل القراءة بعد ذلك التأكيد متيسرة وممكنة، فقرأ عليه الصلاة والسلام ما أمره الله بقراءته ومكرمته حتى أصبح قادرا على قراءة القرآن بكامله وفقا لنزوله وحيا يوحى، ولهذا فالوحي الذي يوحى أصبح مُعلَناً ومعروفا بقبوله للامتداد العلمي والمعرفي في العقول والقلوب التي لا تطمئن إلا به، فآمن من آمن حتى وُصِفَ المُسَلِّمَون بأمره بالمؤمنين.

والأكرم: هو صاحب الفضل في جعل محمد الأمي الذي لم يسبق له أن عرف القراءة والكتابة، أصبح قادرا على القراءة لِما يُقرأ عليه من وحي موحى مصداقا لقوله تعالى: {إن

---

[٣٤٩] آل عمران، ١٠٣.

[٣٥٠] الفرقان ٥٦.

[٣٥١] العلق، ١ . ٥.

[٣٥٢] تفسير القرطبي، ج ٢٠، ص ١١٨.

هو إلا وحيٌ يوحى علمه شديد القوى}[٣٥٣]. في هذه الآية الكريمة قال تعالى: (علمه شديد القوى) وهذا يعني أن محمدا صلوات الله وسلامه عليه أصبح متعلما بالعلم الذي علمه له الله جل جلاله، ولم يعد أميا كما سبق وإن كان قبل الرسالة التي أوحى بها الله تعالى لرسوله الكريم خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

وعلَّم بالقلم: تدل على أن التعلم الذي تلقاه محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن شفاهة فقط، بل هو المحفوظ في اللوح المحفوظ قراءة وكتابة، وبهذا الدليل أصبح القرآن يُعلَّم قراءة وكتابة وهو بين أيدي العباد الذين يُراد لهم أن يكونوا المستخلفين في الأرض بإعمارها وإصلاحها وعدم سفك الدماء فيها بغير حق مع عدم الإفساد الذي لا يرتضيه الله.

والذي علَّمه الله لرسوله الكريم وتعلَّمه العباد من بعده، هو العلم الذي لم يسبق له، ولا لهم، بأن عرفوه، مما جعل الله يصفه ويصفهم بالأميين، ولذا كان الرسول وقومه أميين لا يعلمون شيئا منه مصداقا لقوله تعالى: {هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم}[٣٥٤]. ولذا جاء قوله تعالى: (علَّم الإنسان ما لم يعلم). الإنسان: جاءت مطلقة، ويقول البعض من المفسرين: إنَّ الأمر يتعلق بآدم الإنسان الذي علمه الله تعالى كل الأسرار التي لم يَعلَمُها الملائكة ولا الجن حتى أنبأهم آدم بها، ويقول البعض: الأمر يتعلق بمحمد عليه الصلاة والسلام الذي علمه الله ما لم يكن يعلم من قبل[٣٥٥]. ولهذا فمحمد عليه الصلاة والسلام قبل الرسالة كان أمِّياً ومن بعدها أصبح قارئا حيث علمه شديد القوى ما لم يعلم. وقال تعالى: { وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكثٍ}[٣٥٦]. وقرآنا فرقناه، تعني قرآنا مفصلا يبين الحق من الباطل ولم يترك شاردة ولا واردة إلا وبيَّنها وفصَّلها تفصيلا، وهذا التفصيل والتبيان يتطلب منك يا محمد أن تقرأه بروية ومهل وتؤدة، حتى يتمكن العباد من معرفته ومعرفة الحق من الباطل ليتمكنوا من بعده من التمسك بالحق والثبات عليه، والابتعاد عن الباطل والنهي عنه.

---

[٣٥٣] النجم، ٤، ٥.

[٣٥٤] الجمعة، ٢.

[٣٥٥] تفسير القرطبي، ج ٢٠، ص ١١٨ . ١١٩.

[٣٥٦] الإسراء، ١٠٥.

وجاء في الآية قوله: (لتقرأه على الناس) تأكيدا على أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الوحي أصبح قادرا على القراءة، ولهذا أمره الله أن يقرأه على الناس بروية دون استعجال، وذلك ليتمكن المسلمين من الفهم والإدراك والتدبر فيما يُقرأ عليهم من آيات الذكر الحكيم.

قال تعالى: {وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لأرتاب المبطلون}[٣٥٧]. تؤكد هذه الآية الكريمة على أن محمد كان أميا قبل نزول القرآن عليه وحيا موحى، ولهذا جاء قوله تعالى: (وما كنت تتلوا من قبله) وهذه دليل إثبات على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أصبح يتلو القرآن بعد نزوله عليه وحيا موحى، أمَّا من قبله فلم يكن قارئا ولا كاتبا ولو كان كذلك لارتاب المبطلون. ومع أن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئا ولا كاتبا إلا أنه بنزول الوحي عليه أصبح عالما بأمور الأنبياء والرسل الذين سبقوه من آدم إلى عيسى عليهم جميعا الصلاة والسلام، وأصبح أيضا عالما بقصصهم وأممهم وشعوبهم ومعجزاتهم، ولذا فمن يؤمن بمحمد لا يفرق بين أحدٍ من رسله الذين قالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، وذلك لأن محمدا عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والرسل وهو للإنس والجن كافة.

وعليه فبعد الرسالة لم يعد محمد عليه الصلاة والسلام أميا، وإلا هل يَقبل العَقل بأن يكون محمد أميا ويوصف بها، والذين تعلموا منه الوحي ومن بعده يوصفون بالعلماء والفقهاء والمشايخ والمتبحرين في علوم الدين؟!. ولذا لم يكن ولن يكون أحد من بعده عالما بأمور الدين أكثر منه بالمطلق. وعليه أتساءل: هل الذي يُعلِّمَهُ الله الكتاب والحكمة أيها المسلمون هو الأعلم بأمور الدين، أم من يُعلِّمه البشر هو الأعلم؟.

بالتأكيد لا مجال للمقارنة والحق دامغ للباطل وله زاهق. قال تعالى: {وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلَّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك

---

[٣٥٧] العنكبوت، ٤٨.

عظيما}[٣٥٨]. وعلَّمك ما لم تكن تعلم، هذه آية تُثبت أن محمدا قد علمه الله ما لم يكن يعلم، أي لقد كان عليه الصلاة والسلام أميا، ثم أصبح بعلم الله له عالما بما علمه به تعالى.

وبما أنَّ الأمي هو من يجهل الحقيقة ولا يعلم بأمرها، إذن فمحمد عليه الصلاة والسلام ليس بأمِّي، وذلك لعلمه بالحقيقة وأمرها. والحقيقة هي: أن الله واحد أحد، لا شريك له في الأمر، ولا في الملك، وهو القادر على قول الأمر وتحقيقه، وهو الرحمن الرحيم الذي له الأسماء الحسنى، وهو الذي يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير سبحانه لا إله إلا هو الملك المتعالي.

وقد يتساءل البعض: عن العلاقة بين الأمية والهداية على درجات السُلَّم القيمي للفضيلة والأخلاق. فتكون الإجابة: هي علاقة تنافر لا تجاذب، كالعلاقة بين العليين وأسفل السافلين. ولهذا لقد تحققت الرفعة لمحمد عليه الصلاة والسلام بما علمه الله به من وحي (بما أنزله عليه من رسالة)، ولهذا لقد رفع الله تعالى لمحمد ذكره برفعه من الجاهلية إلى الهداية والنور الذي شرح صدره بالإيمان مصداقا لقوله تعالى: (ورفعنا لك ذكرك). والذي قال فيه حسَّان ابن ثابت:

أغرُّ عليه للنبوّة خاتَمُ من الله مشهودُ يلوح ويُشهَدُ

وضمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذِّنُ أَشهَدُ[٣٥٩]

فرفعنا لك ذكرك، جاءت مطلقة، وذلك برفع ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في قول الله في اللوح المحفوظ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولقد ارتبط ذكر محمد مع اسم الله في الشهادة والآذان، وفي التشهد أثناء الصلاة، وكذلك ارتبط ذكره المحقق للرفعة بارتباط طاعته بطاعة الله مصداقا لقوله تعالى: {من يُطع الرسول فقد أطاع الله}[٣٦٠]. وقد ارتبط ذكره بالرحمة مصداقا لقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[٣٦١]. وقد

---

[٣٥٨] النساء، ١١٣.

[٣٥٩] تفسير القرطبي، ج ٢٠، ص ١٠٦.

[٣٦٠] النساء، ٨٠.

[٣٦١] الأنبياء، ١٠٧.

ارتبط اسمه بالحق مصداقا لقوله تعالى: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا}[٣٦٢]. ولأن الله قد رفع له ذكره فقد صلى عليه والملائكة وسلموا تسليما، وأمر الله الذين آمنوا أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما}[٣٦٣]. وهكذا أصبح اسمه مرتبطا باسمه تعالى بدخول الإسلام في الدار الدنيا ومرتبطا اسمه مع كل من يدخل الجنة، وسيحاسب ويعاقب من أمته كل عنيد أشرك بالله أو كفر به ولم يشهد لمحمد صلوات الله وسلامه عليه بأنه رسول الله وخاتم النبيين.

ومن يرد أن يكون خليفة لله تعالى في الأرض فعليه بالإيمان بالله جل جلاله واحدا أحدا لا شريك له، له الملك وله الحمد سبحانه وتعالى عمَّا يصفون، وأن يؤمن بمحمد رسول الله ويصلي عليه ويسلم تسليما، ولا يفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

وأن يعلم الحق ويتبعه، ويعلم الباطل ويجتنبه ويحرِّض الآخرين على اتباع الحق وإحقاقه، والابتعاد عن الباطل وإزهاقه.

وأن يُحب الخليفة لأخيه ما يحب لنفسه حتى تسود المحبة بين الناس على قول الحق وإحقاقه، وحتى يتم التعاون على البر والتقوى ولا يتم التعاون على الإثم والعدوان.

قال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلَّم الله ورفع بعضهم درجات}[٣٦٤]. تتضمّن هذه الآية الكريمة أن الله تعالى قد فضَّل الرُسُلَ جميعا صلوات الله وسلامه عليهم، أي أنهم جميعا مرتفعون على درجات التفضيل، ولم يستثن الله منهم أحدا من بلوغ درجات التفضيل. ولذا فكل الرُسُل هم مفضلون، ومن بين المفضلين عند الله

---

[٣٦٢] فاطر، ٢٤.

[٣٦٣] الأحزاب، ٥٦.

[٣٦٤] البقرة، ٢٥٣.

مفضلون. هذه علاقة واضحة بين الله تعالى ومن اصطفى من الأنبياء والرُسُل مصداقا لقوله تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض}[٣٦٥].

المفسرون اجتهدوا في ذلك كثيرا، ونحن نعتقد أننا لم نبلغ ما بلغه الرسل والأنبياء من مقامات عظام وما أظهرهم الله عليه من أسرار، ولذا فنحن سنكون ملتزمين بقوله تعالى: {لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}[٣٦٦]. اليهود والنصارى لا يؤمنون بجميع الأنبياء والرسل، ولذا فهم يُفرِّقون بينهم، وهذا التفريق نهت عنه الآية السابقة بقوله تعالى: (لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير). ولهذا جاءت رسالة الله كافة على يد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لتنهى عن بث روح التفرقة بين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بين اتباع الرسالات السماوية، فمنهم من آمن واهتدى، ومنهم من لم يهتدِ بعد.

وما ينبغي قوله هنا: أن الله قد بعث بعض الرُسُل والأنبياء إلى أقوامهم أو شعوبهم أو سكان قراهم مصداقا لقوله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم}[٣٦٧]. وقوله تعالى: {وإلى مدين أخاهم شعيب}[٣٦٨]، وقوله تعالى: {وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء}[٣٦٩]. وهناك من بعثه الله عز وجل إلى الكافة (أنسا وجنا) مصداقا لقوله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس}[٣٧٠]. وهناك من كلمه مباشرة وهناك من لم يكلمه مباشرة، وهناك من رفعه الله إليه، وجميع هذه المعطيات أسرار لا يعلمها إلا من فضَّل بعض الرُسُل على بعض جل جلاله.

---

[٣٦٥] الإسراء، ٥٥.

[٣٦٦] البقرة، ٢٨٥.

[٣٦٧] إبراهيم، ٤.

[٣٦٨] هود، ٨٤.

[٣٦٩] الأعراف، ٩٤.

[٣٧٠] سبأ، ٢٨.

قال تعالى: {وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنَّ ربَّك حكيم عليم}[٣٧١]. الحُجَّة التي أُتيت لإبراهيم عليه الصلاة والسلام هي الكلام الإعجازي الذي جعل المشركين غير قادرين على محاجَّته، فقد سألوه: من الذي كسَّر آلهتنا؟. قال تعالى: {قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يُقال له إبراهيم قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوه إن كانوا ينطقون فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ثم نُكِسوا على رؤوسهم لقد عَلِمتَ ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أفٍ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون قالوا حرِّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين}[٣٧٢].

بهذه المعجزات الحُجَّة سلَّم الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام من كيد وأفعال المشركين ونصره عليهم جميعا نصرا عزيزا، وبذلك رفعه الله تعالى درجات العلاء بما بث فيه من إيمان راسخ به جل جلاله، ولذا فمن تُرفع درجاته يُرفع، ومن تخفض درجاته يُخفض. وعليه فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان خليفة الله تعالى في الأرض الذي رُفِعَ بِرفعِ درجاته.

قال تعالى: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إنَّ ربَّك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم}[٣٧٣]. الله عز وجل هو الذي جعل العباد خلائف يتوارثون الأرض جيل بعد جيل، وفي كل جيل أناس يتميزون عن غيرهم من بني جيلهم بقدراتهم واستعداداتهم ومواهبهم ومهاراتهم وفطنتهم وإيمانهم وأقوالهم وأعمالهم وأفعالهم، وبرسالاتهم وأنبائهم، ولهذا فقد رفع الله بعض العباد فوق البعض درجات، فمنهم من مكَّنهم في الأرض برسالاتهم وأنبائهم، ومنهم من مكَّنهم فيها بِمُلكهم وبعلمهم وبمالهم وبإحسانهم وما يقومون به من فضائل. وفي مقابل ذلك خفض آخرين بسوء أعمالهم، وبكفرهم وشركهم

---

[٣٧١] النعام، ٨٣.

[٣٧٢] الأنبياء، ٥٩ . ٧٠.

[٣٧٣] الأنعام، ١٦٥.

به جل جلاله، وبسفكهم الدماء في الأرض بغير حق، وبإفسادهم فيها بقول الزور والبهتان، وبما تقترف أيديهم من أعمال السوء، وأكل أموال الناس بينهم بالباطل، وبما يقدمون عليه من تزوير للحقائق وظلم للعباد وإفساد ذممهم وأخلاقياتهم وهتك عِرضهم.

وفي مقابل كل فعل ردٌّ فعل بالسلب أو بالإيجاب، بالثواب أو بالعقاب، وبين هذا وذاك تظل الفرصة متاحة لمن استغفر وتاب وآمن بالله ربِّ العالمين؛ ولذا فإن الله تعالى سريع العقاب وإنه لغفور رحيم لمن آمن وتاب واستغفره بقلب سليم. وعليه لا تستوي السيئة والحسنة مصداقا لقوله تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}[٣٧٤]. فالله عز وجل لا يظلم أحدا وإن تكُ حسنة يضاعفها مصداقا لقوله تعالى: {إنَّ الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تكُ حسنة يضاعفها}[٣٧٥].

قال تعالى: {إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون}[٣٧٦]. التوفية إتمام ورفعة تحققت لعيسى عليه الصلاة والسلام في حياته قبل مماته، وذلك برفعه الله إليه ليكون آية من آياته العظام التي تَشُدُّ العباد إليها إيمانا بالله الذي قال في كتابه العزيز: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه تُرجعون}[٣٧٧].

وفي اللغة متوفيك تعني: قابضك. وما تدل عليه هو: إنَّ الله قد رفع عيسى إليه من الأرض إلى السماء من غير موت. ولهذا فإن عيسى عليه الصلاة والسلام ما قتلوه يقينا ولكن شُبِّه لهم مصداقا لقوله تعالى: {وقولهم إنَّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍ منه مالهم به من علم إلا اتباع الظنَّ

---

[٣٧٤] النساء، ٧٩.

[٣٧٥] النساء ٤٠.

[٣٧٦] آل عمران، ٥٥.

[٣٧٧] يس، ٨٢، ٨٣.

وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا}[٣٧٨].

وقوله: (ورافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا) تؤكد هذه الآية بأن المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام لم يمت بعد، وأن الله تعالى قد رفعه إليه (إلى السماء) المكان اللائق بالأرواح الطاهرة، خاصة وأن الله عز وجل قال: (ورافعك إليَّ). وفي هذا القول الكريم حُجَّتان للرفعة:

. الحُجَّة الأولى اصطفاء الله إليه: إن الله جعل المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام من الرسل الذين اصطفاهم ورفعهم على درجات التفضيل القيمي.

. الحُجَّة الثانية رَفْعُ الله إليه: أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام قد رفعه الله إليه هوَّ كما هوَّ، وفي هذه الرفعة طهارة له من مجاورة المشركين والذين كفروا في الدار الدنيا، وأصبح عيسى في السماء مع العليين.

وعليه فإن الله تعالى قد رفع عيسى عليه الصلاة والسلام بثلاثة أمور استنادا على قوله تعالى: (ومطهرك من الذين كفروا) والأمور الثلاثة هي:

. الأمر الأول توفيته: والتوفية تعني الإتمام أي أن عيسى قد أتم رسالته التي يُراد لها أن تتم هِيَّ كما هِيَّ، فقد آمن من آمن وكفر من كفر، ولا إكراه في الدين. ولهذا فمتوفيك: تعني فيما تعني، أن الله قد خلق عيسى واصطفاه وهو معصوما ولم يكن منقوصا، فقد اصطفاه رسولا وهو أعلم به وبأمره، فلو لم يكن عيسى عليه الصلاة والسلام قادرا على حمل الرسالة، ما اختاره الله رسولا لها. ولقد قام بتبليغ الرسالة التي يُراد لها أن تُبلَّغ، وبهذا أوفى عيسى المهمة التي من بعدها جاء السرُّ الذي به رفعه الله إليه.

. الأمر الثاني الرفع إلى الله: وهذا الرفع سر لا يعلمه إلا هو جل جلاله، ولأنه سرٌّ، إذن لابد وأن يأتي اليوم الذي سينكشف فيه، وهذا يعني أن عيسى عليه الصلاة والسلام لن يموت

---

[٣٧٨] النساء، ٥٧ . ٥٩.

قبل أن ينكشف السر الذي به ومن أجله رُفع إلى السماء، مما يجعل الرفع إلى السماء مؤقتا والعودة به إلى الأرض أمرا ضروريا.

. الأمر الثالث التطهير: بقاء عيسى عليه الصلاة والسلام في الأرض بين أوساط الكافرين لا يتساوى بطبيعة الحال مع وجوده مع الملائكة في العليين، وفي هذا الأمر رِفعة به وبدرجاته العلا. فالذين كفروا هم على دنس، فطهَّر الله تعالى عيسى من هذا الدنس برفعه إليه، ولذا في تطهير عيسى تزكية وإشادة وثناء ورفعة له.

وعليه فمن يُريد أن يكون خليفة لله في الأرض فعليه بالآتي:

. أولا: أن يُطهِر نفسه بالإيمان التام بالله تعالى ولا يُشرك به شيئا، وأن يؤمن بكل ما أمر الله أن يُؤمن به، وأن ينتهي عن كل ما نهى عنه، ويُصلي ويُسلّم على جميع الأنبياء والرسل ولا يفرق بين احد منهم. قال تعالى: {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون قل آمنَّا بالله وما انزل علينا وما انزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أتي موسى وعيسى والنبيُّون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون ومن يبتغي غير الإسلام دينا فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين}[٣٧٩].

. ثانيا: أن يستمد صفاته من صفات الله الذي يُريده خليفة له في الأرض، وإلا هل يُعقل أن يكون الإنسان خليفة لله وهو لم يستمد صفاته منه؟. وكما أن الصفة تتبع الموصوف فكذلك يتبع الخليفة مستخلفه. {وإذ قال ربُّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني اعلم مالا تعلمون وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما

---

[٣٧٩] آل عمران، ٨٣ . ٨٥.

أنبأهم بأسمائهم قال ألم اقل لكم إني اعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون}[٣٨٠].

. ثالثا: أن يرتفع عن مواقع الفساد فلا يشرب مسكرا، ولا يسرق ولا يزني ولا يعمل حراما ولا يأكل أموال اليتامى والمساكين بالباطل، ويقول الحق ولا يشهد شهادة زورٍ. قال تعالى: {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليُفسد فيها ويهلك الحرث والنَّسلَ والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد}[٣٨١].

. رابعا: أن يؤدي رسالته في الأرض التي يُراد له أن يكون خليفة فيها بالعمل الصالح، وأن لا يسفك الدماء فيها بغير حق، وأن يكون صادقا مع نفسه وربه الذي خلقه في أحسن تقويم. قال تعالى: {الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويُفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون}[٣٨٢].

. خامسا: أن يعمل كل ما من شأنه أن يرفعه إلى مرضاة الله تعالى. قال تعالى: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد}[٣٨٣].

قال تعالى: {واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صدِّيقا نبيا ورفعناه مكانا عليا}[٣٨٤]. لو عدنا إلى ما سبق تبيانه بشأن عيسى صلى الله عليه وسلم لعرفنا الفرق بين قوله تعالى: (إني متوفيك ورافعك إليَّ)، وبين قوله في إدريس عليه الصلاة والسلام (ورفعناه مكانا عليا). ففي الأولى رفع الله عيسى إليه، وفي الثانية رفع إدريس إلى مكان عليٍّ. ومن هاتين الآيتين نتبيِّن حقيقة بقاء عيسى حيا وحقيقة بقاء إدريس ميتا، وكلاهما على حالة من الرفعة والارتفاع إلى السماء. قال تعالى: {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم

---

[٣٨٠] البقرة، ٣٠ . ٣٣.

[٣٨١] البقرة، ٢٠٤ . ٢٠٦.

[٣٨٢] البقرة، ٢٧.

[٣٨٣] البقرة، ٢٠٧.

[٣٨٤] مريم، ٥٦، ٥٧.

ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّدا وبكيا}[٣٨٥].

بناء على ما تقدم فالرفع أنواع: هناك رفع الأعمال الخيرة مصداقا لقوله تعالى: {إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه}[٣٨٦]. ورفع الدرجات حتى بلوغ مستوى العليين، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[٣٨٧]. وهناك رفع عيسى حيا إلى الله تعالى في السماوات العلى، وهناك رفع إدريس إلى الموت في مكانٍ في السماء، ولذا فالرفع أنواع كثيرة ومتنوعة ومتعدد، فمنه رفع القامة ومنه رفع المكانة والشأن وزيادة الهيبة والتقوى، ورفع الطائر بجناحيه من الأرض إلى ما هو فوقها. وهناك رفع السماوات بغير عمدٍ مصداقا لقوله تعالى: {الله الذي رفع السماوات بغير عمدٍ ترونها}[٣٨٨]. وكذلك هناك رفع سمك السماء واستوائها مصداقا لقوله تعالى: {أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها}[٣٨٩]. وهناك رفع الحُجَّة الرافعة للدرجات العلا مصداقا لقوله تعالى: {وتلك حُجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إنَّ ربَّك حكيم عليم}[٣٩٠]. وهناك رفع الذكرِ مصداقا لقوله تعالى: {ورفعنا لك ذكرك}[٣٩١]. وهناك الرفع بالعلم حتى النهاية مصداقا لقوله تعالى: {نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم}[٣٩٢].

وفي أهل العلم يقول الشاعر:

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ   أبوهمُ آدم والأم حواءُ

[٣٨٥] مريم، ٥٨.

[٣٨٦] فاطر، ١٠.

[٣٨٧] المجادلة، ١١.

[٣٨٨] الرعد، ٢.

[٣٨٩] النازعات،٢٧، ٢٨.

[٣٩٠] المجادلة، ١١.

[٣٩١] الانشراح، ٤.

[٣٩٢] يوسف، ٧٦.

فإن يكن لهم في أصلهم شرفُ   يتفاخرون به فالطين والماءُ
ما الفخر إلا لأهل العلم إنهمُ   على الهدى لِمن استهدى أدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه   والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففز بعلم تعش حيًّا به أبداً   فالناس موتى وأهل العلم أحياء[٣٩٣].

وعليه كل الرفع الذي توقفنا عنده أو هو استوقفنا إنما هو رفع خير، ولذا على الخليفة أن يسعى إلى كل ما من شأنه أن يبلغه أو يبلغ به خيرا يرضاه الله تعالى. وبما أن بلوغ السماء خير، فلماذا لا يكون ذلك نصب أعيننا حتى نلتقي بالرافع الأعظم جل جلاله.

ولهذا فالعلاقة قوية وموجبة بين الرفعة والارتفاع وبين الطموح والأمل، ولذلك لا يوجد في قاموس الخليفة اليأس، بل الأمل كل الأمل هو الذي يملأه بعباراته وجمله وقوانينه وإيمانه. ولذا فالخليفة هو متقدم لغزو الفضاء حتى بلوغ الجنة التي يجد فيها نفسه بجانب من بثَّ فيه روح الرفعة والارتفاع حتى يصبح بجانبه مع العليين.

وعلى الخليفة أن يُميِّزَ بين الرفعة والارتفاع وبين الترفُّع على العباد، فالرفعة والارتفاع لا يتحققان على درجات الفضائل والسُلَّم القيمي إلا بالأعمال الحسنة، أما الترفُّع فهو تكبُّر في غير محله، وفي ذلك قال ابن المقفَّع: "من تكبَّر على الناس ذل، ومن أعجب برأيه ضل، وذلك لأن الكبرياء لله وحده"[٣٩٤]. قال تعالى: {وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم}[٣٩٥]، الكبرياء صفة من صفات الله التي عندما يقتدي بها الخليفة يجد نفسه متكبرا عن أفعال الرذيلة ومتكبرا عن الإفساد في الأرض وعن سفك الدماء فيها بغير حق، ومتكبرا عن ارتكاب المظالم والمحرمات ومتكبرا عن كل ما نهى الله تعالى عنه. ولذلك جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من تواضع لله رفعه"[٣٩٦].

وفي ذلك قال الشاعر:

---

[٣٩٣] محمد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. مرجع سابق، ص ٩٧.

[٣٩٤] المرجع السابق، ص ٩٨.

[٣٩٥] الجاثية، ٣٧.

[٣٩٦] المرجع السابق، ص ٩٨.

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ على صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تك كالدخان يعلوا بنفسه على طبقات الجو وهو وضيعُ[٣٩٧].

وعليه فالتواضع رحمة، لا يتم نيله إلا برحمة من رحمن رحيم، فمن يريد بلوغه فليرتفع عن كل ما من شأنه أن لا يُرضي الله تعالى ولا يُرضي من استخلفهم في الأرض، وأن يخاف مقام ربه وينهى النفس عن الهوى مصداقا لقوله تعالى: {وأمَّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى}[٣٩٨].

ومن يريد الرفعة وبلوغها فعليه بأسبابها، وأولها أن يرتفع بنفسه عن الطمع وظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل، يرتفع عن الإقدام على الأعمال الدنيئة حتى يرفعه الله إليه مقاما محمودا. وآخر هذه الأسباب أن يستغفر الله ربَّه من كل خطيئة أو ذنب ارتكبه ليتوب عليه ويفوز بالرحمة التي تُعيده إلى الصعود على درجات الفضائل والقيم الخيِّرة.

فالحمد لله مدبر الملك والملكوت، المنفرد بالعزة والجبروت، الرافع السماء بغير عماد حيث قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ}[٣٩٩] فالله الذي رفع السموات وما يجرى فيها النجوم بغير أعمدة تُرى ولا يعلمها إلا الله، وإن كان قد ربط بينها وبين الأرض بروابط لا تنقطع إلا أن يشاء الله، وعلى الرغم من رفع الشمس والقمر وبعدهما عن الأرض فقد سخرهما وذللهما بسلطانه لمنفعة الخلق، وهما يدوران بانتظام لزمن قدّره الله سبحانه وتعالى، وهو أيضا المقدر لخفض ورفعة العباد، الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب، ورفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه والاعتماد على مدبر سواه، فلم يعبدوا إلا إياه علما بأنه الواحد الفرد الصمد الإله وتحقيقا بأن جميع أصناف الخلق من العباد لا تُبتغى عندهم

---

[٣٩٧] المرجع السابق، ٩٨.

[٣٩٨] المرجع السابق، ص ١٠٠.

[٣٩٩] الرعد ٢

الرفعة، وأنه ما من ذرة إلا إلى الله خلقها ورفعها ووضعها بعزته وقدرته وقوته وجبروته، فقد ارتفع بكل شيء عن كل شيء حيث قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ}[٤٠٠] أي أنه ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله وعن خلو أفعاله عن الحكم والمصالح والغايات الجليلة، وهو الذي يحق له الملك على الإطلاق إيجادا وإعداما، وبدأ وإعادة، وإحياء وإماتة، وعقابا وإثابة، وكل ما سواه مملوك له مقهور تحت ملكه العظيم سبحانه جل جلاله، والملك لما له من الرفعة والمكانة العالية، فهو الذي يستغني في ذاته وصفاته وأفعاله عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود، وقد وصف نفسه برب العرش الكريم لأنه يقسم فيض كرم الحق ورحمته ومنه تنقسم آثار رحمة كرمه إلى جميع مخلوقاته، يرفعهم بها كل حسب ما قدر له من الرفعة كونه الرافع، فإن كان هو الرافع فقد تنزه جل جلاله عن جميع صفات المخلوقين، استعظاما له تعالى ولشؤونه سبحانه التي يصرف عليها عباده جل وعلا من البدء والإعادة والإثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أي ارتفع سبحانه بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين في ذاته وصفاته وأفعاله، وتتضح أعلى درجات الرفعة والعلو والتنزيه للرافع جل وعلا بقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٠١] فالله وحده مالك التصرف فى الأمر كله، يمنح من يشاء ما يشاء من الحكم والسلطان، وينزعه ممن يشاء، ويهب العزة من يريد من عباده بتوفيقه إلى الأخذ بأسبابها فيرفعه بهذه الأسباب، ويضرب الذل والهوان على من يشاء فيضع من كانت الرفعة إلى جانبه، فهو وحده أيضا يملك الخير، ولا يعجزه شيء عن تنفيذ مراده، وما تقتضيه حكمته فى نظام خلقه، ولهذا فهو مالك جنس الملك على الإطلاق ملكا حقيقيا بحيث يتصرف فيه كيف يشاء له إيجادا وإعداما وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير مشارك ولا ممانع، وهو الرافع من كونه تعالى بيده الميزان حيث قال تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ

---

[٤٠٠] المؤمنون ١١٦

[٤٠١] آل عمران ٢٦

ثَقُلَتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[402] يخفض القسط ويرفعه فيرفع ليؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويغني من يشاء، إنه الخافض لينزع الملك ممن يشاء ويذلّ من يشاء ويفقر من يشاء بيده الخير وهو الميزان فيوفي الحقوق من يستحقها، والذي يرفع ويخفض، هو الذي يعز ويذل، فأعز بطاعته وأذل بمخالفته، وفي الدنيا أعز كما آتى من المال من آتاه وبما أعطى من اليقين لأهله وبما أنعم به من الخلافة والولاية وتحكم في الخلق بإمضاء الكلمة، فقهر وأذلّ الجبارين والمتكبرين وأنزلهم عن مكان رفعتهم، وبما أذلّ به في الدنيا بعض المؤمنين بتواضعهم ليرفعهم في الآخرة بحسن أعمالهم وبما كانوا يفعلون من الخيرات والامتثال لأوامر الله تعالى فيما أحل وحرم وفي ما أباح ومنع من الموجودات التي أوجدها للخلق اختبارا وامتحانا، فالموجودات كلها كانت بكلمة الله (كن) وإليه يرجع الأمر كله والعمل الصالح يرفعه إلى ما انتهت إليه همة العبد وما تعطيه حقيقة العمل الرافع له، ورفعة الله لا تدرك ولا تعرف، فلا حد لها، ولذلك يقال يوم القيامة لصاحب القرآن كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فإن مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا"[403] فدرجات الجنة على هذا على عدد آي القرآن في الرفعة. وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[404]، إن تسخير ما في السموات والأرض رفعة للإنسان الذي فضله الرافع على جميع مخلوقاته، وجعل علة تسخير بعضها لبعض مع كون العالم مسخراً للخلق، إنها رفعة لبعضنا على بعض بالدرجة التي يحتاج إليها كل إنسان، فالإنسان مسخر لحاجته وأهله وأرضه، ولهذا سخر له الله تعالى ما في السماوات وما في الأرض، وهذا التسخير بطريق الإذلال لكل ما في السماوات وما في الأرض لترفع من شأنه وتصلح من أحوال معيشته، وهناك نوع آخر من التسخير وهو تسخير القيام، حيث يسخر من له قدرة على

---

[402] الأعراف ٨

[403] مسند أحمد ١٤،٤٦

[404] الجاثية ١٣

خدمة من ليس له قدرة على القيام بمهام أحواله الخاصة. وهذا معنى الإنسان المستخلف في الأرض الذي رفعه الله تعالى عن بقية ما خلق، فالاسم الإلهي الرافع يرفع الليل ويضع النهار، وهكذا هو رافع السموات بغير عمد ورافع الشمس والقمر والنجوم والكواكب وجاعلها سابحة في أفلاكها، فالله تعالى بيده القدرة والقوة والميزان يخفض ويرفع من يشاء متى ما شاء سبحانه إنه ربّي جل جلاله، ولهذا فالإنسان الذي يعلم معنى أنه خليفة فهو الذي يرفع مقام نفسه بكل ما يرضي الرافع جل جلاله، والمرء حيث وضع نفسه، إن أعز نفسه علا أمره، وإن أذلها ذل وهان قدره. والخليفة كونه وارثا للأرض فيجب أن يكون صاحب همة لا محالة، ومعنى الهمة أن يرفع نفسه فإن أنفة القلب من همم النفوس العالية لأنهم يعرفون قدر أنفسهم فيعزونها، ولا يُرفع قدر أحد حتى يكون هو الرافع لقدر نفسه. وإعزاز المرء نفسه أن لا يختلط بالأراذل ولا يشرع في عمل ما لا يجوز لمثله أن يعمله ولا ما يعاب به والهمة والأنفة للخليفة لأن الله ركب فيه الخصلة الحسنة ليتعلمها منه بقية من خلق، والرافع سبحانه هو الله يرفع ويخفض، بيده ميزان القسط، وخير ما يرفع قدر الإنسان وقيمته وأجره وثوابه هو العلم الذي هو غذاء العقل وطريق الهدى وسبيل الرشاد، ذلك أن العالم يكون مرفوع الدرجة، والمتعلم كذلك، ومن يستمع للعلم يكون له نصيب من الرفعة، فما تشبه أحد بقوم إلا أوشك أن يكون منهم إن لم يكون قد أصبح، فإن تعلّم علمك لمن يجهل، وتتعلم ممن يعلم ما تجهل هو من باب الرفعة المتبادلة، فمن فعل ذلك فقد علم ما جهل وحفظ ما علم، والأمر بتعلم العلم تعني في ما تعنيه دعوة إلى رفع قيمة الإنسان وقدره وترفعه عن بقية المخلوقات التي لا تختص بأمر الخلافة التي هي حكر على الإنسان الذي فضله الله به، فلذلك كان تعلم العلم لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الصواب، والمُصبِّر على السراء والضراء، والمعين عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة، يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها

تمسحهم، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى، ونور الأبصار من الظلم، وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل أعلى درجات الرفعة، ومدارسته تحيي القلوب والعقول، وبه يطاع الله عز وجل وبه يعبد، وبه يوحد و يمجد، وبه يتورع، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام.

والسبب الذي من أجله تدرك أشرف العلوم هو الرفعة والتسامي عن الأشباه والنظائر، وأن ذلك يراد به شيئان:

الأول: شرف الثمرة.

الثاني: وثاقة الدليل وقوته.

وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف، وأن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم، وأن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل للقرب من الله سبحانه والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه وممارة السفهاء ومباهاة الأقران ولكن العلم يدعو إلى التواضع الذي هو من صفات العلماء، وهذا التواضع هو الرفعة بعينها، ومن غير باب العلم من الذين يزيدهم الله عزة ورفعة بعفوه عنهم لتواضعهم، فما زاد الله عبده بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله تعالى، وقال صلى الله عليه وسلم: "من تواضع لله درجة يرفعه الله درجة، حتى يجعله في أعلى عليين ومن يتكبر على الله درجة يضعه الله درجة حتى يجعله في أسفل السافلين، ولو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس عليه باب ولا كوة، لخرج ما غيبه للناس كائنا ما كان"[٤٠٥] وهو التواضع للمخلوقين في ذات الله لأن التواضع دليل العزة والمقدرة وهو من باب العلم اليقين بأنه مقتدر، أما الجاهل فإنه يتكبر ويعلو على الآخرين ظناً منه أنه يترفع أو أنه أوتي الرفعة وهذا من فرط جهله بنفسه

[٤٠٥] صحيح ابن حبان ٢٣،٣٨٢

وبالناس، فقد يُؤتى الإنسان من قبل جهله من وجه آخر، حيث يظن أن فعله هذا مبارك مشروع، وصاحبه مأجور مشكور، وليس الأمر على ظنه وحسبانه في الواقع، كمن يظلم فاجرا أو فاسقا، ويتعمد الإساءة إليه بالقول والفعل، وهو يظن أن عمله هذا قربة يرفعه الله بها درجات، ويجهل أن الظلم حرام في حق كل أحد، سواء كان مسلما أو كافرا، برا أو فاجرا، وأن فعله هذا من الصد عن سبيل الله، والظلم لعباد الله، وكلاهما حرام بنصوص كثيرة في الكتاب والسنة والعرف والأخلاق، وبهذا نعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحرمان ذلك إذ تضمنا تفويت مصلحة أكبر أو جلب فتنة ومفسدة أعظم.

لقد اختار الله تعالى الأنبياء والمرسلين من خلقه، وهذا الاختيار الإلهي إنما هو رفعة من الله تعالى رفعهم بدرجاتهم عن بقية خلقه، وهذه الرفعة من جانبين:

أولهما: اختيارهم أنبياء ورسلا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثانيهما: أنه أوحى إليهم دون بقية خلقه، فقد قال تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإسماعيل وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}[٤٠٦] فقد خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه أوحى إليه القرآن والشريعة، كما أوحى من قبله إلى نوح وإلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وإلى عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، وبذلك رفعهم بالرسالات والنبوة، ومع أنهم رسل الله وأنبيائه الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، إلا أن لكل رسول رسالة خاصة إلا محمد عليه الصلاة والسلام فكانت رسالته للكافة مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٤٠٧] وكانت طريقة الوحي إلى موسى أن كلَّمه الله تكليماً من وراء حجاب بلا واسطة، وقد ذكر نوح في البداية لأنه أول نبي عذبت

---

[٤٠٦] النساء ١٦٣ ١٦٤

[٤٠٧] سبأ ٢٨.

أمته لردهم دعوته وقد أهلك الله بدعائه أهل الأرض حيث قال تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}[٤٠٨] ومن رفعة مقامه أن نوحا عليه الصلاة والسلام عمر ألف سنة وكان يدعو قومه ليلا ونهارا وسرا وجهارا وكان يُضرب من قومه حتى يغمى عليه فإذا أفاق عاد وبلغ، وإبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط الذين هم أولاد يعقوب عليه الصلاة السلام، وكذلك عيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان خصهم بالذكر مع اشتمال النبيين عليهم تشريفا لهم وإظهارا لفضلهم ورفعة لشأنهم، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام أول أولي العزم.

إن الكلام الطيب عمل صالح، وإنما يستقيم ذلك حسب ما نعلم لا لأن العمل هو الرافع للكلم، وأنه يزيد في رفع من تكلم به ويحسن موقعه، إذا تعاضد الكلم الطيب والعمل الصالح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يعمل بما يقول من النصيحة فإن ذلك يرفع صاحبه وفاعله أعلى الدرجات، والرفع يعود على الله عز وجل، أي أن العمل الصالح يرفعه الله على الكلم الطيب، لأن العمل تحقيق الكلم، والعامل أكثر تعبا من القائل، وهذا هو حقيقة الكلام، لأن الله هو الرافع الخافض، فيرفع الكلم الطيب لأنه صادر عن الطيبين والطيبات حيث قال الله تعالى: {الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }[٤٠٩]، وكذلك الطيبات من النساء يكن للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال يكونون للطيبات من النساء، وهؤلاء الطيبون مبرَّؤون من التهم التي يصفهم بها الخبيثون، وطيب الكلام يرفعهم إلى الدرجات العلا والمكانة السامية والمنزلة الرفيعة التي رفعهم الله تعالى إليها . قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}[٤١٠] فمن كان يريد الشرف والرفعة فليطلبها بطاعة الله، فإن له القوة والرفعة كلها، وإليه يعلو الكلم الطيب، ويرفع الله العمل الصالح فيقبله قبول رضا؛ لأن له عزة الدنيا

---

[٤٠٨] نوح ٢٦

[٤٠٩] النور ٢٦

[٤١٠] فاطر ١٠

وعزة الآخرة، ولا يملك غيره شيئا منها، فمن أرادها فليطلبها من عنده تعالى بطاعته وتقواه لا من عند غيره، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ}[٤١١] فما لله تعالى من العزة هي بالذات وما للرسول صلى الله عليه وسلم من العزة هي بواسطة الرسالة والاصطفاء الذي قربه من الله تعالى، وما للمؤمنين من العزة بواسطة اتباعهم وتسليمهم بما آتاهم به الرسول عليه الصلاة والسلام، فالله الرافع رفع نبيه صلى الله عليه وسلم بعزته، والنبي صلى الله عليه وسلم رفع المؤمنين بما أعزه الله به. فالعمل الصالح له الحياة الطيبة وهي تعجيل البشرى في الحياة الدنيا كما قال تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٤١٢]، فالبشرى لا تكون إلا بالخير، والخير لا يكون إلا عزة ورفعة بما وعدَهم اللهُ من نصرٍ وعز في الحياة الدنيا، وفي الآخرة بتحقيق وعده بعظيم الجزاء من الرفعة، ولذا فإن وعد الله حق وكلامه صدق لا تبديل فيه، قال تعالى: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٤١٣] وإن كان لعمل العبد تبديل، فيبدل الله سيئاته حسنات، وكذلك للعمل الصالح شكر من الرافع الذي يرفع الدرجات، لأنه الغفور الشكور فسعي العبد مقبول وكلامه مسموع ولو لم يكن في العمل الصالح إلا إلحاق عامله بالصالحين وإطلاق هذا الاسم عليه لكان كافياً، وقد زكاهم الله تعالى بالصلاح حيث قال في حق إبراهيم: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ}[٤١٤]، وكذلك في جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ}[٤١٥] والصلاح من أعظم النعم التي أسبغها الله على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، فهي رفعة وعظمة، وذلك أن الصلاح مطلب الأنبياء عليهم الصلاة السلام ومبتغاهم، وهم أرفع الخلق من عباد الله، والصلاح أرفع صفة لهم

---

[٤١١] الافقون ٨

[٤١٢] يونس ٦٤

[٤١٣] ق ٢٩

[٤١٤] البقرة ١٣٠

[٤١٥] الأنعام ٨٥

فإن الله أخبرنا عنهم: أنهم مع كونهم رسلاً وأنبياء، سألوا الله أن يدخلهم برحمته في عباده الصالحين، وذكر في أولي العزم من رسله أنهم من الصالحين في معرض الثناء عليهم، فالصلاح يكون أخص وصف للرسل والأنبياء عليهم الصلاة السلام، وهم بلا خلاف أرفع الناس منزلة وإن فضّل بعضهم على بعض درجات، ومن نال الصلاح من عباد الله فقد نال ما دونه من خير بالضرورة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس"[٤١٦]. ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لما قضى صلاته أقبل إلى الناس بوجهه فقال يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز وجل عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله فجاء رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله ناس من الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم من الله انعتهم لنا يعني صفهم لنا فسر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لسؤال الأعرابي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا يضع الله لهم يوم القيامة منابرا من نور فيجلسهم عليها فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"[٤١٧]. فهؤلاء الذين هم على رفعة من الله تعالى بطيب كلامهم وصالح أعمالهم لا يحزنهم الفزع الأكبر، ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون، ولذا فمن شرط الصلاح استصحاب العصمة في الحال والقول والعمل ولا يكون هذا إلا لأهل الصلاح والذين كتبهم الله من الصالحين ورفع درجاتهم مع الأنبياء والصديقين والشهداء، فيحكّمون نفوسهم

---

[٤١٦] سنن أبي داود ٩،٤٠٤

[٤١٧] مسند أحمد ٤٦، ٣٨٢

ويمشون بها مشي ربهم من حيث هو على صراط مستقيم حيث قال تعالى: {إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٤١٨] فمن حياتهم الطيبة في الدنيا أنهم وإن دعوا الخلق إلى الله، فإنهم يدعونهم بلسان غيرهم ويشهدون من سمع دعوتهم من المدعوين وإن ترد دعوتهم فلا يألمون لذلك الرد بل يتنعمون بالقبول نعيمهم بالرد، لا يختلف عليهم الحال وسبب ذلك أنهم مترفعون عن الذنوب والخطايا وهم في حياة طيبة، وهذا أكبر نعيم أهل الله، ولا تكون هذه الحياة الطيبة إلا أن تكون مصحوبة بالعمل الصالح، وما ينالها إلا الصالحون من عباد الله وإن ظهر منهم ما توجبه الأمور المؤلمة في العادة وظهر عليهم آثار الآلام فالنفوس منهم في الحياة طيبة، وآلامهم حسيّة لا نفسيّة، فالذي يراهم يحملهم في ذلك على حاله الذي يجده من نفسه لو قام به ذلك البلاء وهو في نفسه غير ذلك فالصورة صورة البلاء والمعنى معنى العافية والإنعام، وما يعقلها إلا العالمون فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: {الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ}[٤١٩] أي لهم العافية في الدنيا وحسن مآب في الآخرة، فهم جمعوا بين الإيمان بالقلب والعمل الصالح بالجوارح، وهذا جزاء العمل الصالح ومكانته عند الرافع جل جلاله الذي جعل كل إنسان في المنزلة التي يستحقها بعمله ونيته، فالله تعالى رفع بعضهم فوق بعض درجات، ونحن نعلم رفعة الدرجات في الأسماء بعضها فوق بعض كانت ما كانت ليتخذ بعضهم بعضا بحسب مرتبته، وما يقتضيه الرفع والميزان الذي به يخفض الله ويرفع الأعمال، قال: إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فإن الكلمة إذا خرجت تجسدت في صورة ما هي عليه من طيب وخبيث، فالخبيث يبقى فيما تجسد فيه ما له من صعود، والطيب من الكلم إذا ظهرت صورته وتشكلت فإن كانت الكلمة الطيبة تقتضي عملاً، وعمل صاحبها ذلك العمل، قدَّر الله لهذه الكلمة رفعة ومنزلة عالية، فيصعد به هذا العمل إلى الله صعود رفعة يتميز بها، والكلم الطيب يرجع إلى العلم من جانب معنوي مثل الكلمة الطيبة التي تكون بمثابة الصدقة، فهذا الكلم هو الذي يصعد ويقع موقع

---

[٤١٨] هود ٥٦

[٤١٩] الرعد ٢٩

الرفعة والمنزلة العالية، والعمل إنما هو مثل الوعاء للكلم الطيب يحمله ويرفعه. فرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه ثلاث مرات ثم قال: "اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة"[٤٢٠].

إن كل شيء بالنسبة للإنسان الخليفة من حيث ارتفاع الدرجة والرقي منوط بالعمل، وكل ما له علاقة بالتسامي منوط بالأخلاق، لذلك وجب على الإنسان الخليفة أن يسمو إلى الدرجة التي أرادها الله له فلا يغفل، وأن يرتفع إليها بالقدرات والإمكانيات التي تؤهله لأن يكون خليفة وفق المشيئة الإلهية كما أرادها الله جل جلاله، فالله سبحانه وتعالى هو العاطي والرافع والخافض وهو على كل شيء قدير، فقد أعطى الخليفة الأسباب، وبين له الطرق والسبل الواجبة الاتباع وكذلك المنهي عنها والمطلوب تجنبها، ووضح له الخير والشر، وجعل الميزان بيده يخفض ويرفع بما كسبه كل إنسان، وبهذا يمتاز الخليفة عن غيره باتباعه سبل الرشاد فترتفع به الدرجات حيث قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٤٢١] فهو الذي جعلكم خلفاء للأمم السابقة فى عمارة الكون، ورفع بعضكم فوق بعض درجات فى الكمال المادي والمعنوي لأخذكم فى أسبابه، ليختبركم فيما أعطاكم من النعم كيف تشكرونه عليها، وفيما آتاكم من الشرائع كيف تعملون بها حتى تهتدون، إن ربك سريع العقاب للمخالفين، لأن عقابه آت لا ريب فيه، وكل آت قريب، وإنه لعظيم المغفرة لمخالفات التائبين المحسنين، وواسع الرحمة بهم.

وأما كون ابن آدم خليفة فإنه "جعل كل واحد من بني آدم، آدم وقته وخليفة ربه في الأرض، وسر الخلافة أنه صوره على صورة صفات نفسه حيا قيوما سميعا بصيرا عالما قادرا متكلما مريدا"[٤٢٢].

---

[٤٢٠] صحيح مسلم، ج ٥ ، ص ١٩٧

[٤٢١] الأنعام ١٦٥

[٤٢٢] تفسير حقي، ج ٤ ، ص ٩٦

وأما من جانب آخر فإنه يفهم من سياق الآية أن الله تعالى هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، فإن الله أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية واستخلفكم فجعلكم خلائف منهم في الأرض تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم، ثم رفع بعضكم على بعض في أنه تعالى خالف بين أحوال عباده فجعل بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والشرف والعقل والقوة والفضل، فجعل منهم الحسن والقبيح، والغني والفقير، والشريف والوضيع، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، وهذا التفاوت بين الخلق في الدرجات ليس لأجل العجز أو الجهل أو البخل فإن الله سبحانه وتعالى منزه عن صفاته النقص وإنما هو لأجل الابتلاء والامتحان، لكي يعاملكم معاملة المبتلي والمختبر وهو أعلم بأحوال عباده، ليبتلي الغني بغناه والفقير بفقره والشريف بشرفه والوضيع بدناءته، ولهذا لا ملجأ منه إلا إليه سبحانه جل جلاله، وهكذا غيرهم من جميع أصناف خلقه ليظهر منهم ما يكون عليه الثواب والعقاب، لأن العبد إما أن يكون مقصراً فيما كلف به وإما أن يكون موفياً ما أمره به. وهذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل، فإنه تعالى متعال عن هذه، فالله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم.

ومن الرفع أيضا، ما كان بفعل المخلوقين بأمر الخالق، فيوسف عليه الصلاة والسلام الذي كان أبوه يؤثره على إخوته محبة ورفعة وحنانا، إنما كان ذلك بأمر الله تعالى وإيذانا من الله جل جلاله منذ أن كان طفلا حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}[٤٢٣] فإن كان المراد بالسجود تواضعهم له ودخولهم تحت أمره، أو المراد به حقيقة السجود، وأياً كان يعني هذا السجود، فإنما هو رفعة ليوسف عليه الصلاة والسلام على غيره، وخاصة أن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي رؤيا صادقة، فقد رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له فكان ذلك أباه وأمه وإخوته، فوقع حقا ما كان إدراكه رؤيا في صورة كوكبية، فلما دخلوا عليه خرّوا له سجدا فقال يوسف عليه الصلاة والسلام لأبيه هذا تأويل رؤياي من قبل جعلها ربي حقيقة واقعة في الحس، وقد كانت حقيقة في الخيال في موطن الرؤيا حيث قال تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى

---

[٤٢٣] يوسف ٤

الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[٤٢٤] فعندما جاء يعقوب عليه الصلاة والسلام إلى مصر وبلغوا دار يوسف عليه الصلاة والسلام فدخلوها وصدَّر يوسف أبويه، فأجلسهما على سرير، وغمر يعقوب وأهله شعور بجليل ما هيأ اللَّه لهم على يدي يوسف من رفعة المنزلة وعلو المكانة، إذ جمع به شمل الأسرة بعد الشتات ونقلها إلى مكان عظيم من العزة والتكريم، فحيَّوه تحية مألوفة تعارف الناس عليها فى القديم للرؤساء والحاكمين، وأظهروا الخضوع لحكمه، فأثار ذلك فى نفس يوسف ذكرى حلمه وهو صغير، فقال لأبيه: هذا تفسير ما قصصت عليك من قبل من رؤيا، حين رأيت فى المنام أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لي ساجدين، قد حققه ربى، فقد أكرمه الله تعالى وأحسن إليه فقد رفعه بأن جعله نبيا ومن أصحاب الملك والسلطان، وأظهر براءته برفع التهمة عنه مما اتهم به، ورفعه من السجن إلى قصر الملك وكرسي الحكم فقد قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[٤٢٥] وذلك لأنه علم فى الرؤيا التي رآها الملك أن الناس يصيبهم القحط فخاف عليهم القحط والتلف فأحب أن تكون يداه على الخزائن ليعينهم وقت الحاجة شفقة على عباد الله وهذا من أخلاق الخليفة الذي رفعه الله في المكانة والعلم والجاه، وبالتالي فإنه لعلمه أنه خليفة الله في أرضه فقد قام بما يجب أن يقوم به من حق الخلافة، في نشر العدل والحفاظ على أرواح الناس وحياتهم والخوف عليهم من الشدائد والنوازل التي تصيب الخلق، ففي هذه المواقف يتجلى دور الخليفة بأبهى صوره بالقيام بما أمر الله تعالى به من إسعاد العباد وإعمار البلاد.

---

[٤٢٤] يوسف ١٠٠

[٤٢٥] يوسف ٥٥ ، ٥٦

اللهم يا الرافع ارفعنا محبة في رضاك واجعلنا في عليين ولا تجعلنا مظلومين، ولا مهمومين ولا محسودين، ولا تجعلنا في أسفل سافلين، اللهم يا الرافع ارفع أعمالنا في موازين رضاك، ولا تخفضها في موازين غضبك، اللهم إنك رفعت السماوات العلا بدون عمد نراها فارفع عنا ذنوبنا وخطايانا وارفع عنا المظالم حتى لا نراها ولا بها نُدان، اللهم إنك جعلت الحق رافعا للظلم فاجعلنا في رفعة الحق نُزهِق الباطل، اللهم أرفع عنا الابتلاء واجعلنا في الرضا يا باسط الأرض ورافع السماوات العلا، اللهم أرفع الضيم عن المضومين والسجن عن المسجونين، واجعلنا من الطائعين التائبين المستغفرين، اللهم يا الرافع ارفعنا قدرة وقوة ولا تجعلنا من المستضعفين ولا المفسدين واجعلنا من المصلحين فيها ولا تجعلنا من سافكي الدماء بغير حق، اللهم ارفعنا بالعلم والحكمة في الدارين واجعلنا فيهما من الوارثين ولا تجعلنا من المحرومين إننا نؤمن بك ونتقيك سبحانك جل جلالك.

اللهم يا الرافع أرفع الهم والظلم والبغي ارفع عن عبادك المسلمين كل كرب وغم، اللهم ارفع راية أمتنا عالية وارفع فينا الهمة والنخوة، اللهم يا الرافع آتنا علما وارفعنا به درجات إنك سميع قريب مجيب الدعوات، اللهم اجعلنا من أولئك الذين رفعتهم بالإيمان فتكون لهم الرفعة في الدنيا والآخرة.

اللهم إننا ندعوك باسمك الرافع أن ترفع همتنا فنكون من خلفائك الرافعين لكتابك الكريم وسيرة رسولك محمد – صلى الله عليه وسلم – وأن نكون رافعين للجهل عن العقول والغم عن القلوب والضيق عن الأنفس والظلم عن العباد.

اللهم ارفع مقتك وغضبك وسخطك عنا برضاك وطاعتك، وارفع عنا الجهل بالعلم، وارفع عنا المرض بالعافية، وارفع عنا الكفر بالإيمان، فنكون بذلك من المترفعين عن كل ما يغضبك، ويرفع عنا رضاك.

المُعز

المعز جل جلاله كما ورد في لسان العرب المحيط هو: "الذي يهبُ العزة لِمن يشاء من عباده. والعِزّ ُ: خلاف الذل. والعزُّ في الأصل القوة والشدة والغلبة والرفعة والامتناع"[٤٢٦].

والمُعِزُّ: هو: مالك القوة المطلقة، والساند والداعم بها لكل ضعيف. فهو الغالب الذي لا يُغلب، والقاهر الذي لا يُقهر. وهو الذي أنزل الحقّ ساندا للحقِّ. أي أنه أظهر الحُجَّة الساندة للمتحاجين، وذلك إظهار للحق وإزهاقا للباطل. فأظهر البيِّنة دليل إثبات وشهادة حق ليكون الخليفة على الإيمان شاهدا، ولله موحِّدا، وعلى الرَّسول مصلِّيا ومسلِّما.

وقال ابن القيم في نونيته:

وهو المُعز لأهل طاعته وذا   عز حقيقي بلا بطلان[٤٢٧].

ويقول مشرف الحمداني الغامدي بالتمام كما جاء في لسان العرب: "العز خلاف الذل ويقال عزه على أمر يعزه إذا غلبه عليه والعزة القوة والغلبة"[٤٢٨].

---

[٤٢٦] لسان العرب المحيط. مصدر سابق، ص ٧٦٤.

[٤٢٧] شرح أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الواردة في الكتب الستة. حفصة بنت عبد العزيز، الرياض، دار القاسم، ص ٢٣٦.

[٤٢٨] منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص ٤٢٩.

وقال البيهقي: "المعز هو الميسر لأسباب المنعة"[٤٢٩].

المُعِزّ هو المُحب، والمعزة لا تبنى إلا على علاقة متصلة ورضا ومحبة.

وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يُحبُّهم ويُحبُّونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائمٍ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}[٤٣٠]. فالذي يجعل الخلفاء لا لا يخافون لومة لائم هو مصدر العزة الذي يسندهم ويحمي ظهورهم فيُحفِّزهم على الإقدام دون تردد من أجل قول الحق وفعل الحق وعمل الحق.

ولذا فالمُعِزُّ هو مصدر العز الذي منه العزة تُستمد، وهو الذي يعِزُّ جُند الحق بالآتي:

أولا . عزة النية: النية تكمن في الضمير، مثلما تكمن الفكرة في العقل، ومثلما تكمن النبتة والشجرة في البذرة والنواة، ومثلما يكمن صفاء الزيت في نقاء حبَّةُ الزيتون، كذلك تكمن العزة في صفاء النية.

ولذا فبالنية تُعزَّز الأقوال والأعمال والأفعال والسلوكيات، فلا قول بدون فكرة سابقة عليه، ولا عمل إلا ومن ورائه غاية، ولا فعل إلا والتصميم دافعه، ولا سلوك إلا بقوة الحركة.

ولهذا تؤسس العبادات جميعها على النية، أي أن النية هي المعززة للصوم فبدونها يصبح الصوم امتناع عن الأكل أو إضراب عنه، وبدونها تصبح فريضة الحج حركة جماعية أو تظاهرة بشرية استعراضية ليس إلا. وبدون النية قد توصف الصلاة بأنها حركة أو مران رياضي أو ما شابه ذلك، وأيضا قد توصف الزكاة بدون نية بأنها صدقة أو تبرعات مادية.

وعليه فإن النية هي المعززة للقول الهادف والفعل الهادف والعمل والسلوك الهادفين؛ ولتبيان ذلك علينا باستعراضها وفقا لدائرة المُمكن (المتوقع وغير المتوقع) حتى نستبين الحق من الباطل:

---

[٤٢٩] المرجع السابق، ص ٤٣٠.

[٤٣٠] المائدة، ٥٤.

ثانيا . عزة القول: القول في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يُمكِن أن يكون حُجَّة لنا ويُمكن أن يكون حُجَّة علينا، فعندما يكون حُجَّة لنا يُعزز مواقفنا بدون تردد، وعندما يكون حُجَّة علينا يُضعفها ويعزز مواقف آخرين.

ولذا فالخليفة دائما تكون الحُجَّة له ولا تكون عليه، وذلك لأنه لا يقول إلا الحق وليس له نية وغاية غير إحقاقه. فعزة القول لا تتحقق إلا بالبيِّنة التي تُظهر الحق وتُزهق الباطل، ولذلك لا إظهار للحق ولا إزهاق للباطل إلا بالقوَّة الظاهرة في القول بالبينة.

ثالثا . عزة الفعل: لا يُمكن أن يكون للفعل عزة تسنده إن لم تكن من ورائه نية. ولا يمكن أن يكون للنية قوة إن لم يكن من ورائها حق يسندها مصداقا لقوله تعالى: {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق}[٤٣١]. وقوله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}[٤٣٢]. وعليه لا عزة للفعل إلا بتحقيقه.

قال تعالى: {وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل}[٤٣٣]. بالحكم بين الناس تترسخ العزة بين الحُكم والأطراف المتعددة التي يكون فيها للظالم أو المفسد دورا، وللمظلوم أو المصلح دورا، وللحاكم بينهم بالعدل دورا وفقا للآتي:

١ . بالنسبة للظالم أو المفسد: يتعزَّز موقفه بالتخلي عن مظالمه أو إفساده في الأرض بعد أن يتبين من الحاكم العادل أنه على باطل وأن الباطل لا يُرضي الخالق ولا المخلوق، وأنَّ من يَقترِف ظلما أو فسادا في الأرض فسينل العقاب في الدارين. وأن من يستغفر ربَّهُ ويُكفَّرَ عن أخطائه ومظالمه وسيئاته التي كان يقترفها فإن رحمة الله عزَّ وجل واسعة وأبوابها مفتوحة أمام من يستغفر ويتوب ولا يُشرك بعبادة ربِّه أحدا.

٢ . بالنسبة للمظلوم أو المُصلح: تتعزَّز مواقفه بإعادة الحق إليه، أو بتبيين الحاكم أنه على الحق وأن الآخر الذي اتهمه أو خالفه هو على باطل مما يجعل رأي الحاكم مناصرا

---

[٤٣١] الأنبياء، ١٨.

[٤٣٢] ياسين، ٨٢.

[٤٣٣] النساء، ٥٨.

ومنصفا للحق الذي به آمن الخليفة؛ وهذا الإنصاف يجعل المُصلح يزداد تمسكا بأفعال الخير التي لا تتحقق إلا بالبيِّنة والنية الصادقة. قال تعالى: {ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربَّنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربَّكم حقا قالوا نعم فأذَّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين}[٤٣٤].

٣ . بالنسبة للحاكم بالعدل: يتعزَّز موقفه بإرضاء ضميره، وإرضاء المحكوم بينهم بالحق، مصداقا لقوله تعالى: {وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}[٤٣٥]. وفي ذلك يقول الدكتور محمد راتب النابلسي: "الله معزّ إذا طبقت شرعه، ومعزّ إذا استغنيت به عمن سواه"[٤٣٦].

٤ . بالنسبة للحُكمِ: الحُكم العادل يُسند بالحاكم والمحكوم بينهم بالعدل وبإظهاره وانتشاره بين الناس حقيقة ماثلة من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات يتم حمْلُها.

رابعا . عزة العمل: العمل في دائرة الممكن يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا، فإن كان إصلاحا في الأرض كان موجبا، وإن كان إفسادا فيها، كان سالبا، وبذلك يكون الجزاء هو المترتب على الفعل بالثواب إيجابيا وبالعقاب سلبيا. وفي ذلك يقول الله تعالى: {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربُّك بظلام للعبيد}[٤٣٧]. ويقول تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكِّنَنَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليُبدِّلنهم من بعد خوفهم أمنا يَعبُدُنني لا يُشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}[٤٣٨].

وعليه عزة العمل تتحقق من خلال الآتي:

١ . ممارسة الحقوق:

---

[٤٣٤] الأعراف، ٤٤.

[٤٣٥] البقرة، ٢١٣.

[٤٣٦] محمد راتب النابلسي، موسوعة أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص ٣٢٩.

[٤٣٧] فصلت، ٤٦.

[٤٣٨] النور، ٥٥.

قال تعالى: {ولا تنس نصيبك من الدنيا}[439] وقوله تعالى: {وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص}[440]. وقال تعالى: {ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدين والأقربون والذين عقدت إيمانكم فأتوهم نصيبهم إنَّ الله كان على كل شيء شهيدا}[441].

الحقوق تؤخذ بإرادة أو تنتزع بالقوة، ولأنها تؤخذ، فهذا يعني أن الحواس هي التي يتم بها التعرف على الحقوق، ويتم بها أيضا إشباعها، ولذلك تؤخذ الحقوق عن طريق الحواس، فعندما تكون المشاهدة حقا فلا ينبغي لأحدٍ أن يحرم آخرا منها، وإذا كانت الملاحظة حقا فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخرا منها، وهكذا عندما يكون الاستماع والذوق واللمس والتفكير والتعليم والعمل حقوقا فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخر منها، ولأنها حقوق ينبغي أن تُمارس بإرادة. وهكذا فالحقوق تُسلّم فتُستلم عندما تكون في متناول الاثنين أو الأكثر.

والنظام الديمقراطي هو النظام الذي لا تقع فيه الحقوق في خانة المطالب، فإذا كانت في خانة المطالب فإن ذلك يعني أن هناك قيوداً تحول بين الطالب والمطلب (بين الحاجة ومشبعاتها).

ولذا فالحقوق ينبغي ألا تكون مطالبا، بل ينبغي أن تكون إشباعات تؤخذ بإرادة وفقا للحاجة، فالسلطة حق والثروة حق لا ينبغي أن تُحتكر من أحد، ولا ينبغي أن تكون مِنَّة من أحد.

ولا يمكن أن تؤخذ الحقوق أو تمارس ما لم تتوفر اشتراطاتها الرئيسة وهي:

أ ـ الرغبة: القوة العقلية الموجهة لهدفٍ محدد أو موضوع بعينه، وإحساس نفسي تجاه الآخر وشعور بالميل إليه، وهذا ما يجعل روح التجاذب تُحرّض على المتابعة والاقتراب ممن تتوفر فيه اشتراطات الإشباع المُرضي.

---

[439] القصص، ٧٧.

[440] هود، ١٠٩.

[441] النساء، ٣٣.

ب . الإرادة: تُعد الإرادة نشاطا عقليا على درجة عالية من الوعي يتمكن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحرية ويتمكن من خلالها من الإقدام على الفعل وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة على الفعل والسلوك.

ج . الطلب: نظرا للإحساس بالحاجة والتعرف على بواعث إشباعاتها تصبح المطالبة بالمُشبِع كحق لا يمكن التخلي عنه ولا يهدأ البال ولا تطمئن النفس إلا بأخذ ما يشبع ويحقق الرضا.

الحقوق كما ورد في لسان العرب المحيط هي "جمع حق وهي نقيض الباطل". والحق كأحد أضلاع المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقوق والواجبات والمسؤوليات) يرتبط بعلاقات مع أي ضلع يشترك معه في الزاوية، ولذلك عندما يشترك مع الضلع (أ ج) في الزاوية (ب أ ج) تصبح هذه الزاوية مكوّنا علائقيا بين ضلعي الحقوق والواجبات، وهذا الالتقاء بين الضلعين يجعل في الحق واجبا مصداقا لقوله تعالى: {ولكن حقت كلمت العذاب على الكافرين} فحقت هنا بمعنى وجبت كلمة العذاب على الكافرين، وهذا يعني أن كلمة (وجبت) تعني في مضمونها كلمة حقّتْ. وكذلك في لسان العرب: "حقّ يحق حقاً تعني وجب يجب وجوباً". وهذا الأمر يؤكد وضوح العلاقة بين الحقوق والواجبات من خلال الزاوية (ب أج) المحصورة بين ضلعيهما وفي ذات الوقت يبين الخصوصية لكل منهما عندما يخضع كل ضلع للدراسة المتخصصة.

٢ . أداء الواجبات:

وبما أن الحقوق تؤخذ وتُستلم فإن الواجبات تؤدى في مقابل الاستلام والأخذ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب، أما اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع على أخذ الحقوق فقط فإن ذلك يجعل المستلم طرفا سالبا، والذي يغيره إلى حالة الإيجاب هو أداؤه الواجبات، ولهذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما أخذت، وهذا لا يعني أن الحقوق والواجبات هما كفتا الميزان في مكوّن ممارسة الديمقراطية، بل هناك شيء آخر من مكوناتها ألا وهو المسؤولية، التي تتضح في

الزاوية أ ج ب عند تلاقي ضلع الواجبات أ ب مع ضلع المسؤوليات ب ج في المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقوق والواجبات والمسؤوليات) وهذا التلاقي العلائقي هو الذي جعل في أداء الواجب مسؤولية، ولذلك ورد في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه " لا واجب إلا بالإضافة إلى التزام ومسؤولية". ولذا لا يمكن أن يؤدى الواجب بنجاح إلا وتحمُّل المسؤولية جزء من أدائه، وهكذا حال المسؤولية هي الأخرى لا تؤدى بنجاح إلا والواجب يصاحبها، وهذه نتاج التداخل العلائقي الذي يُعبر عنه بدقة في العلوم الهندسية مما جعل لزوايا المثلث قيّم يستدل بها أو يستدل عليها.

والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود الأنا أو الذات والآخر اللذين عندما يلتقيان لابد أن يحدث الحوار بينهما مما يؤدي إلى القبول والتقارب والتفاعل أو يؤدي إلى الرفض والابتعاد والفرقة أو الانسحاب، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع، وعندما تتكوّن العلاقات يترتب على ذلك بالضرورة أخذُ كما هو مبين في الحقوق، وعطاء كما هو الحال في الواجبات، وهذا يعني أن العلاقة بين المسؤوليات والحقوق والواجبات هي علاقة قرار وأخذ وعطاء، أي في اتخاذ القرار مسؤولية وفي الأخذ حقوق، وفي العطاء واجبات، وعليه لا يمكن أن يتمّ الأخذ والعطاء عن وعي إلا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما، ولو أخذنا وليّ الأمر على سبيل المثال: نجد أنه مسؤول عن أفراد أسرته وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤديها تجاههم، وما يعد واجبات على وليّ الأمر تجاه الأسرة يُعد حقوقا بالنسبة لهم، وهكذا في حالة التبادل يظل لوّلي الأمر حقوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها وفي ذات الوقت تعد واجباً على أفراد الأسرة أداؤها، ولذلك فالحقوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتمم بعضها بعضاً كما تتمم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع بعضها بعضاً.

ولكي تؤدى الواجبات بإرادة ينبغي أن تتوفر اشتراطاتها وهي:

أ . الاعتراف: يدل الاعتراف على تفهُّم الموضوع والتعرُّف من خلاله على ما يجب وما لا يجب، ثم التمسك بما يجب والامتناع عما لا يجب، ولذا فالاعتراف بالواجبات عن وعي يؤدي إلى التمسُّك بها عن إرادة.

ب . القدرة: إن امتلاك المقدرة العقلية والمعرفية والاعتراف بوجوبية الأداء قد لا يفيد دائما ما لم تتوفر إلى جانبها المقدرة البدنية والمقدرة المادية الداعمة للتنفيذ، ولذا فالقدرة طاقة كامنة تتحفز للظهور بعد تهيؤ.

جـ . الإقدام: يعد الإقدام مرحلة ما بعد التهيؤ حيث الإقبال على أداء السلوك المحقق للفعل، ولا يمكن أن يتم الفعل الإقبالي المؤدي للواجبات إلا برغبة وإرادة.

٣ . حمْل المسؤوليات:

قال تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وافوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولا وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ولا تقف ما ليس لك به علم إنَّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا}[٤٤٢]. وقال تعالى: {لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربِّك وعدا مسؤولا}[٤٤٣]. وقال تعالى: {وقفوهم إنهم مسئولون}[٤٤٤].

من خلال ما عرضناه من ممارسة للحقوق وأداء للواجبات نلحظ علاقة قوية وتداخلا معرفيا في العلاقة بين الحقوق والواجبات والمسؤوليات، المتعلقة بتحقيق الذات المتوازنة، وعرفنا أن الحقوق يترتب عليها مطلب أو أخذ، وعرفنا أن الواجبات يترتب عليها أداء أو عطاء، وهذه تستوجب حماية أو حراسة تكون لها سنداً يبعد عنها المخاطر، وإن لم يتوفر ذلك تصبح الحقوق والواجبات كما يقولون في مهب الريح، ولذا تصبح المسؤولية هي الضرورة التي تحقق الحماية أو الحراسة، فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع لو لم يكن

---

[٤٤٢] الإسراء، ٣٤ . ٣٦.

[٤٤٣] الفرقان، ١٦.

[٤٤٤] الصافات، ٢٤.

مسؤولا لا يمكن أن يؤتمن جانبه، وهكذا حال الطبيب إن لم يكن مسؤولا، لا يمكن أن يؤدي واجبه بأمانة، فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدى بأمانة، وهكذا حال الحقوق إذا لم تؤخذ بمسؤولية لا يمكن أن تؤخذ بأمانة.

ولذا تكمن المسؤولية في تَحمُّل المخاطر أو المتاعب المترتبة على أداء الفعل سواء كان حقا أو واجبا، ولهذا فهي عبء يستوجب التَّحمُل، ولأنها كذلك فهي عملية عقلية تُبنى على معطيات أو مسلمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب وبين الحلال والحرام وبين القوة والإرادة، ثم أخذ القرار، وتحمّل الأعباء المترتبة على ذلك.

إن تحمُّل المسؤولية يتطلب مبررات موضوعية لممارستها بإرادة وهذه المبررات هي:

أ . الصلاحيات: إنَّ الحديث عن المسؤولية الذاتية من الناحية الفكرية، ومن الناحية العملية أو التنفيذية يتطلب صلاحيات لكي يتمكّن الفاعل من القيام بتنفيذ الفعل، ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولا، وعليه من يريد أن يكون مسؤولا يجب أن يكون واعيا قبل أن يفعل.

ب . الاختصاصات: هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به، فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد تُعد ذاته متزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المساءلة والمحاسبة والعقاب، حيث تعد مثل هذه الأفعال أفعال سالبة أو منحرفة. وعليه لكي تؤدى المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات.

ج . الوعي: ورد مفهوم الوعي في الموسوعة الفلسفية العربية بأنه وظيفة الجهاز العصبي للإنسان، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل، ويدل على إيجاد علاقة بين الذات والموضوع، وبالوعي يتمكّن الإنسان من التبيُّن والمعرفة، كما أنه يتمكّن من التمييز بين الأفعال الموجبة والأفعال السالبة والتمييز بين كل مُفضَّل ومرغوب وبين ما هو غير ذلك ومرفوض، ولذا فإن الوعي ذو صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تُمكِّن الإنسان من التفهُّم والاستيعاب،

كما أنها تمكّنه من التقويم الموضوعي الذي يجعل من الذات مركز الاعتدال والتوازن الانفعالي والسلوكي.

د . القدرة: القدرة الذاتية هي التي تُمكِّن الإنسان من التحمّل لما يجب أن يتم تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب توفر الاستعداد للقيام بالمسؤولية في حدود المَقدِرة. والقُدرة متنوعة المستويات فهي على المستوى النفسي، والمستوى البدني، والمستوى المادي، والمعرفي.

٤ . نيل الاعتراف:

قال تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون}[٤٤٥].

وقال تعالى: {قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وأنني برئ مما تُشركون}[٤٤٦].

الاعتراف قيمة إثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكل في نيلها من الكل، فهي تربط الفرد بالمنزلة، وتربط الخصوصية بالمكانة. ومع أن العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح. ولذلك فإن جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع. ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف. ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولا من أبائهم وثانيا من الآخرين. وهكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به. وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكل قاعدة شاذ عنهاّ.

ولذا كل إنسان يسعى لنيل الاعتراف به وبأهميته وأن يعترف له بوجوده وبمقدرته على العمل والمشاركة والتفاعل والعطاء بلا حدود إلى النهاية.

---

[٤٤٥] آل عمران، ٦٤.

[٤٤٦] الأنعام، ١٩.

٥ . نيل الاعتبار:

قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفُسكم إنَّ الله كان بكم رحيما ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ولا تتمنوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما}[٤٤٧].

الاعتبار قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبر. النظر إليها لا ينبغي أن يُغضَّ بين الأنا والآخر، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفرِّق بين المرْ وزوجه. ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها، لا يُغيِّب أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات يتم تحمُّلها.

الاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عمن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية. فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفى أبدا، ولذا فهي تُقدّر. والقاعدة تقول: (إعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك).

٦ . نيل التقدير:

قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} وقال تعالى: {وإذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل} قال تعالى: {وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن أنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف}[٤٤٨].

---

[٤٤٧] النساء، ٢٩ . ٣٢.

[٤٤٨] النساء، ٦.

التقدير قيمة تقييميه، تربط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات. قيمة عليها يكون التسابق بكل قوة مع المحافظة على المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة، وبناء على النتائج المنجزة تتميز كل خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين. ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين الناس إن لم يمارسوا الحرية بأسلوب ديمقراطي.

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكلة وتحديد احتمالات اتجاهات تطوُّرها والمتغيرات المتداخلة معها، وتحديد الدور الذي ينبغي أو يؤدى حيالها وفقا لدائرة الممكن المتوقع السالب والمتوقع الموجب، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب.

التقدير مطلب يُشبع رغبة، مما يستوجب من راغبٍ في ممارسة السلطة أو امتلاك الثروة، أن يحس بتماثل حاجات الآخرين له في ممارسة هذه الحقوق وامتلاكها. ولذا عندما يصل (الأنا والآخر) إلى هذا المستوى من التقدير ينال كل منهما نصيبه بإرادة، ويتمكنان من العيش سويا في المكان والزمان الواحد، وينال كل منهما مكانة عند الآخر، مما يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض وأن كل منهما على درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها أو يَغفل عنها.

خامسا . عزة السلوك:

يتعلق أمر السلوك بالظاهر المشاهد الذي من ورائه باطن أو كامن، ولذا فإن كان في الباطن (الكامن) حُسناً يكون في الظاهر المشاهد والملاحظ حُسنا أيضاً، وإن لم يكن كذلك يكون الظاهر في دائرة القُبح بين متوقع وغير متوقع. قال تعالى: {ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مُبِينٍ إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذَّاب فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال وقال

فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربَّه إني أخاف أن يُبدلكم دينكم أو أن يُظهِرَ في الأرض الفساد}[٤٤٩].

وفيما يتعلق بعزة السلوك، "حُكيَّ عن سارق تم القبض عليه ووُضِعَ في السجن حتى أنه ذات يوم خرج من السجن ورجليه مقيدتين، وهو يسأل الناس أن يعطوه قطعة خبز، فقال له أحدهم: لو اقتنعت بقطعة الخبز لما وضع القيد في قدميك"[٤٥٠].

وقيل أيضا: "إن فتح الموصلي، كان قاعدا، فسُئل عمن يلهث وراء الشهوات كيف صفته؟. وكان بقربه صبيان، مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع الآخر خبزٍ وإدام، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه أطعمني مما معك، فقال: بشرط أن تكون كلبي، فقال صاحبه: نعم، فجعل خيطا في عنقه وأعطاه اللقمة ثم جره من عنقه كما يُجر الكلب، فقال فتح الموصلي للسائل: أما لو أنه رضي بخبزه من دون إدام ولم يطمع في إدام صديقه لم يصر كلباً له"[٤٥١].

وأخرج الطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد قال جاء جبريل عليه السلام إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: "يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزيّ به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس"[٤٥٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يَحِلُّ لمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: يا رسول الله وما إذلاله لنفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يقوم له"[٤٥٣].

ويقول الشاعر:

اجعل لربك كل عزّ ك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزَّك ميت[٤٥٤]

---

[٤٤٩] غافر، ٢٣ . ٢٦.

[٤٥٠] محمد راتب النابلسي . موسوعة أسماء الله الحسنى. الجزء الأول مصدر سابق، ص ٣٢٩.

[٤٥١] المصدر السابق، ٣٢٨.

[٤٥٢] المصدر السابق، ٣٣٠.

[٤٥٣] المصدر السابق، ص ٣٢٩.

وعليه لا تنسى نصيبك من الدنيا واعمل لآخِرتك كأنك تموت غدا، وأعلم أنه لن يُعطيك أحدا شيئا إلا وأمر الله له نافذ بإعطائك مما أعطاه الله، فاحمد الله وحده ولا تُقلِّل من شأنك فإن الله قد خلقك في أحسن تقويم، وهو يريدك خليفة له في الأرض، فلا تُصغِّر من نفسك أمام الآخرين، ولا تقلل من شأنك، ولا تطمع إلا في وجه الله تعالى. واعلم إنك لو قللت من شأنك فقد أجرمت في حق نفسك وفقدت رضا الله عليك، فاستغفر الله وتب إليه ولا تعمل إلا ما يُرضيه، فإن فعلت ما يُرضيه فُزت مرتين، مرة بالاستخلاف في الدنيا، ومرة بالاستخلاف في الآخرة والفوز بالجنة. ولذا لا تغفل، فإن الموت آتٍ وأعلم أنك لن تموت قبل اليوم الذي كُتب لك الموت فيه، وكن مستعدا للرحيل وأنت فائز برضا والديك، وأنت لم تُفسِدْ في الأرض ولم تسفك الدماء فيها بالباطل، ولم تظلم أحدا من العباد. وكن فطنا وحذرا من وسوسة الشيطان والنفس، وتذكر لعلَّ الذكرى تنفعك، {فذكر إن نفعت الذكرى}[٤٥٥]. وقوله تعالى: {وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون وما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمون إنَّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين}[٤٥٦]. وأعلم إنما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور فلا تغترَّ مصداقا لقوله تعالى: {كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}[٤٥٧]. وقوله تعالى: {فلا تغرنَّكم الحياة الدنيا ولا يغرَّنكم بالله الغرور}[٤٥٨].

قال تعالى: {يقولون لئِن رجعنا إلى المدينة لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون}[٤٥٩]. فالذين يقولون هم المنافقون ويقصدون بالأعز أنفسهم، وبالأذل يقصدون المؤمنين. وفي هذا الأمر يقول البيضاوي في تفسيره للقرآن

---

[٤٥٤] المصدر السابق، ٣٢٨.

[٤٥٥] الأعلى، ٩.

[٤٥٦] الذاريات، ٥٥ . ٥٨.

[٤٥٧] آل عمران، ١٨٥.

[٤٥٨] لقمان، ٣٣.

[٤٥٩] الافقون، ٨.

الكريم: "أخرج البخاري وغيره عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: سمعت عبد الله بن أُبي المنافق يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، فلئِن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكر ذلك عمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني الرسول صلى الله عليه وسلم فحدثته، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني وصدقه، فأصابني شيء . أي أصابني شيء من الحزن . لم يُصبني مثله من قبل، فجلست في البيت، فقال عمي: ما أردْتَ إلا أن كذبك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَقَتَكَ، فأنزل الله تعالى: (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) أي ولله الغلبة والقوة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين"[٤٦٠]. ولذا فالعزة مناصرة وقوة حق لإحقاق الحق وإزهاق الباطل. فمن يعزه الله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعزه رسول الله فقد أعزه الله تعالى وذلك لأن {من يُطع الرسول فقد أطاع الله}[٤٦١]. جاءت هذه الآية مناصرة ومعززة لِما قاله زيد بن أرقم رضي الله عنه ولذلك فمن يعزه المُعزَّ جل جلاله فقد اعتز، ومن يعزه الرسول فقد أعزه الله، ولذا فإن المؤمن المَرضيُّ عنه، ينال عزته من عزة الله تعالى له، وأيضا من عزة الرسول له صلى الله عليه وسلم. أي أن الله عز وجل يعز المؤمن مباشرة بما يعمل من أعمال الطاعة له جل جلاله، ويعزه بإيمانه بالرسول صلى الله عليه وسلم واتباع سنته الشريفة.

المُعز عزَّ وجل هو: الذي بيده المُلك، والأمر والنهي، والبداية والنهاية، والثواب والعقاب. ولأنه كذلك فهو يعزُّ من يشاء متى يشاء وكيف ما يشاء سبحانه ما أعظم شأنه إنه القوي القادر.

ولأنه المُعزَّ فهو بطبيعة الحال هو الخافض الرافع؛ الخافض للظلم والمظالم والحاجة والفاقة، والرافع بالإشباع والوفرة والمُلك والسلطان والغنى، الذي لو لم يكن غنيا ما كان باسطا للخير وما كان عليما بما جرى ويجري وسيجري، وما كان فتَّاحا ورزَّاقا ووهَّابا وقهَّارا ومصورا وبارئا

[٤٦٠] تفسير البيضاوي مصدر سابق، ص ٧٤٤.

[٤٦١] النساء، ٨٠.

وخالقا ومتكبِّرا وجبَّارا وعزيزا ومهيمنا ومؤمنا وسلاما وقدُّوسا وملكا ورحيما ورحمانا، ولذا فهو الله تعالى واحد أحد لا شريك له سبحانه جل جلاله.

فالعزة بالنسبة للمُعِزّ بالإضافة تُطلب فتؤخذ، ويُبذل الجهد في سبيلها حتى يتم التمكُّن من نيلها، وكذلك يعمل الإنسان خوفا وطمعا من أجل بلوغها. فبها تطمئن النفس وتعتز دون أن تغتر. والعزة الكُبرى هي التي تؤتى من المُعزِّ المطلق للمُعزِّ بالإضافة مصداقا لقوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي المُلك من تشاء وتنزع المُلك ممن تشاء وتُعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيءٍ قدير}[٤٦٢].

تدل هذه الآية الكريمة على الاعتراف والإيمان المطلق بأن الله وحده هو مالك الملك، مما يستوجب التوجه إليه بالدعاء والطلب دون التوجه لغيره، حتى تتم الاستجابة بان يؤتي المُلك لمن يشاء من عباده المؤمنين المتوجهين له بالدعاء والطلب البيّن دون أن يُراودهم شك في طلبهم أو في استجابة الله لهم، فتتم الاستجابة من المعزِّ تعالى لعدة اعتبارات منها:

. الاعتبار الأول الأحقية: كما هو حال الأنبياء والرسل الذين يصطفيهم المُعِزُّ تعالى اصطفاءً. {وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاع بإذن الله}[٤٦٣]. وقال تعالى: {وما أرسلنا في قرية من نبيٍ إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا}[٤٦٤]. تدل هاتان الآيتان على ثبوت عزة الله لأنبيائه ورسله حتى يُطاعوا بإذنه وتتبدل السيئة حسنة.

. الاعتبار الثاني إخلاص النية: النية هي التي يعلم أمر سرها الله تعالى وهو المتوجه إليه بالدعاء حتى نيل الاستجابة المرتبطة بصفاء النية، ولهذا فمن صدقت نيته صدقت الاستجابة معه، وما الأعمال إلا بالنيات. قال تعالى: {ربنا إنك تعلم ما نُخفي وما نُعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء}[٤٦٥].

---

[٤٦٢] آل عمران، ٢٦.

[٤٦٣] النساء، ٦٤.

[٤٦٤] الأعراف، ٩٤ ، ٩٤.

[٤٦٥] إبراهيم، ٣٨.

. الاعتبار الثالث صدق الدعاء: من يدع ربَّه بقلب سليم يَستجِيبَ له وهو بكل شيء عليم. قال تعالى: {ربنا إني أسكنت من ذُريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرَّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون}[٤٦٦]. وقال تعالى: {وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظنَّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظُلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كُنتُ من الظالمين}[٤٦٧].

. الاعتبار الرابع صفاء النفس: الأنفس أنواع وخيرها النفس المطمئنة التي لا تشرك بعبادة ربها أحدا. قال تعالى: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنتُ قد قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك إنك أنت علاَّم الغيوب}[٤٦٨].

. الاعتبار الخامس ساعة الاستجابة: هي الساعة التي فيها تخلص النية مع الدعاء ويتزامن فيها الدعاء مع الاستجابة قال تعالى: {وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربَّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم قال قد أُجبتَ دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون}[٤٦٩]. وقال تعالى: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها النهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم}[٤٧٠].

. الاعتبار السادس إعطاء الفرصة: من يطلب الله بقلب سليم يستجب ويعطيه الفرصة ويختبره إن كان قادرا على حمْل مسؤولية ما طلب ليعمل صالحا أم انه لن يكون قادرا وسَيُفسِدَ في الأرض، ولذا فإن الله يؤتي المُلك لِمن يشاء وينزعه ممن يشاء، أي أنه يؤتيه

---

[٤٦٦] إبراهيم، ٣٧.

[٤٦٧] الأنبياء، ٨٧.

[٤٦٨] المائدة، ١١٦.

[٤٦٩] يونس، ٨٨، ٨٩.

[٤٧٠] الحديد، ١١، ١٢.

للمصلح ويُنزعه من المُفسِد الذي أُعطيت له الفرصة ولم يغتنمها ويستثمرها الاستثمار الأمثل في العمل الأصلح. قال تعالى: {إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون}[٤٧١]. وقال تعالى: {فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يُحب المتقين}[٤٧٢]. وقوله تعالى: {إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون}[٤٧٣].

. الاعتبار السابع النصيب من الدنيا: الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم لأجل أن يكون خليفة له في الأرض وليعمل فيها صالحا، ولهذا خلق له الثمرات والخيرات الكثيرة ليعيش حياته ويأخذ نصيبه منها ولا يعتدي على نصيب الآخرين الذين لهم الحق فيها مثلما له الحق. قال تعالى: {وابتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إنَّ الله لا يُحب المفسدين}[٤٧٤].

. الاعتبار الثامن الحمد والشكر على العطاء: قال تعالى: {فإذا استويت أنت ومن معك على الفُلك فقل الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين وقل ربِّ أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المُنزلين إنَّ في ذلك لآيات وإن كنَّا لمبتلين}[٤٧٥]. وقال تعالى: {وإذ تأذنا ربَّكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد}[٤٧٦].

وباستمرارنا في تبيان أبعاد الآية السادسة والعشرين من سورة آل عمران (قل اللهم مالك الملك تؤتي المُلك من تشاء وتنزع المُلك ممن تشاء وتُعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك

---

[٤٧١] الأحقاف، ١٣، ١٤.

[٤٧٢] التوبة، ٧.

[٤٧٣] فصلت، ٣٠.

[٤٧٤] القصص، ٧٧.

[٤٧٥] المؤمنون، ٢٨ . ٣١.

[٤٧٦] إبراهيم، ٧.

الخير إنك على كل شيءٍ قدير) نلحظ أن المُلك جاء مطلقا، ولم يقتصر على مُلك بعينه، فجاء جامع لكل مُلك من نبوّه وسلطان ومال، إلى الصحة والشفاء والعافية، ومن النجاة من النار إلى الدخول في الجنة. ولهذا فالملك يدل على أي مُلك مهما عدَّدنا وسمَّينا لا نستطيع حصره.

ويؤتي المُلك تعني: يُنعِمَ الله به ويرحم من هم في أشد الحاجة إليه، ولذا فالحاجة التي بها يُنال الملك لا يُقدِّرها إلا هو عز وجل، فيؤتي ويُمنح المُلك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء. ولذا فالقاعدة هي: (يُؤتىَ المُلك لمن يشاء ويُنزع ممن يشاء).

وإعطاء المُلك ليس هو الغاية، بل الغاية تكمن من وراء إعطائه، فبالملك يُعزُّ البعض، وبه يُذل البعض. فمن يعمل صالحا يرضاه الله يعزه الله بملكه، ومن يُفسد في الأرض ويَسفِكُ الدماء فيها بغير حق يذله الله بملكه. ولهذا لا ينبغي أن يغتر من يؤتى أو يُوهب ملكا فالعزة دائما لله وحده. ولأن الأمر كذلك فإن الخليفة مهما أُوتي من ملك فهو يتقي الله ربَّه ولا يشرك بعبادته أحدا.

وقوله (بيدك الخير) تدل على أن الخير كل الخير هو من أفعال الله عز وجل، أمَّا أفعال الشر كل الشر فلا تأتي إلا من أيدي البشر المفسدين في الأرض، بأكلهم أموال الناس بالباطل وقتلهم النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وبتطفيفهم للميزان، ونقصهم للكيل إذا ما اكتالوا، وأكلهم للربا، وبكل فعل أو سلوك يقومون به أو يقدِمون عليه وهو منهي عنه أو مُحرَّما من عند الله تعالى.

وعليه، خص المعز جل جلاله الخير لأنه بيده، والخير هو الاستجابة للدعاء والرغبة والتفضيل من قبل المؤمن الداعي ربَّه خوفا وطمعا. أمَّا الشر فهو بيد الناس الذين لا يُصلِحونَ في الأرض، ولذا فالخير والحسنة من عند الله والشر والسيئة من عند الناس. قال تعالى: {ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك}[٤٧٧].

---

[٤٧٧] النساء، ٧٩.

قال تعالى: {سبحان ربِّكَ رَبِّ العزةِ عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربِّ العالمين}[٤٧٨]. في هذه الآية الكريمة تنزيه للذات الربَّانية مما يقوله الكفرة والمشركون، و(ربِّ العِزَّةِ) ربِّ المكارم والفضائل والقوة المطلقة والخير الوفير، وربها تعني مالكها والمهيمن عليها فلا تفلت منه أبدا، ولن تؤتىَ العزة أو تُمنح إلا منه، ولذلك في العزة مناصرة وعون وسند ودعم وتأييد ومغالبة فسبحان ربِّ العِزةِ عمَّا يصفون.

وعليه لم تكن العزة هدفا يُنجز، بل غاية تُبلغ بالأعمال، فالعزة متصلة بالاستخلاف في الأرض والدوام في الآخرة، ولم يكن حالها كحال الأعمال المنفصلة، فمن يُعزُّ في الدنيا يُعزُّ في الآخرة.

ولأن الله عزَّ وجل كامل الصفات والأفعال جاء قوله تعالى: (عمَّا يصفون) تنزيه له عن القصور والحاجة والصاحبة والولد، ولهذا فالعزة صفة ذات وصفة فعل.

(وسلام على المرسلين) اعتراف إيماني بجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، مصداقا لقوله تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربِّه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رُسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}[٤٧٩]. ولذا فمن وجوب الإيمان بالرُسُل أن لا نُفرق بينهم، مع علمنا التام بتفضيل الله لبعضهم على بعض من حيث الزمان والمكان والموضوع والغاية.

(والحمد لله ربِّ العالمين) شكر بعد اعتراف وتقدير للعزة والرحمة الربَّانية، التي تمتد وراء كل شيء، مما يجعل المؤمن موحدا لله تعالى، ومصليا ومسلما على أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعا الذين جاءوا بالحكمة والهداية مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخير.

ولأن العزة لا تتحقق إلا بالنية والأعمال الخيرة، لذا فالمُعزُّ يَعِزُّ الإنسان بالمعطيات الآتية:

---

[٤٧٨] الصافات، ١٨٠ . ١٨٢.

[٤٧٩] البقرة، ٢٨٥.

. العزة بالإيمان: قال تعالى: {وما كان لبشرٍ أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولا فَيُوحِيَ بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم}[٤٨٠].

. العزة بالفضل: قال تعالى: {فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين}[٤٨١]. وقال تعالى: {الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادتهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضلٍ عظيم}[٤٨٢].

. العزة بالعقل: الذي به نتذكَّر ونتفكَّر قال تعالى: {ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكَّرون}[٤٨٣]. وقال تعالى: {ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون}[٤٨٤]. وقوله تعالى: {ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون}[٤٨٥]. وقوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذَّكَّر إلا أولو الألباب}[٤٨٦].

. العزة بالنعيم: قال تعالى: {إن تُبدوا الصدقات فنِعِمَّا هي وإن تُخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويُكفِّر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير}[٤٨٧]. وقال تعالى: {الذين ينفقون

---

[٤٨٠] الشورى، ٥١، ٥٢.

[٤٨١] البقرة، ٦٤.

[٤٨٢] آل عمران، ١٧١ . ١٧٤.

[٤٨٣] القصص، ٤٣.

[٤٨٤] القصص، ٥١ .

[٤٨٥] الزمر، ٢٧.

[٤٨٦] البقرة، ٢٦٩.

[٤٨٧] البقرة، ٢٧١.

أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرُهُم عند ربِّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[488].

. العزة بالاستجابة: قال تعالى: {ونوح إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله}[489]. وقال تعالى: {فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله}[490]. وقال تعالى: {فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين}[491]وقال تعالى: {فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه}[492].

. العزة بالعمل الصالح: قال تعالى: {إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من أمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربِّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}[493].

. العزة بالاستغفار والتوبة: قال تعالى: {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله}[494]. وقال تعالى: {وما أرسلنا من رسولٍ إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما}[495]. وقال تعالى: {وما كان ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون}[496].

. العزة بالاستخلاف: قال تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض}[497]. وقال تعالى: {واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض}[498].

---

[488] البقرة، ٢٧٤.

[489] الأنبياء، ٧٦.

[490] الأنبياء، ٨٤.

[491] الأنبياء، ٨٨.

[492] الأنبياء، ٩٠.

[493] البقرة، ٦٢.

[494] آل عمران، ١٣٥.

[495] النساء، ٦٤.

[496] الأنفال، ٣٣.

[497] النور، ٥٥.

وقال تعالى: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إنَّ ربِّك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم}[٤٩٩]

العزة بالرحمة: قال تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أن يُنزل عليكم من خيرٍ من ربِّكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}[٥٠٠].

المُعِزُّ، هو الذي يعزُّ من في نفسه نية صافية وصادقة، وهو الذي يأمل النجاح في الأفعال الحسنة، ويأمل الابتعاد عن الأفعال السيئة، ولذا فمن يعز الحق يعزه المعز جل جلاله.

المُعِزُّ هو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يشاء من عباده[٥٠١]، والمعز ذو صلة بالاسم العزيز فهو مظهر من مظاهره.

والعَزِيزُ من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى وهو الممتنع فلا يغلبه شيء وهو القوي الغالب كل شيء وهو الذي ليس كمثله شيء"[٥٠٢].

والعِزُّ خلاف الذُّلِّ، والعِزُّ في الأَصل القوة والشدة والغلبة والعِزُّ والعِزَّة الرفعة والامتناع، قال تعالى: (ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين) أَي له العِزَّة والغلبة سبحانه وقال في التنزيل العزيز: (من كان يريد العِزَّةَ فللَّه العِزَّةُ جميعاً) أَي من كان يريد بعبادته غير الله فإنما له العِزَّة في الدنيا ولله العِزَّة جميعاً أَي يجمعها في الدنيا والآخرة بأَن يَنْصُر في الدنيا ويغلب[٥٠٣]. ومن هنا كان الاستخلاف للإنسان في الأرض عزة.

الخلافة عزٌّ:

قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ

---

[٤٩٨] الأعراف، ٧٤.

[٤٩٩] الأنعام، ١٦٥.

[٥٠٠] البقرة، ١٠٤، ١٠٥.

[٥٠١] لسان العرب ،ج ٥ ، ص ٣٧٤.

[٥٠٢] المرجع السابق

[٥٠٣] المرجع السابق

آَدَمَ الأسماء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأسماء هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بأسمائهم فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بأسمائهم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٥٠٤].

فالآيات البيّنات توضح نوعا من تجليات المعز لم يشر إليه الكثير، فأول مظهر من مظاهر العز الرباني لآدم كان الأمر بالخلافة ودعوة الملائكة بالسجود، وتمثل ذلك في قوله تعالى مخبرا للنبي صلى الله عيه وسلم: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فالله المعز فعله كلام وعطائه كلام ومنعه كلام فهو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو سبحانه أراد أن يعز آدم وذريته فأخرج آدم من تراب ونفخ فيه من روحه واستخلفه في الأرض وأعزه وذريته فيها ومن عز الله لآدم عليه الصلاة والسلام، قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}[٥٠٥] ويقول الله في نفس السياق: {فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[٥٠٦].

---

[٥٠٤] البقرة ٣٠ . ٣٧

[٥٠٥] الحجر،٢٨ . ٣١.

[٥٠٦] ص٧٢ . ٧٦

فقد أعز الله آدم إذ خلقه، وسواه وعدله في أحسن صورة وأكرمه، وأسجد له الملائكة، ولم يكن سجود الملائكة سجود عبادة بل سجود تحية لآدم وسجود طاعة لله رب العالمين، فكان للملائكة موقف استفسار واستبيان: (قالوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فعلم الملائكة أنهم المسبحون لله الحامدون لله المقدسون لذاته، فلم هذا المخلوق الذي أعزه الله بهذا الشرف الاستخلافي في الأرض؟ وهنا يخبرهم الله أن عزه لآدم عليه الصلاة والسلام لم يكن عز اختيار لتعمير لأرض فقط ولا عز من نوع جديد وهو عز العلم واكتشاف الأسرار ووضع الأسماء للأشياء التي لم تسمَّ، ويا سبحان الله فمن هذا النوع وهو التسمية أن الأرض لها في كل لغة من اللغات التي يتحدث بها البشر مسمى تقترب المسميات أو تبتعد في المخارج ولكن المدلول واحد، وقس على ذلك ملايين المفردات الموجودة في لغات البشر فمن سماها وأعطاها دلالتها؟ لا أحد سوى تلك القدرة الخارقة التي منحها الله لآدم في حضرة العزة التي أعزه فيها، فقال الله تعالى للملائكة: { قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ }ففضل آدم عملي خلّاق فهو الذي يغير الأشياء للأجمل إبداعا بآلة العقل التي منحت له والعلم الذي يفجره لتوظيف ما خلقته على الأرض لخدمة مهمة الخلافة، لذلك فالله قال: {وَعَلَّمَ آَدَمَ الأسماء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأسماء هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بأسمائهم فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بأسمائهم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} لذا فتفضيل آدم ليس بالخلق من الطين والسجود ولكن هناك تفضيل آخر وهو الأمانة التي حملها وهي العقل والتفكير والتحليل ووضع القواعد، أو ما يمكن أن نسميه التهيئة والإعداد المسبق لتولي الخلافة، ومن يترجم التهيئة الذاتية لأفعال من بناء وزراعة وحفر للآبار وشق للأنهار ووضع السدود ونقش العلوم في العقول والمعارف في القلوب والسمو في الأرواح فهو الذي استفاد من التهيئة الربانية لتولي الخلافة على الأرض.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا الأرض بالتحديد لاختيار آدم لمهمة الخلافة؟.

الإجابة ببساطة لأنها البيئة الملائمة لإخراج التهيئة الربانية إلى أفعال من إقامة عدل وإحقاق حق وإبطال باطل، فهذه الأشياء التي نسميها نحن في الأرض ظلم وكذب وزور وغير ذلك من سلبيات ليست موجودة في عالم الملائكة ولا في عالم الكواكب والنجوم المكتشفة، إنما هي موجودة في عالمنا ومن حوّلها إلى نقائضها فهو الذي أظهر عزَّ الله وظهر فيه عز الله، فالملائكة مجبولة على الطاعة هي وغيرها من الكائنات التي لم تستخلف، قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[٥٠٧]، (أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلى مَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ) فى الأرض، (يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ اليمين والشمائل سُجَّداً)، أي يتحول الظل عن اليمن والشمال أثناء الحركة الممتدة من الشروق إلى الغروب، فذلك قوله سبحانه: {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ}، يعنى يتحول الظل، فإذا زالت الشمس، تحول الظل عن الشمال قبل المشرق، كسجود كل شيء فى الأرض لله تعالى، ظله فى النهار ساجدا، (لِلَّهِ) دون اختيار (وَهُمْ دَاخِرُونَ) صاغرون. (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات) من الملائكة، (وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ) فالكل يسجدون لأنهم جبلوا على ذلك. {ما فى السموات} من الملائكة وغيرهم وكل شيء في السماء والأرض، ووصف الله الملائكة، فقال: (والملائكة وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) فهم لا يتكبرون عن السجود لأنهم: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوقِهِمْ) لأن الله تعالى فوق كل شيء، أي شاهدا عليهم حيث لا تخفى عنه خافية في الأرض أو السماء، (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فهم لا اختيار لهم، وهنا الفرق بين المكلف بالخلافة وغير المكلف.

ولما أقيمت الحجة في الاستخلاف كان الأمر بالسجود طاعة لله وتسليما لآدم بحقه في الخلافة لأن ذلك إعزاز من الله فسجدت الملائكة مصداقا لقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا

---

[٥٠٧] النحل ، ٤٨ . ٥٠

الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) فأطاعت الملائكة إلا واحدا ليس من الملائكة ورفض أن يعز الله آدم لذا فقد قال متكبرا: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[٥٠٨] والمعنى الذي ورد إلى الذهن من الاسم المعز هو قول إبليس: فبعزتك، أي فبعزتك له علي وتفضيله بالخلافة وأنا أفضل منه فسأغويه وأرده عن الحق إلا العباد الذين ستعزهم وتمنعهم مني، وكان دافع إبليس في رفض خلافة آدم والسجود له الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار لم يستجيبوا للنبي عليه الصلاة والسلام بسبب الحسد والكبر، والمستفاد من صراع إبليس ضد آدم البعد عن هاتين الخصلتين المذمومتين، والله تعالى حث المستخلفين المكلفين بالنظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد، فسؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر واستخلافه يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر، وإبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يبتعد عنهما.

ولما وقع آدم في المعصية التي أخرجته من الجنة ونزل بها إلى الأرض أعزه الله بالتوبة نكاية في إبليس، وكأن هذه المعصية كانت للاختبار وللتهيئة حتى يمارس آدم الاستخلاف في الأرض بدربة وتلقين وفطنة، ومن المعلوم أن آدم لم تذكر له معصية لما نزل الأرض.

وعندما انتشرت المعصية وابتعد أبناء آدم عن الوضع الطبيعي لهم في ممارسة واجبات الخلافة قال الله تعالى: {فسوف يأْتي اللهُ بقوم يحبهم ويحبونه أَذِلَّةٍ على المؤمنين أَعِزَّةٍ على الكافرين}[٥٠٩]، وهذه الآية نعلم أن لها سياق آخر وأنها أخبرت عن المرتدين، ولكن القرآن صالح لكل زمان ومكان، ولا ضير أن نوظف معانيه بما لا يتعارض مع المعنى العام له بلا شطط ولا شطح بل بوسطية وعقلانية، فهؤلاء الذين يحبهم الله في كل وقت ومن نعتهم أن

---

[٥٠٨] ص٨٢ ، ٨٣

[٥٠٩] المائدة ٥٤

جانِبَهم غليظٌ على الكافرين لَيِّنٌ على المؤمنين يَتَذَلَّلُون للمؤمنين وإِن كانوا أَعِزَّةً ويَتَعَزَّزُون على الكافرين وإِن كانوا في شَرَف الأَحْساب دونهم، وهم الذين يصلحون ولا يفسدون ويصفون الدواء للداء الذي يعطل أمر الله في الأرض، ويعزون الذليل إن كان معه الحق، ويذلون العزيز إن كان عليه الحق، ولله در أبي بكر خليفة رسول الله حين قال في هذا المعنى: بعد حمد الله والصلاة على النبي صلى لله عليه وسلم "أما بعد، أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله"فقوله رضي الله عنه: " وليتكم ولست بخيركم " من باب الهضم والتواضع، فإنهم مجمعون على أنه أفضلهم وخيرهم رضي الله عنهم"[510]، فمن يفعل ما فعله سيدنا أبو بكر فهو من خلفاء الله في الأرض الذين تخلقوا بأخلاق الاسم المعز لذا فالنصر والغلبة للأعز الذي استلهم العز من الله ولا علاقة بالغلبة والعزة بالعدد لأن الله المعز يقول: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}[511].

---

[510] السيرة النبوية لابن كثير ،ج ٤ ، ص ٤٩٣.

[511] البقرة ٢٤٩ . ٢٥٢

فقوله تعالى: (فلما فصل طالوت بالجنود) أي: خرج وشخص. وفي عدد من خرج معه ثلاثة أقوال. أحدها: سبعون ألفاً، قاله ابن عباس. والثاني: ثمانون ألفاً، قاله عكرمة والسدي. والثالث: مائة ألف، قاله مقاتل. قال: وساروا في حر شديد، فابتلاهم الله بالنهر. والابتلاء: الاختبار. ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من له نية في القتال منهم ومن ليس له نية. فقال: (ليس مني) أي ليس من أصحابي. وقوله تعالى: (إلا من اغترف غُرفةً) قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو، «غَرفة» بفتح الغين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، ولكسائي بضمها، قال الزجاج: من فتح الغين، أراد المرة الواحدة باليد، ومن ضمها، أراد ملء اليد. وزعم مقاتل أن الغرفة كان يشرب منها الرجل، ودابته، وخدمه ويملأ قربته. وقال بعض المفسرين: لم يرد به غرفة الكف، وإنما أراد المرة الواحدة بقربة أو جرة، أو ما أشبه ذلك. وقوله تعالى: (لا طاقة لنا) أي: لا قوة لنا ولا قدرة.

فالحق عزيز بعز الله ومعزته لأهله وإن كان قليل العدد كما مر بنا في القصص القرآني الذي فيه العبرة والعظة واستلهام المعاني، ولما قال المغرور بالعدد والمال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين: لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ، فأعز الله النبي والفئة المؤمنة، وهذا ما ترويه لنا كتب السيرة: "فبينما الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار.

وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبدا لله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال: أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ؟ والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: "سمن كلبك يأكلك!" أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لا ولكن أذِّن بالرحيل.

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبدا لله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفا عظيما، فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل[٥١٢].

فلما استقلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوما بلغك ما قال صاحبكم عبد الله بن أبي؟ قال: وما قال؟ قال: زعم إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل. فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي، لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فَمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج ما كان بها رجلٌ أبرَّ بوالديه مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النار.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا، قالوا: وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم

---

[٥١٢] السيرة النبوية لابن كثير ،ج ٣ ، ص ٢٩٩.

ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نيامًا. وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي[٥١٣].

ونزلت الآيات التي قال الله تعالى فيها: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[٥١٤].

فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله. فلما نزلت أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد وقال: "يا زيد إن الله صدقك وأوفى بأذنك" .

وكان عبد الله بن أُبيّ بقرب المدينة، فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله حتى أناخ على مجامع طرق المدينة، فلما جاء عبد الله بن أبي قال: [وراءك، قال:] مالك ويلك؟ قال: لا والله لا تدخلها أبدًا إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولتعلمن اليوم من الأعز من الأذل، فشكا عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صنع ابنه، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خلِّ عنه حتى يدخل، فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعم، فدخل فلم يلبث إلا أيامًا قلائل حتى اشتكى ومات.

قالوا: فلما نزلت الآية وبان كذب عبد الله بن أبي قيل له: يا أبا حباب إنه قد نزل فيك أي شداد فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد[٥١٥] فإنزل الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

---

[٥١٣] تفسير البغوي ،ج ٨ ، ص ١٣٢.

[٥١٤] المنافقون ،٥ . ٨

[٥١٥] تفسير البغوي ،ج ٨ ، ص ١٣٣.

يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}[٥١٦].

والقرآن الكريم فيه العزة لمن أراد العزة فقد قال الله في فضل القرآن الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[٥١٧] فإن الكتب التي تقدّمت عليه في الزمان لا تبطله ولا يأْتي بعده كتاب يبطله وهو محفوظ من أَن يُنْقَصَ ما فيه فيأْتيه الباطل من بين يديه أَو يُزاد فيه فيأْتيه الباطل من خلفه وكِلا الوجهين حَسَنٌ فقد حُفِظَ وعَزَّ مِنْ أَن يلحقه شيء من هذا، (وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ) والعزيز الثمين الذي لا يساويه شيء وهو المحبوب بما فيه من آيات تطمئن الأنفس بها، وتنير دروب الضالين إلى الهداية ودروب المستخلفين إلى الجنة.

(لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ) وذلك لأنه الحق المطلق، والحق المطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كتاب الكافة الذي لا يجيء كتاب من بعده بالمطلق، والقرآن محفوظ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لحافظون}[٥١٨]، وقوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}[٥١٩]، ولهذا فهو كتاب عزيز ومن تمسك به فهو مُعزّ.

وعليه الشعور بالعزة في طاعة الله تعالى يجعل الطائع عزيزا، والعزة بطاعة الله تجعل الطائع مُعَزّاً. وعلينا أن نفرق بين العزة والغرور والتكبر:

. العزة: لا تكون إلا لعزيز النفس طيب الإرادة محب الخير يقدم على ما يجب الإقدام عليه ويبتعد عما يجب الابتعاد عنه ويتجنب ما يجب تجنبه، وينتهي عما يجب الانتهاء عنه،

---

[٥١٦] الافقون ٥ . ٧.

[٥١٧] فصلت٤١، ٤٢

[٥١٨] الحجر ٩.

[٥١٩] البروج ١٩ . ٢٢.

ومن يفعل ذلك يكون من المستخلفين في الأرض المفلحين فيها بالعمار وأفعال الخيرات الحسان.

الغرور: الظهور بحسابات في غير محلها، وعدم تقدير للمواقف والإقدام في غير زمانه ومكانه وموضعه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[٥٢٠].

. التكبر: مغالاة في غير محلها، قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}[٥٢١]، وقال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}[٥٢٢].

إن الشعور بالعزة المفرطة يؤدي على الكبر والشعور بالتواضع المفرط يؤدي إلى الهوان والاثنان يتنافيان مع الاسم المعز، ولكن القصد في أن يبتغي المتخلق بالعز بين ذلك سبيلا، فلا يكون المتخلق بالمعز من تأخذه العزة إن أخطأ بل يعود فيصلح من خطئه،قال الله تعالى:{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[٥٢٣]، فلا يتخذ الإنسان موقفا غير صحيح لمن يرشده إلى خطئه بل يجب عليه أن يعود إلى رشده ويصلح من إحساسه المفرط بأنه على الصواب، ويتمثل بالخلق المتواضع في رحمة من غير ضعف الذي كان يتحلى به النبي

---

[٥٢٠] لقمان ٣٣.

[٥٢١] غافر ٢٦، ٢٧.

[٥٢٢] غافر ٣٥.

[٥٢٣] البقرة٢٠٤ ،٢٠٧

صلى الله عليه وسلم وهو الذي أعزه الله وذلك حين أمره الله تعالى بقوله تعالى: {واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ}[٥٢٤] فالرحمة فيها العز بشرط أن تكون لمن يستحق.

ومن المعلوم أن العز بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وهو على كل شيء قدير فقد أعز آدم وأذل إبليس، فقد أعز نوحا بالطوفان وأذل الكافرين بالطوفان نفسه، فقد أعز إبراهيم بالنار وهي أداة الذل للكافرين يوم القيامة، وقد أعز موسى وأذل فرعون لأن الله المعز بيده الملك فسخر الطوفان والنار والبحر لأوليائه وأنبيائه فأعزهم بها، وقد أعز الله بيته لما جاء أبرهة يهدمه أعزه بطائر قليل الحجم يحمل حجارة صغيرة فأذل أبرهة وجنوده، وقد أعز النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالإسلام، ولم يمنع عزه عنا ما دمنا نؤمن بأنه المعز فقد علَّم النبي صلى الله عليه وسلم سبطه الحسن بن علي هذا الدعاء فعَنِ الْحَسَنِ بن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ: عَلَّمَنِي جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ: "اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ"[٥٢٥]. فلا معز لمن أذل الله ولا مذل لمن أعز الله.

اللهم ألبسنا ثوبا من العز لا نذل به فإنك على كل شيء قدير، وأعزنا بالإيمان وبالقرآن وباتباع خير الأنام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، اللهم أعز أقوالنا بالحق وأفعالنا بالحق، وأعمالنا بالحق، وعزنا بالقوة والقدرة ولا تجعلنا مستضعفين إنك المعز سبحانك جل جلالك.

اللهم يا المعز إنك تعز من تشاء متى ما تشاء فأعزنا كما تشاء بالإيمان والعلم والحكمة والملك والغنى والصحة والعافية يا خالق الأرض والسماوات العلا وما بينهما وما تحت الثرى يا الله.

---

[٥٢٤] الحجر،٨٨ ، ٨٩.

[٥٢٥] المعجم الكبير للطبراني ،ج ٣ ، ص ١٢٥.

اللهم عزنا بتدبُّر القرآن وطاعة الوالدين في رضاك والإحسان، واتباع الصدق وتجنب الخذلان، وعزنا بقول الحق وفعل الحق وإزهاق الباطل، اللهم إنك تعز أهل الطاعة بالطاعة فاجعلنا لك طائعين لا نقدم على شيء لا ترضاها ولا نتخلف أو نتأخر عن شيء ترضاه.

اللهم يا المعز عزنا بصفاء النية والإخلاص في العمل وأداء الفرائض، اللهم عزنا في معاركنا مع الباطل بجند من جندك كما أعززت سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في معاركه حتى أحق الحق وأزهق الباطل وبلَّغ الرسالة.

المذل

المذل: هو مذل"أهل معصيته وأعدائه ذلاً في الدنيا والآخرة"[٥٢٦].

"المذل الله تعالى يذل طغاة خلقه وعتاتهم حكما وفعلا فمن كان منهم في ظاهر أمور الدنيا ذليلا فهو ذليل حكما وفعلا"[٥٢٧].

وَالْمُذِلُّ: "هُوَ الْمُعَرِّضُ لِلْهَوَانِ وَالضَّعَةِ"[٥٢٨].

وقال ابن القيم:

وهو المذل لمن يشاء بذلة .... الدارين ذل شقا وذل هوان[٥٢٩].

---

[٥٢٦] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج١، ص ٩٧.

[٥٢٧] تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٤١.

[٥٢٨] الأسماء والصفات للبيهقي، ج ٢، ص ٢١١.

[٥٢٩] شرح قصيدة ابن القيم؛ ج ٢ ، ص ٢٣٦.

المذل هو القوي القادر، الذي لا قوي ولا قادر مثله، وإلا هل يعقل أن يذل احد أحدا بدون قدرة وقوة؟.

ولذا فإن المذل هو القوي القادر، وهو الذي يعلم كل شيء وأَخُصُ بخصوصية الاسم المذل الآتي:

أولا: يعلم الموضوع في دائرتين:

الأولى: دائرة المستحيل: وهي دائرة علم الغيب التي تحتوي كل ما لا يعلمه الخليفة.

الثانية: دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، وهو الذي بسببه يكون الذل بأثر موجب أو بأثر سالب. ولأن هذه الدائرة هي دائرة الممكن فإن الذي خلقه المذل المطلق في أحسن تقويم يمكنه إدراكها، ولكن فيما هو متوقع لا استغراب، وفيما هو غير متوقع يحدث الاستغراب والمفاجأة التي من بعدها يتم التصويب أو الإصلاح.

ثانيا: يعلم الفعل المترتب على الموضوع: قبل حدوثه أو وقوعه ثم يأتي من بعده الخليفة عالما، وهناك من العباد الصالحين من يظهرهم المذل المطلق على شيء من آياته وهي في علم الغيب قبل وقوعها أو ظهورها للعباد كما أظهر الله للسيد الخضر صلوات الله وسلامه عليه أمر السفينة والملك، والغلام والوالدين الصالحين، والجدار والمساكين.

ثالثا: يعلم المُذَل: وهو الذي وُجه له الفعل الذي به ذُل، إي هو الذي قُهِرَ بالمغالبة، وبعلمه المطلق يعلم الأثر الذي تركه الموضع والفعل المذل على المُذَل بالقوة والقدرة.

ومع أن لغة الذُّل نقيضُ العزِّ، إلا أن ذل الكافر عز للمؤمن، وذل المؤمن عز للكافر، وهكذا ما يبدو موجبا لأحد قد لا يكون كذلك للآخر.

والمُذِّلُّ في أسماء الله تعالى هو الذي يُلْحِقُ الذُّلَّ بمن شاء من عباده، ويعفو عن كثير.

وقد جاء في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: {سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}[٥٣٠]، غضب الله عليهم بما فعلوا ويفعلون، سينالهم لا محالة وهذا أمر يقين لا شك فيه، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ

---

[٥٣٠] الأعراف ، ١٥٢ .

كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٥٣١]. والذلة هي الهوان لعقوبة الله تعالى، وتحدث الذلة في الحياة الدنيا وهذه من الآيات الشواهد للعباد حتى يتذكروا ويذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ليكفِّروا عن سيئاتهم وذنوبهم بالتوبة.

وقال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: إن الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادتهم العجل يتمثل في أن الله عز وجل لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٥٣٢]، من يتخذ من دون الله إلها أشرك وظلم نفسه التي لن تُفدى إلا بذاتها: وهو تنفيذ أمر القتل {قتل النفس) بالحق، ومن قتل نفسه بالحق تاب الله عليه بأمر الطاعة وهو قبول التنفيذ لأمر القتل.

ومع أن في الذل مغالبة إلا أنه يحتوي ويشتمل على اللين مما يجعل اللين رحمة على العباد من المُذِل المطلق، وبهذا الأمر يألف الإنسان أخيه الإنسان وتألف الكائنات بعضها بعضا، ويألف الحيوان الإنسان وهكذا بفضل الإذلال تسود الرحمة والتفاهم والتجاوب وتعم الفوائد وتتبادل.

والذل الرفق والرحمة كما جاء في قوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[٥٣٣] ، جناح الذل هو الطاعة في غير معصية الله تعالى، ولأن طاعة الوالدين رحمة فإن طاعتهما هي المحققة والمُمكِّنة من بلوغ الرحمة، ولهذا يقال أن الجنة تحت أقدام الأمهات، ولأن الأمر يتعلق بالوالدين معا فإن الأبناء ينالون الرحمة بتأدبهم ولين أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم مع والديهم. ومع أن الأبناء يخفضون لآبائهم أجنحة الذل من الرحمة، لينالوا رحمة من الله التي تتحقق برضا الوالدين على الأبناء، ومع ذلك ينبغي أن

---

[٥٣١] يا سين ٨٢، ٨٣.

[٥٣٢] البقرة ، ٥٤ .

[٥٣٣] الإسراء ، ٢٤ .

يواظب الأبناء على الدعاء لوالديهم بالرحمة، التي بدعوتهم إياها يستجيب لهم الرحمن الرحيم في حالتين:

الحالة الأولى: يستجيب بالرحمة على الوالدين.

والحالة الثانية: يستجيب بالرحمة على الأبناء الذين استجابوا لأمر الله تعالى وبرضاء الوالدين عليهم.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى في صفة المؤمنين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٥٣٤] ولأن الكتاب في لوحٍ محفوظ، فإن ارتد أحد عن دين الإسلام سيكون التعويض بالكثرة المؤمنة، مما يجعل الردة الفردية في مقابل الدخول الجمعي، أي دخول الأقوام الذين يحبهم الله بدخولهم الدين الإسلامي، ويحبونه برحمته لهم بأن ألهمهم الحق حتى الهداية.

قال تعالى: {عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}[٥٣٥]، أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين، أي أشداء غلاظ على الكفار يعادونهم ويغالبونهم ، وقد قال عطاء{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} كالولد لوالده والعبد لسيده، (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) كالسبع على فريسته[٥٣٦].

واسم المذل جاء بما يدل عليه في قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ}[٥٣٧] وقد ورد بصيغ أخرى منها قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى}[٥٣٨] أي أن الله عز وجل لو أهلك هؤلاء المشركين الذين يكذبون بالقرآن الكريم قبل أن يبعث إليهم داعياً يدعوهم لما أمر الله تعالى في القرآن الكريم، ويكون هلاكهم

---

[٥٣٤] المائدة ، ٥٤ .

[٥٣٥] الفرقان ، ٦٣ .

[٥٣٦] تفسير البغوي ، ٣،٧٨ .

[٥٣٧] آل عمران ٢٦.

[٥٣٨] طه ، ١٣٤ .

هذا بواسطة عذاب مذل ومهين ومخزي لهم استحقوه بكفرهم بالله، والذل يكون بالعذاب في الدنيا والخزي يكون بدخول النار يوم القيامة[٥٣٩]، وهذا الوصف للعذاب كان بقولهم هم حيث وصفوا العذاب بالمُذِل والمخزي وعليه يكون الذي أذلهم حقيقة هو الله عز وجل ومن هنا كان الذل من صفاته الحسان التي بها يُذكر جل جلاله، فهو المنزل للعذاب عليهم ليس ظلماً ولكن استحقوه باستعلائهم على الحق وكفرهم به فكانوا يستحقون هذا الذل، كما أن الله عز وجل لا يضره أن ينزل العقاب بقوم ما إذا استحقوه لأنه هو العزيز الذي لا يرضى الظلم، فقد قال الله سبحانه وتعالى في قوم فرعون الذين ظلموا وأذلوا الناس باستعبادهم: {كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ}[٥٤٠].

يقول تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ}[٥٤١]. يقول جلّ ثناؤه كذّب آل فرعون بأدلتنا التي جاءتهم من عندنا، وحججنا التي أتتهم بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، أي فعاقبناهم بكفرهم بالله عقوبة شديد لا يغلب، مقتدر على ما يشاء، غير عاجز ولا ضعيف. وبهذا يكون من صفات الله تعالى أنه مُذِلٌّ لمن يستحق الإذلال في الحين الذي يعز فيه من يستحق العزة. في الآيات السابقة تتضح قوة المذل كرها لمن يعصي ويكفر بما أنزل من معجزات عظام، مع تأكيد مطلق بأن الهزيمة ستلحقهم لا محالة ويكون النصر حليف الخلفاء الذي آمنوا به وبما أنزل إيمانا تاما له واحداً أحداً.

---

[٥٣٩] البحر المديد ، ج٤ ، ص٥٧ .

[٥٤٠] القمر ، ٤٢ .

[٥٤١] البقرة، ٤١ . ٤٩.

وقد جاء في قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٥٤٢]، الضمير يعود على النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه، الذي قال أللهم مالك الملك: ثم قال: تؤتي الملك لمن تشاء. ثم قال: وتنزع الملك ممن تشاء. ثم قال وتعز من تشاء، ثم قال: وتذل من تشاء، ثم قال: بيدك الخير. ولاستمرار الاعتراف بالمطلق قال: إنك على كل شيء قدير. فبقدرتك تعز من تشاء حتى تُملِّكه ملكا يحكم به الناس، وبمشيئتك تذله بعد عز إن لم يحكم بين الناس بالعدل، وهناك من تجعله عبدا محكوما بأمر سيده، فتذله لأن يقبل بالعبودية التي تجعله يتودد لسيده بإذلال، وهنا يكون الفرق بين إذلال المذل المطلق، لأجل الإصلاح والاتعاظ ولأخذ العبر مما جاء به وأمر، والنهي عما نهى عنه وزجر، وبين إذلال العبد للعبد وكأن الإذلال غاية في ذاته. وفي هذه الآية أيضاً توضيح أن الله تعالى هو الذي يرفع، وهو الذي يخفض، وهو الذي يعطي والذي يمنع، وهو المذل الذي يذل من يشاء من عباده اللذين يظنون أنفسهم أعزاء في الدنيا كالملوك والسلاطين وغيرهم من أصحاب المناصب العليا في الحياة الدنيا، فهو قادر عز وجل على نزع هذا الملك منهم وقتما يشاء، وأن يذلهم بعد عزهم الذي كانوا فيه وهذا ليس بكثير على الله سبحانه وتعالى، والقرآن يخبرنا بكثير من هذه القصص، كما وأن الله عز وجل أذل ملوك الفرس والروم بعد ما كانوا فيه من العزة والغرور، فقد أذلهم عز وجل للجيوش الإسلامية في أوائل عهد الفتوحات الإسلامية، وأعز الله عليهم من كانوا ينظرون إليهم نظرة ازدراء لضعف مكانتهم على حسب تقديرهم، هؤلاء المسلمون الذي نصرهم الله تعالى بنصره وأعزهم بعزه، فأصبحوا أعزة بين الناس بعدما كانوا ضعفاء في بداية الدعوة الإسلامية.

رفض الإسلام أن يُبْنى على الضعف والهوان، بل ربى أتباعه على العزة والإباء، وعلى عدم الخضوع لغير الله عز وجل، وهذا واضح في دعوة الإسلام لهذا المبدأ، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم تمنى أن يدخل الإسلام أحد العمرين لقوتهما، عن ابن عمر أن رسول

---

[٥٤٢] آل عمران ، ٢٦ .

الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك : بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب. قال: فكان أحبهما إليه عمر"[٥٤٣]

وقد جاء في قوله تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[٥٤٤].

الذلة إحساس بالخوف وعدم الغلبة التي تجعل العبد في حالة يأس من أن يفوز أو ينتصر، وهي ترتبط بالنفس فتجعلها ممتلئة بالرعب وفاقدة للطمأنينة. وفي هاتين الآيتين ورد ذكر ذله مرتين، مرة منفياً عن أصحاب الجنة ومرة مثبتاً لأصحاب النار، والذلة جاء وصفها في نفس الآية السابقة وهي أن وجوه أصحاب النار مسودة متجهمة كأنما أغشيت بقطع من الليل المظلم، وهذا الوصف الذي وصفهم به الله عز وجل إنما ناتج عمَّا أصابهم من خزي وإذلال بسبب ما كسبوا من السيئات التي يعاقبهم الله عنها، وقد نفى تعالى هذه الكلمة عن الذين آمنوا وعملوا الطاعات والحسنات فاستحقوا بذلك رضا الله تعالى عنهم وكانت الجنة جزاءاً لهم على أعمالهم وزادهم الله بشرف النظر إلى وجهه الكريم فلا يصيبهم بعد ذلك قتر ولا ذل، أما أصحاب النار فتعلوا على وجوههم المذلة والهوان وذلك بعقاب الله تعالى على أعمالهم في الدنيا[٥٤٥].

وجاء في هذا المعنى أيضاً قول الله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}[٥٤٦]، وقال سبحانه وتعالى: {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ}[٥٤٧]، وقال تعالى أيضاً مبيناً أن

---

[٥٤٣] صحيح السيرة النبوية ، ج١ ، ص١٩٣ .

[٥٤٤] يونس، ٢٦ ، ٢٧ .

[٥٤٥] تفسير الطبري ، ج١٥ ، ص٧٣ .

[٥٤٦] عبس ، ٣٨ – ٤٢ .

[٥٤٧] الملك ، ٢٧ .

ما يلحق بالعباد من عزة ونعيم أو من ذلة وعذاب يكون نتيجة ما قدموه من أعمال، ولا يكون ظلماً للعباد، قال تعالى في كتابه الكريم: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}[٥٤٨].

من الآيات الكريمة السابقة يعلم الخليفة إن الذل حق فلا يخالفه، فيأخذ العبر ويقتدي بها، فلا يذل أحدا من العباد ظلما، ولا يتجنى عليهم ظلما، وإن حكم بينهم لا يحكم إلا بالعدل، وإذا كان شاهدا عليهم لا يشهد زورا، وإذا عمل يصلح ولا يسفك الدماء في الأرض بغير حق، ويعلم أن الذل في غير محله ضلال فيجتنبه، وإن فعله في زمانه ومكانه وموضوعه في من يتعلق الأمر به فليعلم أن ما يقوم به هو عبادة للمذل المطلق جل جلاله.

ولهذا كله لابد أن يكون خليفة الله في أرضه متصفاً بصفات الله عز وجل، متخلقاً بها، فكما يكون هذا الخليفة متكبراً عن ارتكاب المظالم والفواحش يكون رحيماً غفوراً حليماً ناصراً ودوداً كريماً قوياً إلى آخر هذه الصفات التي وردت مضامينها في الآيات الكريمة السابقة، ولابد أيضاً أن يتصف من يريد أن يكون خليفة لله سبحانه وتعالى بهذه الصفة المتجلية في اسمه {المذل)، إذ يجب أن يكون أولا: مذلاً لنفسه من المعصية أو الشرك أو الظلم. وثانيا لغيره من ذات الصفات السالبة للكرامة التي لا تناسب الإنسان كونه مخلوق في أحسن تقويم. والإذلال للنفس لا يعني احتقارها والتقليل من شأنها وازدرائها، فالإسلام دين عزة ودين قوة، ولا يحب لأتباعه إلا الكرامة والهيبة وهذا ما نجده بيّناً وجليّاً في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٥٤٩]. ففي هذه الآية يوضح لنا الله تعالى عدة أشياء منها قدرته عز

---

[٥٤٨] آل عمران ، ١٠٦ – ١٠٨ .

[٥٤٩] المادة ، ٥٤ .

وجل على أن يستبدل الذين يتولون عن نصرة دينه وإقامة شريعته بمن هم خير لها منهم وأشد منعة وأقوَم سبيلا، وهؤلاء هم قوم يحبهم الله تعالى ويحبونه أكثر من حبهم لأنفسهم وأزواجهم وأموالهم وأبنائهم، وفي هذا أيضاً إيحاء بأن الله عز وجل غني عن العالمين، ولا يحتاج عبادة عابد ولا تضره معصية عاصٍ، وقد ورد هذا المعنى في أكثر من آية منها قوله تعالى: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[٥٥٠]، وكذلك قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآَخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا}[٥٥١]، وقوله تعالى: (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ)[٥٥٢].

ويخبرنا الله بصفات عباده الذين يحبهم ويحبونه، فمن صفاتهم أنهم رحماء فيما بينهم متآخون في الله على ما أمر باتباعه وما نهى باجتنابه، فهم أعزة بمعنى أشداء وأقوياء على أعدائهم، وأنهم لا يخافون في الحق لومة لائم. وأنهم رحماء فيما بينهم.

وعليه فإن ذل النفس يكون بقهرها وإجبارها على هجر المعاصي والابتعاد عنها، وتعويدها على العبادات والطاعات والقيام بكل ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز، فقد قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)[٥٥٣]. ذلك لأن النفس أمارة بالسوء كما في قوله سبحانه وتعالى: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)[٥٥٤]، فإن نفوس العباد تأمرهم بما تهواه وإن كان هذا الهوى في غير رضا الله، إلا من يرحمه الله عز وجل من خلقه فينجيه من اتباع الهوى وطاعة نفسه فيما تأمره به من السوء[٥٥٥]، وقد جاء أمر الله تعالى لنا في أكثر من آية بعدم اتباع هوى النفس كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ

---

[٥٥٠] محمد ، ٣٨ .

[٥٥١] النساء ، ١٣٣ .

[٥٥٢] إبراهيم ، ١٩ ، ٢٠ .

[٥٥٣] البقرة ، ٤٥ .

[٥٥٤] يوسف ، ٥٣ .

[٥٥٥] تفسير الطبري ، ج ١٦ ، ص ١٤٢ .

وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)[٥٥٦] ففي هذه الآية نهي عن اتباع هوى النفس في ترك العدل وظلم الناس، وقال تعالى آمراً لمن يخلفونه في الأرض بعدم اتباع الهوى، وهذا ما نراه جليّاً في أمره لسيدنا داوود صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)[٥٥٧] يُفهم من هذه الآية الكريمة إن استخلاف داوود عليه الصلاة والسلام كان ليحكم بين الناس بالعدل، لا أن يحكم الناس، ولهذا فالفرق كبير بين الحكم بين الناس الذي يأتي في حالات الاختلاف، وبين حكم الناس الذي قد يكون على حساب حريتهم وممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمْل مسؤولياتهم. ففي هذه الآية وصية من الله تعالى لخلفائه في الأرض ولولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، وأن لا يعدلوا عن هذا الحق باتباع ما تحدثهم به أنفسهم من أهواء، فيضلوا عن سبيله، وقد توعد الله عز وجل الذين يضلون عن سبيله بالعذاب الشديد والمهين يوم القيامة[٥٥٨]، وقد وصف الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن لا يتبع الهوى فيما يخبر به أتباعه وفيما يطبق فيهم من شرائع فقال تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)[٥٥٩]، وهذا وصف إلهي لمن اختاره الله من بين خلقه خليفة ليحكم بين الناس بالعدل، والحكم بالعدل يستوجب قواعد معيارية يمكن قياسها أو قياس ما تتركه من أثر، ولهذا كان النص الإلهي هو المصدر الذي يحتكم به الخلفاء كما هو حال داوود ومحمد عليهما وعلى جميع الأنبياء والرسل الصلاة والسلام. فما يحكم به الأنبياء والرسل لم يكن منطوقا عن هوى، بل هو من عند الله وبإرادته العالية والكاملة. ولقد اصطفى الله تعالى الرسل والأنبياء

---

[٥٥٦] النساء ، ١٣٥ .

[٥٥٧] ص ، ٢٦ .

[٥٥٨] تفسير ابن كثير ، ج ٧ ، ص ٦٢ .

[٥٥٩] النجم ، ٣ . ٥ .

ليكونوا هم الخلائف له في تبليغ شريعته لأهل الأرض، حتى لا يكون للناس حجة على الله يوم القيامة، ويكون المستخلفون من بعدهم خلفاء باتباعهم الوحي والسنن النبوية وخاتمتها سنة خاتم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم. ولذلك جعل لكلٍ شرعةً ومنهاجاً، قال تعالى: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)[٥٦٠].

ولأجل أن يكون الإنسان خليفة لله عز وجل عليه أن يلتزم بكل هذه الصفات التي تؤهله لهذا المقام العظيم وهو خلافة الخالق عز وجل وأول هذه الصفات هي قهر النفس على فعل الطاعات وترك المعاصي وعدم اتباع هواها في ذلك. وقد وعد الله سبحانه وتعالى عباده الذين لا يتبعون أهوائهم فيما يحكمون بين الناس ويتبعون أوامر خالقهم، بالجنة وهي النعيم الدائم الذي لا تعب فيه ولا نصب، قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)[٥٦١].

أما الإذلال للغير لا يكون معناه ظلمهم وقهرهم والتعدي عليهم بغير وجه حق، ولكن الإذلال يكون لكل من يستحق الإذلال بتكبره على الحق، وتطاوله عليه وعلى متبعيه، سواء كان هذا التطاول بالاعتداء على الدين أو كان التطاول على من جاء رسولا بالدين، أو كان التطاول على المستخلفين به في الأرض من بعد الأنبياء والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

ولقد وجب التذلل لله تعالى بالطاعة المطلقة، والتذلل للرسل بالاتباع، وللدين بالهداية، وللوالدين بالطاعة النسبية {في غير معصية الله). ولهذا من يذل نفسه تهذَّب، ومن اتبع هواها ضل، وهذا الأمر هو الذي يفرق بين الخليفة وبين من حرم نفسه من أن يكون خليفة، فالخليفة هو طائع لله تعالى في كل أمر، وغير الخليفة من أشرك وضل.

---

[٥٦٠] النساء ، ١٦٥ .

[٥٦١] النازعات ، ٤٠ ،٤١.

وعليه فالإذلال الإرادي باتباع الدين الخاتم هداية للحق بالحق، واتقاء لكل شر وضلال وكفر أو شرك. أما أولئك المارقون المفسدون في الأرض وسافكو الدماء فيها بغير حق فهم الضالون، ولذا لا يقنط عباد الرحمن المستخلفون في الأرض من رحمة الله عليهم، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ}[٥٦٢]، وعليه فمقاومة الضالين حق وجهاد في سبيل الله قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[٥٦٣]، وقال تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٥٦٤].

بناءاً على ما تقدَّم، فإن الإذلال يأخذ صفتين:

الصفة الأولى: خفض كامل لجناح الذل لله تعالى وهو امتداد في مجالات الطاعة التامة لكل أمر من المذل الأعلى.

الصفة الثانية: امتلاك القوة والإعلان عنها واستخدامها في غير معصية الله جل جلاله، لأجل إحقاق حق وإزهاق باطل.

ولذلك فالخليفة هو الذي يقوم بهذه الأفعال طاعة لله كاملة وبإرادة ذاتية تامة، فالخليفة دائما يتقدم بعد معرفة وبينة بما يجب وبما لا يجب على استخدام القوة حتى يذل المفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حق، وحتى ينتصر دين الرسالة الخاتمة ويزهق الباطل مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ

---

[٥٦٢] الزمر، ٥٣ ـ ٥٦.

[٥٦٣] التوبة، ٧٣.

[٥٦٤] التوبة، ٤١.

الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ أَمِ اتَّخَذُوا آَلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[٥٦٥]. إذا تبين للخليفة أن العفو والصفح والحلم وخطاب العقل لا يجدي شيئا، فكل من يقف في صف العداوة للحق الدين والشرف والكرامة والوطن أو يعمل على إلحاق الضرر بأي منها فلابد له من العمل على إذلاله، وعقابه بأشد العقوبات المذلة له في الدنيا، ويكون هذا العقاب عادلاً لهم بما قاموا به من اعتداء على الحق، ولا يمكن أن نصل إلى ذلك إلا بأن نكون خلفاء الله تعالى في الأرض، وأقوياء في عقيدتهم أولاً، وأقوياء في نفوسهم وعزائمهم ثانياً، وأن يأخذوا على أنفسهم جمع كل أسباب القوة المعروفة في عصرهم فبهذا يمكن رد اعتداء المعتدين وإذلالهم، قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)[٥٦٦]، والإرهاب يعني التخويف بما أعددت من أسباب القوة، حتى تعم الرهبة أنفس الأعداء المفسدين في الأرض، والخوف يتبعه الفزع، والفزع يتبعه الذل، والإذلال للغير لابد أن لا يتعدى الحد فيصبح بذلك ظلماً وتعدياً بغير حق.

وأيضا الثبات في أرض المعركة من الأسباب التي تؤدي إلى العزة، فالذي يدير ظهره مولياً وقت الحاجة إليه ليس من الخلفاء، والذي يكشف ظهر الخلفاء وقت القتال مسببا في هزيمتهم، ليس له إلا الخزي في الدنيا والآخرة وله العذاب الشديد، بل الخليفة الحق لابد أن يثبت ويقاتل وهو متيقن بأن النصر من عند الله، وأن الله سبحانه وتعالى لا يذل عباده المخلصين، ولهذا فالإسلام يعول على الشجاعة والقوة والثبات أمام العدو لأمرين:

الأول: أن الخليفة لا بد أن يكون قتاله في سبيل الله عز وجل.

---

[٥٦٥] الأنبياء، ١٦ . ٢٢.

[٥٦٦] الأنفال ، ٦٠ .

والثاني: أن تحقيق النصر هو الهدف وهو الذي يُسهم في إعلاء كلمة الحق، أما الذل والهزيمة لا يكون نتيجتهما إلا الخسارة والهوان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرِ}[٥٦٧]. فلابد للخليفة المؤمن أن يكون في ذلك متصفاً بصفات المولى عز وجل من عزة وقوة، وكذلك عدم الإذلال، وإنزال العقوبة على قدر الجرم دون تعدٍ أو ظلم، فإن الله تعالى لا يظلم عباده ولا يحب الظالمين فقد قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[٥٦٨]، وقال عز وجل أيضاً: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا}[٥٦٩]، ولهذا فعلى خليفة الله أو من أراد أن يكون خليفة لله عز وجل أن يكون عادلاً في عقابه، فيكون العقاب على قدر الذنب الذي يعاقب عليه، فلا يظلم بذلك، فإن الله عادل لا يحب الظالمين ونجد ذلك في أكثر من آية منها قوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٥٧٠]، وقال أيضاً: (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٥٧١]، وكذلك قوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[٥٧٢]. وعليه فالإذلال ليس بظلم، إنه إحقاق للحق وإزهاق للباطل، وإلا هل يعقل إن يكون اسمه المذل ليقوم بغير ذلك؟ استغفره جل جلاله، فاسمه الحق وهو المذل بالحق ومن أجل الحق فله الحمد على كل حال.

وللذل معانٍ أخرى غير القهر والخزي والمهانة وردت متناثرة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، فعلى الخليفة الذي اختاره الله تعالى ليخلفه في الأرض أن يراعي كل هذه المعاني

---

٥٦٧ الأنفال ، ١٥ ، ١٦ .

٥٦٨ الشورى ٤٠ .

٥٦٩ يونس ، ٢٧ .

٥٧٠ آل عمران ، ١٨٢ .

٥٧١ ق ، ٢٩ .

٥٧٢ آل عمران ، ١٤٠ .

وأن يتصف بها كل صفةٍ في موقعها حتى يكون بفعله هذا مستحقاً لهذه الخلافة الشريفة بكونه ربانياً متصفاً بصفات ربه المذل الأعظم، ومطيعاً له في كل أوامره، مبتعداً عن كل نواهيه أيضاً، حباً لله تعالى وطاعة له عز وجل، ومن هذه المعاني:

الرحمة واللين:

قال تعالى في كتابه العزيز: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[٥٧٣]، والقول الكريم المقصود فيه هنا هو القول الحسن اللين، {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيمًا) أي: لينًا طيبًا حسنًا بتأدب وتوقير وتعظيم[٥٧٤].

ففي هذه الآية الكريمة أمرٌ من الله عز وجل لعباده بالتذلل للوالدين، وهذا التذلل ليس ناتجاً عن قهرٍ وضعفٍ وحاجةٍ ومسكنةٍ وغيرها من المعاني التي قد تُفْهَم من كلمة الذل، والله سبحانه وتعالى لا يحب أن يكون عباده متصفين بهذه الصفات بل أنه يحب المؤمن القوي المتصف بالقوة في كل معانيها، كالقوة الجسدية والقوة العقائدية والقوة النفسية، فهو سبحانه وتعالى يحب المؤمن المحترف الذي يأكل ويشرب وينام بدون إسراف لكي يتقوى بذلك على طاعته، وكذلك يعاشر زوجته لكي يعفها ويعف نفسه عما حرم الله تعالى، ولكي ينجب خلفاء من بعده يرثون الأرض والجنة من بعدها، فيعبدون الله تعالى ويدعون لهما بالرحمة طاعة لأمر الله في غير معصية.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير"[٥٧٥]، وبهذا يكون التذلل الذي أمرنا به الله سبحانه وتعالى في الآية السابقة هو من باب الرحمة بهما لأنهما في هذه السن يكونان أشد حاجة إلى الرحمة

---

٥٧٣ الإسراء ، ٢٣ ، ٢٤ .

٥٧٤ تفسير ابن كثير ، ج٥ ، ص٦٤ .

٥٧٥ صحيح مسلم ج١٣ ، ص١٤٣ ، ح ٤٨١٦ .

والاهتمام والرعاية والتذلل لهما من أي وقت من أوقات حياتهما، وقد فسر الإمام الطبري هذه الآية بقوله: "وكن لهما ذليلاً رحمةً منك بهما؛ تطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن فيه لله معصية ولا تخالفهما فيما أحبا"[٥٧٦]، وهذا التذلل واللين لهما يسعدهما ويدخل الفرح والسرور إلى قلبيهما فتحصل على رضاهما المقرون بالتأكيد برضا الله عز وجل فيحصل بذلك الخير الكثير في الدنيا والآخرة.

وكذلك في آية أخرى من محكم كتابه العزيز يبين لنا الله سبحانه وتعالى صفة عباده المستخلفين في الأرض الذين يحبهم ويحبونه ومن هذه الصفات أنهم أذلة على المؤمنين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٥٧٧]، وكلمة أذلة هنا كما سبق أن أوضحنا، بمعنى أن المؤمنين ذوو لين ورحمة فيما بينهم، فهم متسامحون ومتساهلون مع بعضهم البعض في التعامل، يقدمون العفو على الانتقام، والتسامح على التخاصم، والحلم على العقاب ما علموا أن ذلك أجدى وأنفع، وقد جاء توضيح هذه الآية واستكمال باقي صفات من يحبهم الله عز وجل في قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}[٥٧٨]، فعلى خليفة الله في أرضه أن يكون متصفاً بهذه الصفة وهي التذلل للمسلمين والمؤمنين تذلل رحمة ولين وتواضع، فيكون بذلك مستحقاً لخلافة الله تعالى، لاتصافه بصفات الله عز وجل.

ومن تذلل الرحمة أيضاً الصبر على أذى الآخرين وقد ذكر الله تعالى الصبر مقروناً بالصلاة في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[٥٧٩] وفي قوله تعالى أيضاً: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

---

[٥٧٦] تفسير الطبري ج١٧ ، ص٤١٨ .

[٥٧٧] المائدة ، ٥٤ .

[٥٧٨] الفتح ، ٢٩ .

[٥٧٩] البقرة ، ١٥٣ .

الْخَاشِعِينَ}[٥٨٠]، وقد قرن الله تعالى كذلك بين الرحمة والصبر في موضع آخر وهو قوله تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ}[٥٨١] أي وأوصى بعضهم بعضاً بالمرحمة أي تراحم الناس فيما بينهم، وهذه جميعها من صفات الله عز وجل فهو الرحيم الصبور، رحيم بعباده يؤخر لهم العذاب على معاصيهم ويفتح لهم باب التوبة رحمة بمن يندم ويرجع عن ذنبه، وصبور على أذاهم فليس هناك أصبر من الله سبحانه وتعالى على أذى عباده العاصين كما مر في اسم الصبور، فمن أراد أن يكون ممن اصطفاهم الله تعالى واختارهم لخلافته فعليه أن يتخلق بكل هذه الأخلاق والصفات فيكون رحيماً بالمؤمنين صبوراً على أذى الناس من الأقارب والجيران والأصدقاء والزملاء في العمل وفي كل مكان يمكن أن يكون فيه احتكاك بينه وبينهم ، فيكون ليناً في التعامل معهم وبذلك يكون متصفاً أيضاً بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أخبرنا بها الله تعالى في قوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٥٨٢].

وبالنسبة للصبر والرحمة فالناس منقسمون على أربعة أقسام:

القسم الأول: فمنهم من يصبر ولا يرحم.

القسم الثاني: ومنهم من يرحم ولا يصبر.

القسم الثالث: ومنهم من لا يصبر ولا يرحم.

القسم الرابع: ومنهم من يصبر ويرحم.

وهذا القسم الأخير هو القسم المحمود فعلى الخليفة أن يكون من أهل هذا القسم فيكون قوياً من غير عنف، ليناً من غير ضعف ، فبصبره يقوى وبلينه يرحم وقد قال رسول الله صلى

---

[٥٨٠] البقرة ، ٤٥ .

[٥٨١] البلد ، ١٧ .

[٥٨٢] آل عمران ، ١٥٩ .

الله عليه وسلم "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ"[٥٨٣].

فعلى من استخلفه الله تعالى في الأرض أن يكون متواضعاً لله عز وجل مهما كانت مكانته أو منصبه الذي تولاه في هذه الدنيا حتى يفوز بالمنصب العظيم (الجنة)، فلا يتكبر على عباد الله تعالى، الذين يظن المتكبر الجاهل بجهله أنه أفضل منهم لما تقلده من المكانة والمنصب، فتراه تكبر ورأى أن لا أحد فوقه، وكأنه هو الذي يحرك الكون، فتراه يعطي هذا ويمنع ذاك، ويخاطب هذا بغلظة وقسوة ولا يعدل إذا حكم بين الناس، ففي الحديث القدسي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري"[٥٨٤] والمقياس الحقيقي للتفاضل عند الله سبحانه وتعالى هو تقوى الله، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ"[٥٨٥]، وقال الله تعالى في ذلك: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}[٥٨٦] وعلى ذلك يفترض أن أكثر عباد الله خشية منه هم العلماء، لأنهم عرفوه حق المعرفة من خلال علمهم الذي تعلموه، فهم الأكثر خوفاً منه، والأكثر تطبيقاً لأوامره وابتعاداً عن نواهيه، ويفترض أن يكون العالم بالتأكيد متصفاً بصفات الله سبحانه وتعالى فيكون رحيماً متواضعاً، فلا يذل من لا يستحق منه الذل تكبراً منه بنفسه وبمنصبه، ولكن للأسف فإن بعضاً ممن وصلوا إلى مراتب عليا من التعليم هم أكثر الناس تكبراً على العالمين، متناسين أن هناك من هو أعلى منهم وأعز وأقدر، ومتناسين كذلك مخالفتهم لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "من تواضع لله رفعه الله، فهو في نفسه صغير، وفي أعين الناس عظيم، ومن تكبر وضعه الله، فهو في أعين الناس صغير، وفي نفسه كبير، حتى لهو أهون عليهم من كلب

---

[٥٨٣] سنن الترمذي ، ج٧ ، ص١٦١ ، ح١٨٤٧ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة المختصرة ج٢ ، ص٥٩٤.

[٥٨٤] تفسير الألوسي ، ج١ ، ص١٣٦ .

[٥٨٥] سنن الترمذي ، ج١٢ ، ص٣٥٠ ، ح٣٧٨٩ .

[٥٨٦] فاطر ، ٢٨ .

أو خنزير"[٥٨٧]، لا بد أن يعلم المسلم أن التواضع هو الاعتدال بين الإفراط والتفريط، فهو المحافظة على الكرامة والعزة من دون خنوع وإذلال ومن دون تكبر أو خيلاء، قال كذلك تعالى آمراً عباده بالتواضع: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا[٥٨٨]} وكذلك قوله تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}[٥٨٩]، متناسياً كذلك أن من أوصله إلى هذا المنصب هو الله سبحانه وتعالى، وكان مثله كمثل قارون، حين اغتر بنفسه وماله، فبغى على قومه وقال ما اخبر به رب العزة بقوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}[٥٩٠]، اغتر قارون بما أعطاه الله سبحانه وتعالى، وقال محدثاً من حوله أن الله عز وجل أعطاه هذا الخير كله لعلمه أنه يستحق هذا، ونسي قارون أن الله يمهل ولا يهمل، وظن أن هذا الخير والغنى دائم لا يزول، وظن بجهله أن هذا الحال يمكن أن يدوم مع أن سنة هذا الكون كله التغيير، فلا يمكن أن تدوم الدنيا لأحد، ولو دامت لغيره ما وصلت إليه، ولو أراد الله تعالى أن يديم هذه الدنيا لأحد من خلقه لأدامها لأفضل خلقه على الإطلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولكن هذا لم يحدث لأن الدوام صفة لله عز وجل الذي يذل له كل شيء وهو قادر على أن يذل الجميع، فلا دائم إلا هو سبحانه وتعالى.

لا جدوى من أن يترفع الإنسان على من هم أحط منه كما صنفت نفسه الناس، ولا جدوى من التعامل مع من هم أقل منه بنوع من الغرور، لأن الله هو المالك لكل أمورنا، يسيرها كيفما يشاء، ويسخر لنا الأسباب لنرتقي، ويحط بنا الأسباب لنسقط.

فإن غرتك قدرتك أيها العبد على إذلال من يحيطون بك أو يتعاملون معك من غير وجه حق فتذكر قدرة الله عليك، وتذكر أن لا عزة لأحد إلا مع الله العزيز الجبار، وتذكر أن الله

---

[٥٨٧] شعب الإيمان للبيهقي ،ج١٧،ص ١٨٢ ،ح ٧٩١٧ .

[٥٨٨] الإسراء ، ٣٧ .

[٥٨٩] لقمان ، ١٨ .

[٥٩٠] القصص ، ٧٨ .

قادر على أن يردك ذليلاً كما كنت قبل أن يرفعك هو بما سخر لك من تيسير الأسباب التي أوصلتك إلى ما أنت فيه، وعليك أن تتقي أيضاً دعوة المظلوم الذي تعاليت عليه وأذللته ولو بالكلام أو الفظاظة في الحديث معه، فإن دعوته ليس بنها وبين الله من حجاب، كما جاء في حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب"[٥٩١].

اليسر والسهولة:

قد ورد ذكر الذل في القرآن الكريم باشتقاقات عديدة تدل أكثرها على التيسير والتسهيل والتسخير، كما جاء في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}[٥٩٢]. تذليل الأنعام ترويضها حتى تهدأ وتلين بالمعاملة الطيبة وترضى بركوبها وحمل الأثقال التي تفيد راعيها، والراعي هو المعتني بالتذليل فتصبح العملية وكأنها مبادلة أرع تركب مما يجعل الفائدة تعود على كلا الطرفين. ومع أن الراعي هو المروض للإبل إلا أن المذل المطلق هو الذي خلقها على هذه الهيئة والخاصية، أي جعلها ذليلةً للعباد مسخرةً لخدمتهم، لا تمتنع منهم بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه وركبه، ولو شاء لأقامه وساقه وذاك ذليل منقاد له، وهكذا جعل الماشية بأنواعها معزها وضأنها وبقرها وخيلها وحميرها مذللة لمن يراد له أن يكون الخليفة، ولا يُستغرب أن يقابل إذلال الماشية بجميع حيواناتها تقديم الخدمة لها من الذي خلقه المذل المطلق في أحسن تقويم، يرعاها ويسهر على رعايتها، ويقدم لها الأكل والشرب، وينظفها ويعالجها إن مرضت أو أصابتها آفة من الآفات حفظنا جميعا من كل آفة ومرض.

وهذا من جملة النعم الظاهرة وإلا فمن كان يقدر عليها وعلى تذليلها وقيادها لولا تذليل الله سبحانه وتعالى لها لنا، وتسخيرها في طوعنا ومن أجل خدمتنا.

---

[٥٩١] صحيح البخاري ج ٥ ، ص٣٥٦.

[٥٩٢] يس ، ٧١ . ٧٣.

وفي قوله تعالى أيضاً: (وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا)[٥٩٣] أي أن الجنة التي ينالها الخليفة قد قربت ظلالها وأشجارها منهم، وأنها قد ذُلِلَ وسُهِلَ اجتناء ثمارها كيف شاء قعوداً وقياماً ومتكئين، أي أنه سهل عليهم اجتناء الثمار كيفما كانوا وفي أي وقت شاءوا، فإذا قام ارتفعت بقدره، وإن قعد تدلت حتى ينالها، وإن اضطجع تدلت حتى ينالها فذلك هو تذليلها.[٥٩٤]

وقال تعالى أيضاً: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[٥٩٥] الأرض مذلولة بأسباب العطاء، فهي التي منها يعطى ومنها يؤخذ ولكل أسباب، فسبحان الله كانت الأرض ذلولة لأبونا آدم وأمنا حواء، حيث بسطت لهما بساط الحياة من كل مشبعاتها المتنوعة والمتعددة، بمياهها وأشجارها وثمارها وعسلها ولبنها وجميع خيراتها حتى أنهما آكلا وشربا وتنعما فيها، والعباد من بعدهم يتنعمون قال تعالى: {الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبيل}[٥٩٦]، وقال تعالى: {الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء}[٥٩٧] وقال تعالى: {سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض}[٥٩٨]. إلا يكون هذا إذلالا وتذليلا لمن خلق خليفة في أحسن تقويم؟. بطبيعة الحال نحن الذين جلدتهم من هذه الأرض المباركة التي ذللت لنا ولكل ما خلق الخالق جل جلاله، وكذلك جاء في قوله تعالى: (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [٥٩٩] والذُّلُل جمع ذلول أي مذللة ومسهلة لها، وجاء في قوله تعالى: (قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ

---

[٥٩٣] الإنسان ، ١٤ .

[٥٩٤] تفسير الطبري ، ج٢٤ ، ص ١٠٣ .

[٥٩٥] الملك ، ١٥ .

[٥٩٦] طه، ٥٣.

[٥٩٧] البقرة، ٢٢.؟

[٥٩٨] مريم، ٣٦.

[٥٩٩] النحل ، ٦٩ .

لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)[٦٠٠] أي أنها الحرة الصعبة التي لم يذلها عمل، وهذا يعني أن كلمة ذلول بدون النفي هي السهولة، ومن خلال كل تلك الآيات يكون معنى التذلل والذلول المشتقة من الذل هو اليسر والسهولة، أو التيسير والتسهيل، وعليه فإن الله سبحانه وتعالى مذللاً ومذلاً لكل هذه الأشياء فهو الذي يذلل لنا الرزق ويذلل لنا الأرض والدواب والرياح والأمطار وكل أمور حياتنا ومعاشنا في الدنيا وكذلك يذلنا لها، ولولا هذا التذليل لما تمكنا من أن نستقر على وجه الأرض لحظة واحدة، فهي المتحركة بالسرعة والقوة التي لو لم يُذلها المذل الأعظم لتطايرنا من على ظهرها، ولو لم تكن ذلولة ما بنينا فوق ظهرها القصور والعمار حتى لا مسنا السحاب بناطحاته، فالإنسان مخلوق ضعيف أمام كل هذه المخلوقات العظيمة ولولا تسخير الله تعالى لها لما استطاع الإنسان أن يملك زمامها، وقد جاء هذا المعنى صريحاً في قوله تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٦٠١]، ولهذا لابد للإنسان الذي استخلفه الله تعالى في الأرض أن يكون متصفاً بهذه الصفة من التذليل فيعمل على التسهيل والتيسير في كل أمور الحياة، فيكون سهلاً في التعامل مع الآخرين ويحاول أن يذلل كل العقبات التي تحول بينه وبين غيره ممن لهم معه احتكاك مباشر أو صلة قرابة، وأن يكون كذلك ميسراً لأعمال العباد التي أُنيطت به إن كان موظفاً موكلاً بأداء مصالحهم ولا يتعمد تعقيدهم والتلكؤ في إنجاز تلك المصالح وقد أمرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالتيسير في قوله: "يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا"[٦٠٢].

الضعف:

الضعف في مفهوم الغالبية هو المعاكس لمفهوم القوة، إلا انه في حقيقة الأمر هو قوة، ولكن صاحبه لا يفوز إن دخل أسواق المنافسة الحرة، ولذا فإن الضعف هو القوة التي تقاس بما

---

[٦٠٠] البقرة ، ٧١ .

[٦٠١] النحل ، ١٢ .

[٦٠٢] صحيح البخاري ، ج١ ، ص١٢٢.

هو أقوى منها فتصبح الموصوفة أمام أفعال المقارنة بالضعف، ويتضح على هذا الأساس الفرق بين الضعف والذل، فالإنسان قوة هائلة، تُحقق نجاحات إذا ما استثمرت استثماراً أمثل. يستمدها من القيمة التي قوَّمه الله بها. هذا التقويم هو الذي جعل من الفرد قوة، ومن الجماعة قوة مضاعفة ومن المجتمع أكثر قوة.

وبما أن الإنسان خُلِق في أحسن تقويم.

إذن هو مقوّم بما هو عليه من قوة.

ولهذا كل ما نراه من المخلوقات قوي فهو ضعيف أمام قوة الإنسان العقلية والحسية والذوقية.

وأيضا مهما نُظر للإنسان بأنه قوة، فهو الضعيف أمام قوة خالقه جل جلاله. ولذا فإن كل شيء ممكن هو في دائرة النسبية، حيث لا مطلق إلا من عند الله تعالى.

فالإنسان بقوته يتفكّر ويتذكّر، ويستقرئ ويستنبط، ويخطط ويقدم فينجز، ثم يُقوِّم فيُصحح أو يُطوِّر.

ولذا فالقاعدة هي: {الإنسان قوة في دائرة الممكن).

والاستثناء هو: {الإنسان ضعف في دائرة الممكن).

ولأنّ الضعف والوهن هو خروج عن القاعدة، لذا يعمل الأخصائيون الاجتماعيون عليه عند دراسة الحالات، لأجل تحويله إلى القوة أو عودته إليها.

وبالرغم من أن الإنسان قوة؛ إلاَّ أن هناك بعضا من الأفراد الذين يواجهون وهناً في طبيعتهم الخَلقية، حيث المعتوه الذي يعاني من تأخر في قدراته العقلية، والذي تعطّلت بعض من حواسه، ونجد البعض يعيش في تأزُّماته الحياتية، هؤلاء هم في حاجة لمن يقدم إليهم المساعدة الهادفة: الخدمية والتأهيلية والإصلاحية والمعرفية.

وعليه:

متى يكون الأفراد أو الجماعات قوة؟.

١ . عندما يندمجون بقوتهم مع قوة الآخرين بإرادة.

٢ . عندما يتمكنون من ممارسة حقوقهم.

٣ . عندما يلتزمون بتأدية واجباتهم.

٤ . عندما يكونون قادرين على حمْل المسؤوليات.

٥ . عندما يكون لسان حالهم (نحن سويا). كقولهم لا للفساد، نعم للإصلاح- لا للكسل، نعم للعمل.

٦ . إذا تمكنوا من استيعاب بعضهم بعضا دون تفرقة وتحسس.

٧ . إذا تمكنوا من التطلُّع للآخرين.

٨ . عندما يتهيئون لأحداث التغيير إلى ما هو أفضل وأحسن وأجود.

٩ . عندما يلعبون أدوارا وصلاحيات واختصاصات بمهارات متنوعة.

وبما أن كل فرد قوة، إذاً يجب أن يكون لكل فرد دور يؤديه، ومن ينحرف عن دوره تصبح قاعدة الوجوب إصلاحه ليعود إلى مركزه الطبيعي، وهو القوة الفاعلة مع بقية مفردات المجتمع. ونظراً لوجود الفروق الفردية في القدرات والاستعدادات والمهارات والتخصصات، فإن الأدوار تتنوع وفقاً لذلك.

١٠ . عندما يستثمرون إمكاناتهم المادية الاستثمار الأمثل، تمشياً مع كل حلقة من حلقات التطّور والتقدم التقني والعلمي.

١١ . عندما تُشبع حاجاتهم المتطورة.

١٢ . عندما تسود العدالة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات، ويقدر الأفراد والجماعات حق قدرهم.

١٣ . عندما يكون التطلّع للمفيد والنافع قيمة في السلوك والفعل.

١٤ . عندما تصبح الثروة ملكا عاما لأفراد المجتمع دون أي حرمان من الملكية الحرة والاستثمار الحر.

١٥ . عندما تلغي من القواميس السياسية والاقتصادية والاجتماعية كل كلمات الإكراه والإجبار بغير حق.

١٦ . عندما تكون الثروة قوة تمكن الأفراد والجماعات من تجاوز الحدود.

١٧ . عندما يكون التعليم قويا. وقوة التعليم ليست ألفاظ ومقررات، ولكن التعليم بما يحققه من منجزات إضافية على قوة أفراد المجتمع.

١٢ . عندما يرتفع المستوى الصحي للأفراد والجماعات. فالصحة قوة، والأفراد الذين يغفلون عن هذه القوة، يضعف مستوى أدائهم وإنتاجهم، ومتوسط أعمارهم. لذلك كلما كانت قوة الإنسان وصحته سليمة، تمكّن من تجاوز الصعاب، والتطلّع بدون تردد إلى الأمام، بما يحقق أهدافا، وينجز أغراضا، ويبلغ غاياتٍ.

وكما عرفنا أن الأفراد والجماعات قوة بوحدتهم وكيانهم، نتعرّف أيضاً كيف أن القوة الكلية تتجزأ إلى الآتي:

. قوة العقل.

. قوة الحواس.

. قوة النفس.

. قوة العاطفة.

. قوة الإرادة.

. قوة القرار.

. قوة التنفيذ.

. قوة المتابعة.

. قوة التقويم.

. قوة التصحيح.

يستمد الإنسان قوته من قوة خالقه، ويستمد قدرتهُ من قدرتهِ، وكل معطيات القوة يمكن أن تكون بيده إذا عرف أنّ عقله قوة، وقدراته قوة، ومهاراته قوة. وإذا فكر وخطط، ورسم الاستراتجيات أنجز أهدافه بكل قوة، وإذا لم يستثمر ذلك فلن يكون إلا ضعيفا.

ولأن الإنسان قوة في خلقه كمفردة بشرية فهو أقوى على المستوى الجماعي والأكثر قوة على المستوى المجتمعي.

وعليه فالإنسان قوة في خلقه كمفردة بشرية، وهو أقوى بمشاركته الجماعة، والأكثر قوة بتوحده مع المجتمع.

وعليه فالقاعدة هي:

١ . الفرد أقوى بمشاركته الجماعة.

٢ . الفرد أكثر قوة بمشاركته المجتمع.

والاستثناء هو:

١ . الفرد ضعف إذا ما قورن بقوة الجماعة.

٢ . الفرد أكثر ضعفا إذا ما قورن بقوة المجتمع.

ولهذا فإن القوة الاجتماعية تكمن في الأتي:

. قوة العلائق وترابطها.

. قوة المشاركة وحجمها.

. درجة التفاعل وتماسكها.

. قوة التنظيم وتشريعاته.

. قوة الدين وتسامحه.

. قوة العرف و أصالته.

. قوة القوانين وشفافيتها.

. ممارسة الديمقراطية بإرادة.

. اتخاذ قرارات واعية.

. تنفيذ القرارات بوعي.

. حمْل المسؤوليات وتحمُّل ما يترتب عليها من أعباء.

. مستوى التطلع ودرجاته القيمية.

قال تعالى في كتابه العزيز: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا)[٦٠٣] وتفسير هذه الآية أن الله تعالى أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والأمر من بعده لكل من آمن بالله وصدّق نبيه عليه الصلاة والسلام فيما جاء به من تشريع من عند الله تعالى، بأن يحمد الله على أنه لم يتخذ ولداً فيكون بذلك مربوباً لا رباً لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد، وكذلك لم يكن له شريك في الملك فيكون بذلك عاجزاً ذو حاجةٍ إلى معونة غيره ضعيفاً سبحانه وتعالى عن ذلك فلا يكون إلهاً من يكون محتاجاً إلى معين على ما حاول، ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان، وأن الحمد لله على أنه لم يكن له ولي من الذل أي لم يكن له حليف من الذل الذي به، أي الضعف، لأن من كان في حاجة إلى نصرة غيره فهو ذليل مَهين ولا يكون من كان ذليلاً مهاناً يحتاج إلى ناصر إلهاً يطاع.

فجاءت كلمة الذل هنا بمعنى الضعف، والله سبحانه وتعالى لم يكن له ولي لأنه لم يكن ضعيفاً محتاجاً لنصرة غيره، بل أن ذلك يستحيل في حقه فقد وصف الله تعالى نفسه في أكثر من آية بأنه القوي العزيز، ووصف نفسه أيضاً بالقدرة على فعل أي شيء يريده، (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)[٦٠٤]، أي أن الله سبحانه وتعالى لا يكيده شيء عن تنفيذ إرادته ولا يعجزه شيء في هذا الكون كله، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)[٦٠٥]. وعليه فبمقارنة القوي بمن هو

---

[٦٠٣] الإسراء ، ١١١ .

[٦٠٤] البروج ، ١٦ .

[٦٠٥] الأنفال ، ٥٢ .

أقوى منه يصبح القوي ضعيفاً ويزداد القوي قوة فيتعالى وهذه صفة الخالق عز وجل، ويصبح الإنسان الموصوف بالقوة ضعيفا. ولهذا خلق الإنسان ضعيفا لأنه مخلوق بالقوة من القوي الأعظم الذي لن يكون هناك مجال للمقارنة معه سبحانه وتعالى عما يصفون. ولذا فإن المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وذلك بأسباب خلقه في أحسن تقويم، وبإيمانه بقوته التي يستمدها من القوي الأعظم، ولهذا فمن يعتمد على الله ويتوكل عليه فهو حسبه، ومن يتوكل على غيره كفرا وشركا فيكون ضعيفا.

وقال كذلك: (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)[٦٠٦]، وقال تعالى: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)[٦٠٧].

وعلى ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يحب أن يكون خلفائه متصفين بصفاته، فلذلك لابد أن يحرص من يريد أن يكون خليفة لله على أن لا يكون ضعيفاً أبداً ولا يبقى في حاجة دائمة لغيره في كل متطلباته التي تقوم عليها حياته فيكون بذلك تابعاً لمن يحقق له تلك المتطلبات ذليلاً له، لأنه إن امتنع ذلك الشخص المعين له عن تقديم العون وتوفير حاجياته له فإنه سيصبح ذليلاً له من أجل توفير احتياجاته اليومية، ففي الحاجات دائماً تكمن الحريات، فلو كان الشخص مالكاً لحاجاته منتجاً لها فسيكون بالتالي حراً، لا يمكن أن يتحكم فيه أي شخص كان، ولا يستطيع أن يذله، وإن لم يكن كذلك فإنه سيبقى تحت رحمة من بيده تلك الحاجيات، يتحكم به كيفما شاء.

ولهذا فيجب على الإنسان الذي استخلفه الله سبحانه وتعالى في أرضه أن يكون متصفاً بصفات الله عز وجل ومنها القوة التي لن يحتاج معها لأن يكون له ولي إلا الله القوي المتعالي، فلابد لخليفة الله تعالى أن لا يكون ضعيفاً، في حاجة دائمة لمن يمدونه بالعون والنصرة في أصغر أموره وأدقها، وعليه أن يعمل بقدر المستطاع على تقوية نفسه علمياً

---

[٦٠٦] المجادلة ، ٢١ .

[٦٠٧] النجم ، ٥ .

وتقنياً واقتصادياً، وفي كل النواحي التي تعطيه الاستقلالية التي هي بالتالي تكون بمثابة الدرع من أن يكون تابعاً لغيره، ذليلاً له.

وكذلك لابد أن يثبت للجميع أنه ليس ضعيفاً، عاجزاً عن المعاقبة والدفاع عن نفسه، فلا يكون سكوته عن إساءة أو إهانة من أي شخص ناتجاً عن ذل وخضوع وضعف، بل عن حلم، والحلم يستوجب القدرة على إنزال العقوبة المناسبة في الوقت المناسب بمن أساء إليه، ومن عفا وأصلح فأجره على الله وقل قوله تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[٦٠٨].

والذل بالنسبة للعباد قسمان:

أولاً: قسم يذل صاحبه في الدنيا والآخرة:

وذلك أن يكون العبد ذليلاً لغير الله سبحانه وتعالى، ويحدث هذا عندما يضع الإنسان نفسه ضمن قائمة الضعفاء والجبناء والجهلة والمشركين، الذين بجهلهم وبكفرهم يعبدون أنواعاً من الآلهة المتعددة التي يخلقونها وهي لا تخلق لهم شيئا، ولهذا لن تنفعهم شيئا، فيتذلل لها بجهله، يطلب منها الصفح والعفو والعون والرزق والنصرة، وفي واقع الأمر لا يقدم كل تلك الاحتياجات سوى الله عز وجل خالق الأشياء كلها، فقد قال تعالى: (أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ)[٦٠٩]، وقال سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)[٦١٠].

---

[٦٠٨] الأعراف، ١٩٦ . ١٩٩.

[٦٠٩] الملك ، ٢١ .

[٦١٠] فاطر ، ٣ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان؛ ولهذا قال: {لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) ، أي: فكيف تؤفكون بعد هذا البيان، ووضوح هذا البرهان، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان؟[٦١١] وكذلك الضعف والجبن عن الدفاع عن النفس والوطن والدين والمقدسات والحرمات، هذا في الحقيقة ذل مهين لصاحبه في الدنيا والآخرة، فالهرب من ساحات الشرف والبطولة يلحق بصاحبه ذلاً في الدنيا وخزياً ومهانة في الآخرة، فبعد ذل صاحبه بين الناس، هناك عقاب الله تعالى له وسخطه عليه.

وكذلك انقياد الشخص وراء الشهوات إلى درجةٍ تجعله عبداً لها خاضعا، تابعاً، مغمض العينين عن نتيجة ما هو فيه، تفكيره ملغي في غير شهوته، لا يدري أي منحدر هو متجه إليه، كحب الشخص للمال، لدرجة أن يصبح عبداً لهذا المال فيكون بخيلاً، لا ينفق من مال الله عز وجل الذي استخلفه فيه، ولا يؤدي فيه حق الله تعالى من الصدقات والزكاة، فيكون نتيجة كل هذا احتقار الناس له في الحياة الدنيا، وعقاب الله تعالى له في الآخرة، وكأنه لا يعلم أن من يتذلل لغير الله سبحانه وتعالى فإنه ذليل في عين نفسه أولاً وفي أعين من حوله ثانياً، فمن طلب العزة من غير الله ذل، فلا عزة إلا بالله عز وجل.

لا بد أن يتذكر الإنسان أن الله سبحانه وتعالى بيده مقاليد الأمور جميعاً، وإذا استسلم الإنسان لهذا الشعور، واعتقد به، فإنه سوف يصل إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى، ومرضاة نفسه، ومرضاة من حوله، ولكان حافظ على عزته وقوته، ومنع نفسه من الإذلال والخنوع الناتجين عن خوفه من هذا أو ذاك.

ثانيا : قسم يعز صاحبه في الدنيا والآخرة:

وهذا النوع يتمثل في تذلل العبد لله وحده لا شريك له، لأن الإسلام في حقيقته ومعناه هو الانقياد والخضوع لله عز وجل في كل أوامره ونواهيه، ولا يتحقق الانقياد التام لله سبحانه وتعالى إلا بالتذلل الذي لا يورث صاحبه إلا العزة والعظمة في الدنيا والآخرة، إذا كان

[٦١١٦١١] تفسير ابن كثير ، ج٦ ، ص٥٣٣ .

الإنسان متخلقاً بخلق الإسلام حقيقة بالقول والفعل، لا متستراً تحت ستار لتحقيق أغراض ومآرب شخصية دنيئة، فيكون محترماً من جميع المحيطين به، ويكون له في الآخرة بفضل هذا التذلل المكانة العالية والرفيعة عند الله سبحانه وتعالى، وبهذا تتحقق لهذا الإنسان العزة في الدنيا والآخرة.

الدعاء باسم المذل

يكون الدعاء باسم المذل دعاء مسألة، بأننا نسأل الله سبحانه وتعالى المذل والمعز أن يذل من اعتدى وطغى وظلم وتجبر، ولا نسأل ذلك من أي شخص، فالله وحده هو مجيب الدعاء ومفرج الكرب وكائد الكائدين والماكر بالماكرين وهو الرحمن الرحيم.

اللهم أعز من استخلفت في الأرض بالإسلام في كل مكان، وارفع عنهم الظلم والذل والقهر، وأذل أعداء الإسلام والمسلمين واكسر شوكتهم.

ويكون كذلك دعاء عبادة بأن يتحلى من كان خليفة لله عز وجل بكل معاني هذا الاسم، فيكون مذلاً لنفسه، مذللاً لها في طاعة الله وفي الابتعاد عن النواهي، ويكون مذلاً لمن يستحق الإذلال على قدر يناسب ما ارتكب من جرم، فلا يكون بذلك ظالماً لغيره بزيادة العقاب، وأن لا يكون ضعيفاً هشاً، لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب أن يكون أتباعه جبناء أو ضعفاء فالله قوي يحب خلفائه أقوياء.

الضعف دائما يقود أتباعه إلى الهزيمة والخنوع، وهذا يتنافى مع ديننا الحنيف الذي إذا كنا نسعى لأن نكون خلفاء الله تعالى في الأرض فإنه سوف يقودنا إلى النصر في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولا نصر ولا فوز إلا بالقوة التي تتعدد من الإيمان بالله وهو رأس كل قوة، إلى إصلاح الأرض وعدم سفك الدماء فيها بغير حق، وسوف يجعلنا أعزاء بالحق، أقوياء به، لا نتذلل لهذا أو ذاك، ولا نطأطئ رؤوسنا هلعاً وخوفاً إلا له طاعة وإجلالا، وإذا وصلنا إلى الإيمان بأن الله هو الذي بيده أن يعز من يشاء وأن يذل من يشاء. لابد أن يعي الخليفة أن الحق لا يحميه إلا القوة.

وعليه لا مجال للمقارنة بين الضعف الذي لم يكن صفة من صفات الله تعالى وبين الذل الذي هو صفة حسنة من أسمائه الحسنى، فالذل رأفة وعزيمة وقرار وقوة واحترام وتقدير للظرف والمكان والمقام والزمان والموضوع. ولذا فمن استمد صفته من المذل الأعظم يصبح خليفة يحكم بالعدل مع فائق التقدير والاحترام وبكل قوة وعزيمة، يخفض لوالديه جناح الذل من الرحمة ويدعو لهما بالرحمة من الرحمن الرحيم الذي أذل العبد بعاطفة الأبوة والأمومة والأخوة فجعل المحبة بين الخلائف رحمة، ويذل نفسه طاعة لله، ويعمل بقوة المذل على إذلال العصاة حتى الطاعة لوجهه الكريم، ويقول الحق الذي به يُذل الباطل ويُدمغ حتى يزهق، ولذا فهو لا يسرق ولا يزنى ولا يشرب مسكرا ولا يقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. يأنس الآخرين ويحمد الله على مؤانستهم له ويعمل صالحا يرضاه المذل المطلق والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا المذل ذلل لنا السحب بالأمطار والغيث النافع، وذلل لنا الصعاب من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وذلل لنا العلم حتى نتقيك في كل كبيرة وصغيرة وذلل لنا رضا الوالدين حتى نفوز برضاك والجنة، وذلل لنا الحماية والحفظ من كل شر وفي كل بر، وقنا من شرور الحادثات وأمطر رحمتك علينا رحمة في الدارين ولا تجعلنا نعمل ما يثير غضبك علينا وقنا عذاب النار وأدخلنا الجنة مع الأبرار واستغفر الله العظيم من كل ذنب والحمد لك واحد أحد لا شريك لك، لك الملك، ولك الحمد، والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا المذل أذل الشرك والمشركين وأعز الإسلام والمسلمين، اللهم انصر جنودك في مشارق الأرض ومغاربها، اللهم انصرهم نصرا عزيزا تعز به عبادك المؤمنين، وتذل به الكفر وأتباعه.

اللهم أذل من يريد أن يذل الضعفاء، اللهم أذل من يريد أن يذل المسلمين، اللهم أذل من يريد أن يذل الإسلام، اللهم أذل من يريد أن يذل المصلحين في الأرض، اللهم أذل العابثين والمفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق. اللهم أذل الذل في نفوسنا حتى نكون على

طاعتك أقوياء، اللهم إن بعض الظن إثم فاجعله ذليلا أمام حجَّتك التي بها نتقيك، اللهم أذل من يريد بنا ذلا، اللهم أذل المستعمرين الذين يريدون أن يخرجوا العباد من ديارهم بغير حق.

السميع

اسم (السميع) "يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة"[٦١٢].

السميع "هو الذي يسمع السر وسامع في كل شيء"[٦١٣].

السَّمِيعُ "هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى، سَوَاءٌ عِنْدَهُ الْجَهْرُ وَالْخَفْتُ، وَالنُّطْقُ وَالسُّكُوتُ"[٦١٤].

وفي قصيدة ابن القيم:

وهو السميع يرى ويسمع كل ما ... في الكون من سر ومن إعلان

ولكل صوت منه سمع حاضر ... فالسر والإعلان مستويان

والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفى بعيدها والداني[٦١٥]

السميع اسم من أسماء الله الحسنى، وهو الذي لا يعزب عن إدراكه أي مسموع وإن خفي، فإنه عز وجل سميع لا يحتاج في سمعه إلى آلة سمع، وإلاّ لانتفت عنه صفة الكمال لوجود نقص في السمع، ولكن الله سبحانه وتعالى كامل منزه عن النقص.

فالسميع اسم لله متضمن لمعنى كمال السمع وكمال الإدراك والقوة، وقد سمّى الله عز وجل نفسه في الكثير من الآيات القرآنية بهذا الاسم كما في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٦١٦]، أي أن الله جل جلاله منزه ومُطَّهَر عن المثيل والشبيه والند والكفؤ.

السميع اسمه جل جلاله وفعله السمع، وهو أليق بجلال الله تعالى وكماله من اسم سمَّاع، لأن السمّاع في معناه هو كثير السمع لما يسمع بواسطة آلة السمع فهو إذن كثير السمع لما يقال، ولا يمكن للسمّاع أن يسمع دون آلة للسمع، وكذلك السمَّاع في كثير من الأحيان يخطئ وهذا ليس من صفات الله وأفعاله الطاهرة، وكذلك السماع الذي في حاجة للآلة هو من ضعف سمعه إذا تعطلت آلته حُدَّ من سمعه وهذه ليست من صفات السميع العليم جل

---

[٦١٢] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٢٢.

[٦١٣] تفسير أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٤٢.

[٦١٤] الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١ ، ص ١٢٠.

[٦١٥] شرح قصيدة ابن القيم، ج ٢، ص ٢١٥.

[٦١٦] الشورى، ١١ .

جلاله، ولذا من حُدَّ من سمعه بحدود الزمان أو المكان أو الآلة يكون عُرضة للنقص والعيب، فينقص سمعه، ويغيب عنه الكثير مما يدور من حوله مما يضعف علمه بالحوادث، وهذا يستحيل في حق الله عز وجل وهو السميع العليم.

العليم الذي يعلم كل ما يدور في ملكه من أشياء، قال تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٦١٧]، فهو وحده الذي يعلم علم ما كان وما سيكون وما هو كائن ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة في ملكه، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٦١٨]، كيف لا وهو الكبير المهيمن العليم السميع البصير. وعلم الله تعالى لا يتوقف على آلة إدراك كسمع وبصر ولمس وغيرها، فهو جل جلاله يعلم الأشياء بمطلق العلم، ويسمع بمطلق السمع، ويبصر بمطلق البصر، دون الحاجة إلى آلات إنه خالق الأشياء سبحانه وتعالى لا يحتاج لشيء.

فلا نقول بتعطيل صفات الله تعالى كما فعلت المعطلة من أنهم فسروا هذه الصفات بالقدرة والسطوة، ولكن نقول لله تعالى يدٌ ولكن ليست كأيدي مخلوقاته، ويسمع ويبصر ليس كسمعنا وبصرنا ليس كمثله شيء قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ

---

[٦١٧] آل عمران ، ٢٩ .

[٦١٨] الأنعام ، ٥٦ . ٥٩ .

نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ}[٦١٩].

وهل يكون العلم إلا عن طريق السمع والبصر؟ بالتأكيد يكون ذلك العلم بدون الآلات متحتما ولكن في حق الله عز وجل، السميع المطلق والبصير المطلق والعليم المطلق.

أما في حق السميع بالإضافة، فلا يمكن أن يكون علمه إلا عن طريق ما أعطاه له الله تعالى من سمع وبصر، وما خصه به تعالى من عقل وبصيرة فقد زوده الله تعالى بهذه الصفات المستمدة من صفاته الكريمة، فلم يتركه أعمى ولا أصماً بل جعله في أحسن تقويم سميعاً بصيراً ليتمكن بهما من الطاعة وإدراك المعاصي والابتعاد عنها، قال تعالى في كتابه العزيز: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}[٦٢٠].

ولو لم يكن ذلك الكرم من الله عز وجل على الإنسان الذي خلقه من بداية خلقه ليكون خليفته في الأرض، يعمرها بطاعة خالقه جل جلاله وذلك كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأسماء هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[٦٢١]، لقد حُقَّ للإنسان أن يتحمل الأمانة التي حمَّلها له الله سبحانه وتعالى، فكان الخليفة التي جعله الله في الأرض

---

[٦١٩] الشورى ١١ . ١٣.

[٦٢٠] الإنسان ، ١ . ٥.

[٦٢١] البقرة ، ٣٠ .٣٤ .

مصلحا لا مفسد ولا سافك دماء، ومع ذلك الأمانة ثقل من يعلم بأعبائه قد لا يحمله، ولكن اختيار الله للإنسان واصطفاه لحملها قد ميزه بالاستخلاف فيها مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٦٢٢].

واسم السميع في حق الله تعالى، يدل على اللا حدود في السمع، كيف لا وهو الذي وسع سمعه كل شيء، فسبحانه الذي لا يشغله سمع عن سمع آخر. نحن بني آدم نسمع الأصوات متفردة بالتمييز ولا نميزها في اللحن إلا كقول واحد، أما السميع فهو القادر على التمييز بين ما خلق وهذه صفة تفرد له دون غيره، ولذا فهو الواحد الأحد.

فبالرغم من اتساع هذا الكون الهائل واختلاف أجناس العالَمين، إلاّ أن الله سبحانه وتعالى قادر على السمع المطلق الكامل الذي لا يشوبه أي عيب أو نقص.

وهذا الاسم يجب أن يُفْهَم مدلوله فهماً صحيحاً لدى خليفة الله تعالى في الأرض، فمن أراد أن يكون خليفة لله في أرضه لابد أن يتصف بصفاته، فيكون سميعاً للحق ولأوامر الله جل جلاله، ويكون مطيعا بصيرا بما أمر كما في قوله تعالى في كتابه العزيز: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}[٦٢٣]، وكذلك في قوله جل جلاله: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}[٦٢٤]، إذا فالأصم هو عكس السميع تماماً، فالخليفة الذي يستحق أن يكون كذلك هو بعيد عن الصمم، بل هو سميع ومنصت ومجيب لما أمرنا الله تعالى به، قريب من خالقه.

---

[٦٢٢] الأحزاب ، ٧٢ .

[٦٢٣] الإنسان ، ١ . ٥ .

[٦٢٤] هود ، ٢٤ .

والقريب من الخالق لا يكون بالمجاورة الجسدية بين الخالق والمخلوق، فهذا الأمر يستحيل أن يكون، ولكن يكون القرب عن طريق الامتثال لأوامر الخالق عز وجل والالتزام بطاعته في كل ما أُمِرَ به وما نُهِي عنه. وكل هذه الأفعال من الخليفة تجاه من استخلفه تعتبر تقرباً إليه، وهذا التقرب بهذه الأفعال ينتج عنه حصول القرب بينه وبين الله جل جلاله. وتقرب العبد من ربه يكون بالطاعة لأوامر الله عز وجل، والأخذ بصفاته العظيمة وفي مقابل ذلك يكون تقرب الله تعالى من عبده بالرحمة والمغفرة والإجابة والهداية.

ومعنى السميع في حق الله تعالى، هو أنه يسمع كل ما قد قيل، وما يقال وما سوف يقال، ولا يتوقف سمعه على حدود الزمان أو المكان وهذا بالضرورة يعطينا معنى الإحاطة، فالله تعالى بسمعه المطلق هو محيط بكل هذا الكون الشاسع، وهو سبحانه وتعالى بعظيم قدرته وكمال صفاته وسع كرسيه السماوات والأرض فهو يحتوي كل شيء ولا يحتويه أي شيء، وهذا ما نجده واضحاً في الآية الكريمة: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[٦٢٥]، إن الله عز وجل بسمعه المطلق هو محيط بالكون، لا يمكن أن يفلت منه أي شيء مهما صغر وازداد دقة في التصغير، فالإحاطة بالشيء تستوجب القدرة عليه والهيمنة فوقه.

فالسميع المطلق هو المحيط بكل ما في ملكه بسمعه من أشياء، فلو لم يكن سميعاً لما كان محيطاً ولا مهيمناً ولا كبيراً، فسبحانه وتعالى هو السميع بهيمنته على خلقه وهو المهيمن بسمعه، فلا هيمنة دون سمع، أو بسمعٍ غير تام، وهذا يؤكد أن صفات الله تعالى كلها مترابطة مع بعضها البعض، كيف لا والموصوف بها واحدٌ كاملٌ لا نقص في صفاته جل جلاله.

---

[٦٢٥] الأنعام ، ١٠٢ ـ ١٠٥.

والسميع بالإضافة هو المستمع لكل ما يقع تحت سمعه من أقوال في حدود المكان الذي يوجد فيه وكذلك في حدود الزمان، فهو لا يستطيع سماع ما في الماضي أو المستقبل من أخبار، وكذلك لا يمكنه سماع ما يدور في الوقت الحاضر من قول إذا لم يكن ذلك القول في حدود مكان وجوده، وبالتالي فالسميع بالإضافة محيط بما يسمع ويدرك في حدود الزمان والمكان وهو بذلك يكون مهيمناً على ما يصل إليه سمعه. ولذا فالخليفة السميع هو الذي يستجيب مع كل أمر بالعمل الصالح أو بالانتهاء عما نهى الله عنه أو بالتجنب عنه أو بالأخذ به وفي ذلك يقدر الله الأمر تقديراً وكل شيء بحسبان.

فإحاطة الخليفة وهيمنته جزء من هيمنة الله سبحانه وتعالى، والإحاطة بالشيء متضمنة القدرة عليه، فعلى المحيط بالإضافة أن يتذكر قدرة المحيط المطلق عليه لأنه داخل ضمن إحاطته، وبالتالي فهو قادرٌ على عقابه وحسابه وهو أيضاً عالم بما يفعل أو يقول أو يضمر من خير أو شر.

في حين أننا نجد بعضاً من البشر يتناسون هذه الصفة في حق الله تعالى، فنراهم يتصرفون وكأن الله جل جلاله غائب عن مجالسهم ، منحدرون في النميمة وقذف الناس وسبهم، يعيشون في مستنقع الكذب والرذيلة، وكأن الله تعالى لا يسمعهم ولا يحيط بهم، لكنه عز وجل مهيمن على سائر المخلوقات بسمعه وعلمه وهو يمهل ولا يهمل، لذلك أمر الإسلام المؤمنين إذا سمعوا منكراً عليهم أن يقفوا له بالمرصاد ولا يصدقوا كل ما يسمعون فيقعون في الضلال، وهذا يتضح في قصة الإفك كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمَ اللَّهُ

أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[٦٢٦] وهناك فرق بين السمع والاستماع، فالسمع هو سمع الكلام وفهمه وإدراك مقاصده والرد عليه إن رأى أن الرد واجب، والأخذ بما سمع ورآه صواباً وترك ما سمع ورأى أنه يتنافى مع الحق، وهذا المعنى من السمع متحققٌ بالضرورة في السميع المطلق، فهو يدرك كل ما يسمع ولا يمكن أن يغفل عن أقل ما يقال، فيسهو عن فهمه أو إدراكه، قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[٦٢٧]. نزلت هذه الآيات بأسباب يقال دخل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بيت المدراس، فوجد من يهود أناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له (فِنْحَاص) وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْرٌ يقال له: أشيع. فقال أبو بكر: "ويحك يا فِنْحَاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله -يا أبا بكر- ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعْطناه ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر، رضي الله عنه، فضرب وجه فِنْحَاص ضربًا شديدًا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله، فَاكْذبونا ما استطعتم

---

[٦٢٦] النور ، ١١ ، ١٨ .

[٦٢٧] آل عمران ، ١٨١ ـ ١٨٥ .

إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: "ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْت؟" فقال: يا رسول الله، إن عَدُوَّ الله قد قال قولا عظيما، زعَم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضبْتُ لله مما قال، فضربت وجهه فجَحَد ذلك فنحاص وقال: ما قلتُ ذلك فأنزل الله فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقًا لأبي بكر: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)"[٦٢٨] ولأن الله قريب رقيب مجيب الدعاء فهو بطبيعة الحال يسمع ما يقال ويعلم بما سيقال قبل قوله، ولذا فمن يسلم بعلمه أمر الغيب وما تكنه الصدور وتخفيه لا يستغرب بأنه قد سمع قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، ولهذا فقد وقع سمع الله لقولهم وجاء رده عليهم بتوعده لهم بالعذاب والعقاب في الآخرة [٦٢٩].

وقال الله سبحانه وتعالى كذلك: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[٦٣٠]. سبب نزول هذه الآية الكريمة، قيل عن عائشة أنها قالت: "تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة فكلَّمتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، وأنا في جانب البيت اسمع كلامها، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله: أبلى شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات .

وفي هذه الآية وقع سمع الله تعالى لقول المرأة التي تجادل الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتشتكي زوجها إلى الله عز وجل، فأدرك ما تقول وجاء رد الله تعالى عليها بأن أنزل في الآية التي تليها الإجابة وهي ما يتعلق بأحكام كفارة الظهار، قال تعالى: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ

---

[٦٢٨] تفسير ابن كثير ، ج٢ ، ص٧٦ .

[٦٢٩] المصدر السابق، ص ٢٩.

[٦٣٠] المجادلة ، ١ .

وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[٦٣١].

وكذلك يتحقق هذا المعنى من السمع في حق السميع بالإضافة، والسميع غير السمَّاع أو المستمع فالسميع صفة ربانية ترتبط بالذات العلية وتستمد منها عندما تُتبع بالطاعة التامة في الاستماع للقول الذي يحمل الأمر ويؤخذ به والقول الذي يحمل النهي أو الاجتناب ويؤخذ به والقول الذي به تزداد التقوى. وبذلك يستخلف الإنسان السميع بالطاعة التامة التي تترسخ وتتأكد بالعمل الصالح. أما السماع والمستمع، فحالهما يختلف عن حال السميع، فأولئك السمَّاعون والمستمعون قد لا يأخذون بما سمعوا وقد يحرِّفون ما سمعوا وقد لا يطيعون ما سمعوا وقد لا ينتهون بعد ما سمعوا، ولذا فكل من زوده الله تعالى بحاسة السمع والعقل يمكن أن يكون سامعاً مدركاً لما يقال، ويمكن أن يرد على ما يسمع بالقول أو الفعل وقد جاء هذا في قول الله جل جلاله في كتابه العزيز: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}[٦٣٢] ، وكذلك جاء في قوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}[٦٣٣].

ومن هذه الآيات يمكن أن نرى أن كل الناس يمكن أن يسمعوا ويدركوا ما يسمعون، ولكنهم مع هذا لا يكونون متصفين بصفة الله عز وجل السميع، فلا يستحقون أن يخلفوا الله تعالى في الأرض، لأن الإدراك هنا عند هذا النوع من البشر لا يؤدي إلى معرفة الحق والوصول إليه، بل أنهم لا يصلون بهذا السمع إلا إلى الضلال.

وخلافة الله تعالى في الأرض نوعان: خلافة اصطفاء لمن يختارهم الخالق جل جلاله ويصطفيهم من الأنبياء والرسل ليحملوا لواء الدعوة والتبليغ على لسان الله عز وجل، قال

---

[٦٣١] المجادلة ، ٢،٣ .

[٦٣٢] يوسف ، ٣١ .

[٦٣٣] الأنبياء ، ٦٠ .

تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى}[٦٣٤]، والنوع الآخر من الخلافة هي خلافة اختيارية، وهي التي تكون في عباد الله الذين يسعون إلى أن يكونوا خلفاء الله فيعملون على الاتصاف بصفاته، ويعملون على طاعته والتقرب منه سبحانه وتعالى.

فخليفة الله في أرضه لا يكون كبقية البشر في سمعه وإدراكه، فيسمع ما يريد أن يسمع ويدرك، فيرد كيفما أراد دون حدود في السمع والرد ولكن هذا الخليفة وهو السميع بالإضافة لا بد أن يحرص على أن يسمع من القول أفضله ويدرك معانيه ويفهمه ويأخذ به، ويحرص على أن لا يسمع لغو الحديث والكلام الذي لا يفيد، قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}[٦٣٥]، وهذا أمر من الخليفة المطلق إلى الخليفة بالإضافة، فالسمع هنا قد وقع لقولين الأول سماع آيات الله تعالى يُسْتَهْزَأُ بها والثاني لقول الله باتخاذ الرد المناسب منهم ترك هذا المجلس حتى يخوضوا في حديث غيره، وكذلك كان هذا الأمر للنبي – صلى الله عليه وسلم – وهو الخليفة الذي اختاره الله عز وجل لتبليغ الرسالة في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أنظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا

---

[٦٣٤] طه ، ١٣ -١٦ .

[٦٣٥] النساء ، ١٤٠ .

تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٦٣٦]، فالخليفة بالإضافة مأمور بترك الاستماع لما يقال في المجلس من استهزاء ولغو وفي الوقت نفسه مأمور بسماع قول الله عز وجل واتباع أمره حتى يخوضوا في حديث غيره.

أما الاستماع فهو استماع الكلام دون إدراك لمعانيه، إما لغفلة من السامع أو لنفاق منه وتهاون وعدم مبالاة به، قال تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[٦٣٧]. السميع بالإضافة هو الذي لا يغفل عما يستمع إليه من السميع المطلق، أما أولئك الغفلة فهم الذين جعل لهم الله تعالى حاسة للسمع وعقلا للتمييز وهم عن أمرهمهم غافلون أي غافلون عما قاله تعالى وهو خير لهم، ومع أنه خير لهم إلا أنهم لم يدركوا بعد هذا الخير وبعد فوات الأوان سيكونون من الخاسرين بأسباب الغفلة. ولذلك قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ}[٦٣٨] المنافقون والكفرة والمشركون دائما في المسلمين يظنون ظن الجاهلية، ومثل هؤلاء المستهزئون الساخرون من الحق هم الغافلون حقا فهم لا يدرون الساعة تأتي بغتة. وقوله (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ) هؤلاء المنافقون، دخل

---

٦٣٦ الأنعام ، ٦٣ . ٦٨ .

٦٣٧ الأنبياء ، ١ . ٧ .

٦٣٨ محمد ، ١٦ . ١٩.

رجلان: رجل ممن عقل عن الله وانتفع بما سمع ورجل لم يعقل عن الله، فلم ينتفع بما سمع، كان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع غافل، وسامع تارك"، وهؤلاء المنافقون الذين يستمعون إلى النبي عليه الصلاة والسلام لا يعون قوله ولا يفهمونه[٦٣٩].

لذلك لابد أن يكون الخليفة دائماً مستحضراً لسماع الله المطلق، فيكون سمعه للحق ومن أجل إحقاق الحق، وللعدل لا للظلم، وأن يكون قبل كل شيء سمعه للخالق، هذا هو السمع الحق كما أراده الله فينا، وإلا لما كان هذا السمع نعمة من الله سبحانه وتعالى لنا مثل كثير من النعم الأخرى، قال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}[٦٤٠]، أي أن الله أتم خلْقِه للإنسان وبعد ذلك أهداه نعمتي السمع والبصر، ثم جاءه التخيير فبعد أن يستمع له الاختيار إما أن يكون شاكرا على نعمه التي أنعمها عليه وإما أن يكون جاحدا كفورا ولكل حسابه. وللتمييز سيكون السميع مسلما طائعا، وسيكون غيره كافرا رافضا.

ولذا فالفرقٌ واضحٌ بين السمَّاع والسميع، فالسمَّاع ليس بالضرورة أن يكون سميعاً بل لقد جاءت كلمة سمَّاعون بمعنى جواسيس[٦٤١] كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}[٦٤٢]. فالسمَّاعون في هذه الآية هم المتخاذلون والمنافقون الذين يظهرون مالا يخفون.

---

[٦٣٩] تفسير الطبري ، ج٢٢ ، ص١٦٠ .

[٦٤٠] الإنسان ، ١ . ٥ .

[٦٤١] تفسير الطبري ، ج ١٤ ، ص ٢٨١ .

[٦٤٢] ٢ النور ، ٤٥ . ٤٧ .

فالذين يسمعون الحق وما أمر الله به، وما نهى عنه، ولا يعملون بهذا كله هم في الحقيقة أيضاً سمَّاعون، أي كثيروا السمع دون الاستفادة من أي شيئ يسمعونه، ولا يعقلون أي شيء مما حولهم، قال سبحانه وتعال: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[٦٤٣]، فالذين يسمعون قول الحق ولا يتبعونه مثلهم فيما هم فيه من الغي والضلال كمثل الدواب السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها بل إذا نعق بها راعيها أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يُقَال لها ولا تفهمه بل تسمعه صوتاً فقط[٦٤٤] وهكذا يكون الحال من الحال كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

فلا قيمة من سمعٍ لا يعود بالفائدة على صاحبه، بل بعض السمع يعود على صاحبه بالويل والهلاك، فالسميع بالإضافة هو الخليفة الذي سمع قول مستخلفه عز وجل وعمل بما أُمِر إصلاحا، وترك ما نُهِي عنه طاعة.

وبالطبع سَمْع الإنسان ليس كسمع خالقه، فبالرغم من أن البشر متشابهون وهم خلق الله سبحانه وتعالى، وكل فرد فيهم له علامات مميزة قد ندركها وقد لا ندركها نحن بل المتخصصون مثل البصمة، فلكل إنسان بصمته التي تميزه عن أي إنسان سواه، إذا كان هذا جزء مما يختلف فيه البشر عن بعض فما بالنا باختلاف البشر جميعاً عن الخالق جل جلاله، إنه الواحد القهار الذي ليس له مقارن، فمهما وصل ابن آدم إلى درجة من الرحمة والعلم فلا يمكن أن يتعدى اليسير مما عند الله الخالق القادر والمهيمن والعزيز، لذا تبقى حاجة البشر إلى الخالق في تزايد مستمر على مدى الحياة، وبما أن الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان فقد كان فيها الناس متفاوتين ألواناً وأرزاقاً وأخلاقاً وآجالاً، فنرى الغني والفقير، والأعمى والبصير، والقوي والضعيف، والظالم والمظلوم، والمخلص والمنافق، ولما كانت الدنيا هكذا فإن حكمة الله عز وجل تظهر في تعريف الخلق ما يناسبهم من أسمائه وصفاته، فالمذنب إذا أراد التوبة سيجد الله تواباً رحيماً غفوراً، والمظلوم سيجد الله ولياً ونصيراً،

---

[٦٤٣] البقرة ، ١٧١ .

[٦٤٤] تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص٤٨٠ .

والضعيف سيجد الله قوياً عزيزاً، والطالب لقضاء حاجة سيجده سميعاً مجيباً كما قال عز وجل في كتابه العزيز: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[٦٤٥]، ونستدل من الآية الكريمة أن استجابة دعاء الداعي يستوجب قرب الإنسان من ربه، وبالتالي يكون قرب الخالق من العبد، وهذا القرب لا يتحقق إلا بسماعنا لقول الله تعالى الحق، وبعدم الصمم والابتعاد عنه، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى لن يكون قريباً مجيباً للدعاء، فالخليفة الذي يرتضيه الله عز وجل هو من يُسْمَع دعاؤه، وقد استحق هذا بسماعه أوامر الله وخوفه من عقابه، كما حدث مع سيدنا يوسف عليه السلام عندما دعا ربه أن يبعد عنه كيد النسوة في المدينة، وذلك في قوله تعالى: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ}[٦٤٦].

وقد اقترن اسم السميع في القرآن الكريم بأسماء أخرى لله عز وجل ومنها اسم العليم كما في قوله جل جلاله: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[٦٤٧]، فسمع الله عز وجل مقترن بعلمه بالشيء، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ

---

[٦٤٥] البقرة ، ١٨٦ .

[٦٤٦] يوسف ، ٣١ . ٣٥ .

[٦٤٧] الأعراف ، ٢٠٠ . ٢٠٤.

بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا}[٦٤٨]، {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٦٤٩]، علاقة قوية تربط المعنى السمعي مع المعنى البصري، فالسميع لم يكن فاقد الذاكرة فهو يعلم بكل ما يسمع حتى يوصف بأنه عليم، والعليم هو الذي يدرك الأمر ويلم بحاله ويحيط به ويهيمن عليه بالكمال. إذن علم الله تعالى كامل ومطلق لا يحده أي حد فقد أحاط هذا الكون بسمعه وبصره وعلمه وقدرته جل شأنه، فعلم الله تعالى كامل لا نقصان فيه، فهو لا تخفى عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء؛ فبسمعه وعلمه هذا يكون الله عادلاً في حكمه وقضائه، يعاقب هذا، ويعفو عن هذا، ويستجيب لهذا، فالعدل بدون العلم لا يقع والعلم بدون السمع والبصر لا يحصل، فالإنسان الذي يريد أن يكون خليفة الخالق في أرضه لا بد أن يجعل بصره وسمعه في خدمة علمه الذي يجعله بالتالي عادلا في حكمه، فالذي يتولى منصباً كبيراً مثل القاضي لابد له من أن يكون سميعاً للحق ولا يكون للباطل سمعه، فسمعه إذا لم يخدم علمه الذي استحق به هذا المكان في الحياة الدنيا لا فائدة منه، فيكون مثله مثل الذي لا يسمع فهو أصم برضاه، كأن يستمع لطرفٍ واحدٍ ويبني حكمه على هذا الأساس الظالم، فهو إذن سمّاع متحيز، ونُفِي عنه العدل، فلا يستحق أن يكون خليفة لله الحق، فالقاضي السميع خليفة لله ولا يحكم إلا بما يرضي الله تعالى، ولذا ينبغي أن يكون سميعا أي يستمع بنية العدل وإحقاق الحق ومرضاة الله تعالى فلا يظلم أحدا، وبهذا يكون خليفة مصلحاً في الأرض لا مفسداً فيها.

ونحن نعلم أن الله عز وجل سيحاسب العباد على أقوالهم وأفعالهم في الحياة الدنيا، فهو إذا حسيب يدرك كيفية مراقبة عباده، وتوزيع أرزاقهم، وكيف سيكون حسيباً إذا لم يكن عادلاً؟ وكيف يكون عادلا إذا لم يكن سميعاً للعباد بصيرا بهم؟ وكيف يكون دامغا للباطل وزاهقا له إذا لم يُحِق الحق.

---

[٦٤٨] النساء ، ١٤٩ .

[٦٤٩] الأنعام ، ١٣ .

والسميع أيضاً في حق الله ترتبط بالبصير، لأن من كان سميعاً لأقوال الخلق لا بد أن يكون بصيراً بأعمالهم ، وقد ذكر الله هذين الاسمين مرتبطين في كثير من الآيات الكريمة في كتابه العزيز كما في قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٦٥٠]، فالأمر هنا في هذه الآية الكريمة أولاً برد الأمانات إلى أهلها، والأمر الثاني الحكم بالعدل، وختمها بتذكير العباد أن الله له كامل السمع والبصر، فيما يفعلونه من ظلم وخيانة الأمانة. ولذا فإن ممارسة الديمقراطية في الفكر الإسلامي كانت تمارس وفقا لفلسفة الشورى في الدين الإسلامي، التي تعني فيما تعني: أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقا لقوله تعالى: {وشاوِرْهم في الأمر}[٦٥١] ويقول أبن منظور: "شاورهم تعني استخرج آراءهم"[٦٥٢]، وهناك من يقول: "هي تلقيح الرأي بآراء متعددة"[٦٥٣]. وهذا يدل على أن الشورى في الفكر الإسلامي تماثل الديمقراطية عندما تكون ممارستها حقا للجميع الذكور والإناث، ولذلك يستوجب ممارسة الشورى في الأمر. والأمر هو: كل ما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسؤوليات، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية، أو كان هذا الأمر في حالة السلم أم في حالة الحرب، وسواء كان اقتصادا أو علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية {وشاورهم في الأمر) موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم.

---

[٦٥٠] النساء ، ٥٨ .

[٦٥١] آل عمران ، ١٥٩ .

[٦٥٢] تفسير الجلالين . بيروت ، دار الفكر ، ص ٩٤ .

[٦٥٣] محمد متولي شعراوي ، تفسير الشعراوي . القاهرة ، أخبار اليوم ، ج٣، ص ١٨٤٠ .

وفي حالة ما لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام معهم يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وأمْرُهُم شُورى بينهم}[٦٥٤]. إذن بكل وضوح إن الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حالة شورى بين الرسول والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم. أما من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورى يقررون ما يشاءون فيه، وينفذونه كما يشاءون وفق ضوابط الشرع، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من أمر. وكلمة أمرُهُم ، تتكون من جزأين هما: أمْرُ ، وهُم ، فالأمر هو ما سبق تبيانه، أما هم فجاءت مطلقة أي كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، وهذا يعني لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية، بل الوجود للكل دون استثناء، وكلمة بينهم الظرفية تعني، أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعنيهم الأمر فقط، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية، ولتأكيد هذا الاقتصار قال عزّ وجل بينهم، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول.

وعبر التاريخ كانت هناك محاولات فكرية لممارسة الديمقراطية من الناحية النظرية، وهناك من الناحية العملية والتطبيقية ما يخالف ذلك بالتمام، حتى أصبح المعنى السائد للديمقراطية هو حكم الأغلبية، مع العلم أن هذا التفسير ليس له علاقة بمعني الديمقراطية ودلائلها اللفظية، ولذا أصبح التهرب عن دلائلها بتعويضات منقوصة، فالديمقراطية هي واحدة لا تتجزأ.

وعليه فالسميع لا تخفى عليه خافية، لقد أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلنها، فلا تختلط عليه الأصوات ولا تخفى عليه جميع اللغات، كما ورد في الآية الكريمة {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا

---

[٦٥٤] الشورى ، ٣٨ .

أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}[٦٥٥] وكذلك قوله سبحانه وتعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) [٦٥٦]، فسمعه جل جلاله نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، والخفية والجلية، وإحاطته التامة بها.

وثانيهما: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم كما في قوله تعالىَ: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}[٦٥٧]. والاستجابة هنا لا تكون إلا بعد السمع، فهل يجيب أو يستجيب من لا يسمع؟ بالتأكيد لا! وقد أمرنا الله تعالى بالتوجه إليه بالدعاء من أجل أن يستجيب عز وجل لدعائنا وجاء هذا الأمر صريحا في قول الله تعالى:

{إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[٦٥٨].

والاستجابة للدعاء من الله تعالى يمكن أن تكون فورية أو بعد الدعاء مباشرة كاستجابته عز وجل لدعاء سيدنا نوح– صلى الله عليه وسلم–الذي أخبرنا به تعالى في قوله: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}[٦٥٩].

---

[٦٥٥] الرعد ، ٨ . ١١ .

[٦٥٦] المجادلة ، ١ .

[٦٥٧] آل عمران ، ١٥٩ .

[٦٥٨] غافر ٥٩ . ٦٢ .

[٦٥٩] القمر ١٠ . ١٢.

ويمكن أن تكون الاستجابة مؤجلة إلى بعد فترة قصيرة أو طويلة في الحياة الدنيا وذلك لحكمة يعلمها الله عز وجل كاستجابته لدعاء سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل- صلى الله عليهما وسلم -قال تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسماعيل رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٦٦٠]، والله جل جلاله يعلمنا بدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يدعو الإنسان بقبول عمله إذا قام به ونيته خالصة لوجه الله تعالى، فلا يكون دعاؤه لمصلحة خاصة أو أن يكون منافقا في حبه لله الخالق،وهو السميع العليم بالنفوس وبالضمائر، كيف لا وهو خالقها عز وجل، ولا يخفى على الخالق شيء في مخلوقه.

ويمكن أن تكون الاستجابة مؤجلة ليوم الآخرة كما في قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}[٦٦١].

وقد لا يستجيب الله تعالى لدعاء الداعي إذا لم يكن مخلصاً في دعائه، ولا موقناً بأن الله هو الوحيد الذي يُسأل وهو الذي يُنْتَصر به، أو كان إيمانه ضعيفاً بالله عز وجل متزعزع العقيدة أو كافراً، وعدم الإجابة لا يعني عدم السمع في حق الله تعالى، ولكن هو سميع لكل قول من العباد المؤمن منهم والكافر، المخلص في عبادته والمقصر فيها.

وعلى الخليفة أن يكون سميعاً مجيباً لله عز وجل أولاً، فهو الذي مَنَّ عليه بنعمة السمع ونعمة استخلافه في الأرض، فلابد أن يكون مجيباً لأوامر الله تعالى بالالتزام بأوامره والانتهاء عن نواهيه، وكذلك عليه أن يكون مجيباً لكل من يدعوه أو يطلب منه العون فلا يبخل عليه بتلبية دعوته وتقديم العون له ما لم يكن ذلك فيه معصيةٍ للخليفة المطلق.

---

٦٦٠ البقرة ١٢٧. ١٢٩.

٦٦١ المؤمنون ، ١٠٩. ١١١.

وباللزوم اسم السميع في حق الله سبحانه وتعالى يستوجب أن يكون هذا الخالق السميع مالكاً لكل شيء، وهذه الملكية مطلقة كما في قوله عز وجل: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}[٦٦٢] ففي هذه الآية الكريمة وجّه الله جل جلاله أنظار الخلق إلى أنه هو الخالق وهذه هي البداية، ثم أنه القادر والمالك لكل ما لدينا ومنها السمع والبصر، فهو خالق هذه الحواس ومالكها ولا يملكها ملك جارحة وعين، وإنما ملك قدرة فيهبها لخلقه لأنه سميع بصير يمنحهم ما يسمعون به وما يبصرون، فإذا لم يكن مالكاً للبصر والسمع فبأي وسيلة سوف يعطينا ذلك وهذا ما تؤكده الآيتان الكريمتان في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[٦٦٣]، إن الله أنعم على سيدنا سليمان بنعمة السمع الذي يفوق سمع البشر العادي، إذ أنه بواسطة هذه الميزة من الخالق له استطاع أن يسمع ويدرك خوف النملة من جنوده، وهذا يوصلنا إلى الكيفية التي يجب أن يكون عليها الخليفة على الأرض، فالخليفة الحق يجب أن يكون سمعه من سمع الله سبحانه وتعالى، وبصره من بصر الله عز وجل، فهو الذي يجعل حياته للخالق، ويعقد قلبه على ترك مخالفة الله تعالى، وترك معاصيه وأن يلزم الحق وأوامر الله عز وجل.

ونستوحي من بعض الآيات القرآنية الكريمة قرب الله سبحانه وتعالى بسمعه منا، {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}[٦٦٤]، ولأنه يعلم ما تكنه الصدور فهو يسمع النجوى منا إنه معنا أينما كنا ولا تخفى عليه خافية قال

---

[٦٦٢] يونس ، ٣١ .

[٦٦٣] النمل ، ١٨ ، ١٩ .

[٦٦٤] سبأ ، ٥٠ .

تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٦٦٥].

فبتأكيد هذا القرب من الخالق جل جلاله يتأكد لجميع الخلق السمع المطلق له، لأن الخالق موجود في كل مكان، وفي كل الأوقات والأزمان، فهو أزلي فأين سيهرب الإنسان من رقابته وسمعه، وهو الرقيب على تصرفاته وأفعاله في الحياة الدنيا، فلا مكان يلجأ إليه دون علم ورقابة المولى عز وجل. من الممكن أن يختبئ الإنسان من غيره من المخلوقات إذا أراد السوء بجهالة، وأن يدبِّر ما يريد من قول أو فعل بعيداً عن إسماع الخلق، فيظن أن لم يره أحد، ولكنه نسي أن الله سبحانه وتعالى يسمعه ويراقبه وسيحاسبه عاجلاً أم آجلاً، فالذي لا يتحدث إلا بما يغضب الله عز وجل، ولا يتفوه إلا بالسوء، والذي يتسبب بجرح الناس وهو متعمد، والذي يطعن في أعراض الناس، والذين يسبون من هم أولى بالشكر والرحمة، كل أولئك يهرولون نحو جهنم، لأن الله تعالى هو العادل بحكمه، والرقيب على خلقه، والحسيب يوم تقوم الساعة، والعليم بحقوق عباده.

السميع المطلق هو الذي يستمع إلى الشيء قبل أن ينطق بما يود أن ينطق به، فعلام الغيوب يعلم بالشيء قبل وقوعه، ولذا فهو المستمع لما سيقال قبل قوله ولهذا فهو الله الواحد القهار جل جلاله.

وعليه: هل يظن البعض بأنه يعلم الغيب ولا يستمع لما علم به؟، وما الفرق بين علم الغيب والاستماع للشيء قبل أن ينطق؟، وما معنى اللوح المحفوظ؟، وكيف نؤمن بعلمه للسر والنجوى ولا نؤمن بسمعه المطلق لما يُسرَّ ويناجى به؟. وكيف استجاب لسيدنا أيوب بما يريد دون أن يفصح لو لم يكن سميعا عليما؟. وكيف يكون عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وعليم وخبير مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ

---

[٦٦٥] المجادلة ، ٧ .

الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٦٦٦] كيف يكون كذلك إن لم يكن سميعا عليما قريبا مجيب الدعاء؟.

السمع إحساس، والإحساس بالشيء يأخذ وجهين:

الوجه الأول: إحساس مباشر: بالنظر يشاهد وبالأذن يسمع، وبالأنف يُشم، وباللسان يذاق، وباللمس يُميز. قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}[٦٦٧].

الوجه الثاني: إحساس غير مباشر بالعقل يدرك ويتم استقراءه واستنباطه ومن سمات الوجوه يعرف مصداقا لقوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[٦٦٨].

فعلى من أراد أن يكون خليفة الله عز وجل على أرضه يجب أن يعلم أن الله تعالى حاضر أمام عينيه في كل وقت، وحاضر في سمعه لأي شيء، وأن يطمع في استجابة المولى له إذا طلب ويثق في الإجابة، لأن الله تعالى هو السميع لعباده والعليم بهم، فتكون نفس الخليفة مطمئنة لحساب ومراقبة الخالق عز وجل له، ويكون هدفه هو مرضاة خالقه قبل مرضاة الخلق، فيكون سمعه وبصره وعلمه لله الحق، وعندها سيكون هذا الخليفة في ظل الرحمن يوم القيامة، يعفو عنه ويجازيه بالنعيم الدائم.

---

[٦٦٦] لقمان ٣٤.

[٦٦٧] الإسراء ٣٦ . ٣٨.

[٦٦٨] الفتح، ٢٩.

وكل إنسان موجود على الأرض يحتاج لأن يكون سميعاً، فالأب يكون سميعاً لأبنائه فلا يتجهون إلى أشخاص منحرفين عن الفضائل الإنسانية والقيم الاجتماعية ولذا فرعاية الأبناء من مسؤولية الوالدين وعليهما أن يجعلا البيت هو مكان للنقاش والحوار وطرح المشاكل وطرق حلها وفقا لمكارم الخلاق.

وعليه ينبغي أن يراعي الخليفة الدقة في السمع، وأن لا يخطئ السمع في سماعه لبعض الأمور، وأن لا يجعل الظن غالبا على سمعه، فليتقِ الله ربه، وعلى العباد أن يعرفوا إن استراق السمع في قضايا خطيرة من شأنها إفساد العلاقات الإنسانية، وتفكيك بناء المجتمع ناهيك على أنها معصية لله سبحانه وتعالى.

وبناء على ذلك فإن تقوى الله خير منقذ من الوقوع في الظن وأن بعض الظن إثم؛ فليتقوا العباد ربهم فيما أمر به ونهى عنه. وأن يعتمد مكارم الأخلاق في الإصلاح بين العباد وإذا قالوا صدقوا ، وإذا عملوا أخلصوا النية وأحسنوا عملا، وإذا حكموا يحكمون بالعدل، وأن يكونوا سميعون طاعة لله وحده، وأن يتقوه في كل كبيرة وصغيرة، وأن يحمدوه ويشكروه على واسع فضله.

ولهذا مطلوبٌ لكل ولي أمر أن يكون له السمع والطاعة من رعيته، طبعاً على أن لا تكون هذه الطاعة في معصية الله سبحانه وتعالى، وذلك كما جاء في حديث نافع عن عبد الله – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"[٦٦٩] فالرسول عليه الصلاة والسلام له حق الولاء والطاعة من المسلمين لما له من مكانة رفيعة وكيف لا وهو الذي يتكلم بوحي من الله جل جلاله وهذا من شأنه أن يوحد الصفوف، فالسمع والطاعة لولي الأمر يقوي بنيان الأفراد وهذا ما وجدناه في صفوف المسلمين في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقد كانوا مستمعين لأوامره في طاعة الله، ولا يخالفونه في شيء لأنه لن يرتضي لهم معصية الخالق عز وجل.

[٦٦٩] صحيح البخاري ، ج٢٢ ، ص ٥٢.

وبالرغم من ذلك فقد أوضح الرسول عليه الصلاة والسلام أن لا ولاء لأي ولي في معصية الله تعالى، لان السمع والطاعة يكون أولاً لله تعالى، فإذا خالف الولي ذلك لم يكن له حق الاستماع له والطاعة.

وفي هذه الحال يفرق هذا الولي غير الكفؤ بين الأفراد لأن هناك من سيتبعه في معصية الله تعالى، وهناك من سيخالفه، وهذا بدوره سيؤدي إلى ضعف الجماعة وتنازعها الدائم.

وعلى الولي أن لا يستغل هذا الولاء في غير مكانه، بل يجب أن يوجه هذا الولاء لخدمة الدين، وعليه أن يتذكر أن السمع والطاعة حتى منه هو إنما لله خالق هذا الكون، ومدبر أمره.

حتى أننا نجد أن الله بالرغم من أمره لنا بطاعة الوالدين، وجعل طاعتهما من طاعته إلا أنه أمرنا بعدم طاعتهما في معصية الله تعالى في قوله الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[٦٧٠]، وكذلك قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[٦٧١].

كذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن استراق السمع، وهي صفة ذميمة لا تؤدي بصاحبها إلّا للتحقير، ولا يجوز لأي مخلوق أن يتعدى حدوده التي أعطاها له خالقه، فإن الله تعالى قد

---

[٦٧٠] العنكبوت ، ٨ .

[٦٧١] لقمان ، ١٤ . ١٩.

جعل لسمعنا حدودا ولحكمة هو مدركها، فكيف نتخطى هذه الحدود الآلهية؟ وحتى استراق السمع ممنوع على كل أنواع الخلق من الجن والإنس، لأن السمع المطلق هو ملك لله وحده جل جلاله، ولن يكون عقاب من أراد دخول هذه الحدود إلا عذابٌ وويل من الله عز وجل فقد قال الله تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ}[٦٧٢] أي أنه قد يسترق من الشياطين السمع مما يحدث في السماء بعضها، فيتبعه شهاب من النار مبين، يبين أثره فيه، إما بإخباله أي إفساد أعضائه، أو بإحراقه[٦٧٣].

هذا هو عقاب من يسترق السمع ويتجسس على ما لا يعنيه من الأمور، فعلى الخليفة أن يحرص على أن لا يستعمل سمعه فيما لا يعنيه أو فيما يغضب الله الذي استخلفه في الأرض فلا يتتبع عيوب الناس وعيوبهم وأحوالهم فيكون بذلك قد خرج من نطاقه إلى نطاق السميع المطلق وهذا يؤدي للمشاركة معه والله لا شريك له. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٦٧٤]. علاقة قوية بين ثلاثة:

الأول: الظن الذي هو الإثم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ).

الثاني: التجسس الذي هو استماعك وتنصتك على الغير في غير مرضاة الله وفي غير مرضاة المتجسس عليه.

الثالث: الاغتياب (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) الاغتياب مثله الله كمن يأكل لحم أخيه ميتا وهذا يعني التحريم القاطع (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ).

---

[٦٧٢] الحجر ، ١٦ . ١٨ .

[٦٧٣] تفسير الطبري ، ج١٧ ، ص٧٧ .

[٦٧٤] الحجرات ١٢، ١٣.

وبما أن الله سبحانه وتعالى رقيب على الخلق بسمعه وبصره وشهيد عليهم، إذن هو عادلٌ في حكمه وقضائه، فدعاؤه مجاب لكل خليفة ولكن زمن الإجابة يعلمه وحده لا شريك له فادعوه إنه قريب مجيب، {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[٦٧٥]

إن الله سبحانه وتعالى يتصرف في كل شيء كما يشاء وهو بعباده لطيف خبير، فيخلق العبد وأفعاله الاضطرارية والاختيارية، فقد قال جل جلاله في كتابه العزيز: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)[٦٧٦]، فهو الذي يوجد ويُعدِم وفقا للحاجة، ويرزق ويمنع وفقا لما يشبع الحاجة، ويُشْقي ويُسْعِد وفقا لما يُقدم من أعمال، وهو الذي يرسل الرسل وينزل الكتب وفقا لكل أمة، ويدبر الكون كما يشاء لأنه المالك لكل شيء بسمعه وبصره وعلمه، يكفي أن يستمع الإنسان إلى صوت الرعد، أو أن يستمع إلى صفير الرياح، لكي يدرك مدى قوة هذا الخالق ومدى ضعف المخلوق، فالرعد الذي يخترق الآذان الإنسانية، ويثير الرعب في النفس البشرية هذا الصوت يسبح باسم الله عز وجل، وهذا ما ورد في الآية الكريمة: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)[٦٧٧].

---

[٦٧٥] غافر، ٦٠ ـ ٦٦.

[٦٧٦] الصافات ، ٩٦ .

[٦٧٧] الرعد ، ١٣ .

وبما أن الله تعالى هو السميع إذن فلا يجب في حق الله الصمم وما في معناه، كأن يسمع الجهر دون السر أو أن يسمع الأصوات دون الذوات، ولهذا استحالت صفة الصمم في حق الله تعالى لأنها من صفات النقص والله عز وجل منزه عن كل نقص أو عيب، لأنه لو اتصف بشيء منها لاحتاج إلى من يدفع عنه هذا النقص أو يكمله، والإله المطلق جل جلاله هو الحق الذي لا يحتاج لمن يحقه، فلو كان سمعه سبحانه وتعالى ناقصاً، لما كان عادلاً، ولما سمع نجوى القلوب عز وجل وما يُكن في الصدور.

لذلك الإنسان الأصم حقاً ليس هو الذي فقد نعمة السمع، بل هو الذي أنعم الخالق عليه بنعمة السمع، فكفر بخالقه وسد آذانه وعقله عن سماع صوت الحق، فلا يسمع سوى وسوسات شياطين الجن والإنس والعياذ بالله، يركض خلفهم مطيعاً لها، لا يوقفه عن كفره وعصيانه اسم الله حين ترتفع به المآذن، ولا يستمع لقول الله عز وجل يتوعد لمن جحد بنعمة الله له واستغلها في الكفر والمعصية: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٦٧٨] فلا يشترط وجود آذان بشرية لكي يكون الإنسان سميعاً للحق، يفر بواسطة هذه النعمة من النار وعذاب الحريق، فالمنافقون والجاحدون لا يصح وصفهم إلا بالصمم.

وكذلك تشبيه الكافرون بالبهيمة التي تسمع الصوت ولكنها لا تفهم معناه، وذلك في قوله عز وجل: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ

---

[٦٧٨] البقرة ، ١٧ ـ ٢٠ .

ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}[٦٧٩]
، فللكفار هنا حالتان:

الأولى: حالة الإعراض عن الإسلام.

والثانية: حالة الإقبال على الكفر، وذلك لأنهم فقدوا بكفرهم التمييز، فمن ضمن الفروقات الجلية بين سائر المخلوقات وبين الإنسان هي القدرة على التمييز، سواء كان تمييزا بالصورة أو الصوت، أو حتى بالقلب.

فالتمييز ومركزه العقل، ميزة وهبها الله للإنسان، فقد خلق الله تعالى للبهائم والطيور آذاناً لكنه لم يهبها نعمة التمييز، فإن لم يصل الإنسان إلى التمييز بين الحق والباطل فهو فقد ميزة آدميته بالتأكيد، لأنه بالسمع والبصر والكلام يُرَشِدهم العقل، فإذا حُجِب على كل هذه الحواس بحجاب الكفر، فقد الإنسان رشده، فالعقل لا يعمل بلا السمع الحق والبصر الحق والكلام الحق "فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها، أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط"[٦٨٠].

وفي صورة ثانية للكافرين قال الله تعالى في كتابه العزيز: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ

---

[٦٧٩] البقرة ، ١٧١ . ١٧٥.

[٦٨٠] تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٤٨٠ .

شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}[٦٨١] أي أن الذين يكذبون بحجج الخالق عز وجل وأدلته صمٌ عن سماع الحق بكم عن القول به، وبهذا يكونون قد عُدِموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم، فلهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل فيما خلق الله تعالى، وفيما يسمعون من آيات الله عز وجل المنزلة على رسله، ومن أخبار التاريخ الدالة على سنته في خلقه.

فإن كان الإنسان يسعى لأن يكون خليفة الله في أرضه، لا يجب أن يكون أصما عن الحق بالرغم من وجود نعمة السمع لديه، بل يكون سميعاً بقدر الإمكان البشري الذي منحه الله لنا لأوامر خالقه، مستخدماً سمعه في البحث عن كل ما هو خفي في كل ما حوله، مظهراً لأسرار جديدة كامنة فيما حولنا، فعندها يكون سمعه في خدمة علمه وعلمه في خدمة خالقه، وبهذا يكون قد استحق أن يكون خليفة الله تعالى في أرضه، حتى ولو كان الله قد خلقه أصماً يستطيع أن يسمع بقلبه وعقله، ويستطيع أن ينجز أكثر ممن لديهم نعمة السمع دون فائدة، إذا توكل على الله وجعله في قلبه فسيكون الله بالتالي سمعه الذي سيغنيه عن كل من حوله، والدليل على هذا نجد بعضاً من أصحاب العاهات رواداً في مجالات عديدة، لم تمنعهم فقدانهم لنعمة من النعم من أن ينجزوا ما لم ينجزه الأصحاء، فلا يمنع الإنسان أن يبدع إذا كان أصماً أو أعمى أو غيرها، فلا يشترط إذن أن يكون الخليفة كامل الحواس فالكمال لله وحده، فمن الممكن أن يكون فاقدا لحاسة من الحواس، لكن الله سبحانه وتعالى سيعوضه بما هو خير، إذا أخلص في نيته لله تعالى وتوجه له فقط دون غيره، أو حتى إذا كان لديه نقص معين في حاسة مثل ضعف في النظر أو السمع، فبإمكانه أن يكون كامل السمع إذا أراد الإنسان، فلا فرق عند الله سبحانه وتعالى بين صحيح وعليل، حتى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عوتب في ابن أم مكتوم وقد كان أعمى، وذلك كما جاء

[٦٨١] الأنعام ، ٣٩ . ٤٤.

في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى}[٦٨٢].

ونرى أن الله عز وجل وجه العديد من الكلام وخصه للذين يسمعون، وهذا دليل على ما للسمع من أهمية في تمييز الحق والباطل، وفي ذلك قوله عز وجل: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[٦٨٣]، وكذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[٦٨٤]، أي أن الله تعالى ربط بين آياته ودلائلها والإيمان بها بالسمع البشري، والسمع هو الذي يؤدي إلى الإيمان بالخالق عز وجل، والسمع الذي يكون لكلام الله تعالى فقط دون سواه، الأقوام التي تسمع هذه الآيات فتعقلها وتتدبرها أولئك هم الذين يعمرون الأرض.

والمؤمن الصادق هو الذي يصون أذنه عن سماع اللغو والباطل، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}[٦٨٥].

إذن قد فرق القرآن بين الذين يتمتعون بالسمع كحاسة فقط، وبين الذين يتمتعون بالسمع كتدبر وفهم واستيعاب للأمور بعقل سليم، فالنوع الأول قد جعل الله تعالى سمعهم وكأنه صمم، أما النوع الثاني فقد جعل الله تعالى سمعهم إدراكاً وتدبرا.

والنوع الثاني هو الذي يجب أن ينتمي إليه خليفة الله عز وجل في أرضه، الذي يجعل من سمعه وسيلة للطاعة، كما أراد الخالق عز وجل عندما قرن الطاعة بالسمع في قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسمعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٦٨٦]، فقد قرن الخالق جل جلاله بين السمع والطاعة وهذا هو السمع الحق.

---

[٦٨٢] عبس ، ١ . ٤ .

[٦٨٣] يونس ، ٦٧ .

[٦٨٤] النحل ، ٦٥ .

[٦٨٥] القصص ، ٥٥ .

[٦٨٦] التغابن ، ١٦ .

وعلى خليفة الله تعالى في أرضه أن يصبر فالصبر مفتاح الفرج، وأن يكون على يقين أن الله سبحانه وتعالى معه، مادام هو مع الله.

وعلى الخليفة أن يقرن سمعه بالطاعة لله عز وجل لكي يحظى بالاستجابة، فبهذا يكون قد وجَّه نعمة الله تعالى عليه إلى الله عز وجل، وذلك كما جاء في قوله جل جلاله: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٦٨٧].

والسميع جل شأنه إنما هو محيط بمخلوقاته إحاطة مطلقة بجميع حركاتها وسكناتها، فهو جل جلاله قريب لا من حيث الزمان والمكان، سميع لا بآلة ولا بأداة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً. إنه معكم، إنه سميعٌ قريبٌ"[٦٨٨] فالله تعالى سميع بصير بعباده وجميع مخلوقاته، إنه يسمع ويرى، فلا يغيب عن سمعه مسموع وإن خفي. ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق. ولا يحجب سمعه بُعد المكان ولا يدفع رؤيته شدة ظلام. فكما يرى من غير حدقة وأجفان، فإنه يسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق. ولهذا كان السميع العليم متفردا بصفة السميع المغايرة لما يسمعه المخلوقون، إذ أن الكلام المسموع يحتاج إلى أدواته السمعية التي توصله إلى من يسمعه، وهذه الأدوات السمعية مشتركة بين الداخل والخارج، فالداخل ما يمتلكه السامع من أداة . أي سامع إنسان أو غيره . من الأذن الخارجية والوسطى والداخلية وما تضم بينها من أدوات أخرى كالصماخ والتجويف وطبلة الأذن والمطرقة التي تتعاون فيما بينها لتحويل الذبذبات الخارجية إلى أصوات مفهومة من الكلام الذي يحلله الدماغ إلى ما اختزن من معانٍ معرفية،

---

[٦٨٧] البقرة ٢٨٥.

[٦٨٨] رياض الصالحين، ج ١ ، ص ١٢٠

وأما الخارج فهو الفضاء والهواء وما تحدثه الأصوات من ترددات تنتقل سرعة وبطئا حسب شدة الصوت، وبتعاون الأدوات الداخلية والخارجية تحدث لنا سماع الأصوات نحن المخلوقين. أما الخالق عز وجل فإن سمعه لا بدَّ أن يكون مغايراً لسمعنا بالضرورة، إذ لا يستوي الخالق والمخلوق في أي شيء، فكيف يكون الله تعالى سميعا؟.

والجواب على ذلك يكون من منطلق الكلام الذي يفترض أنه مسموع من قبل السامع، فالله سبحانه وتعالى كلّم موسى تكليما، فكما أن كلام الله لا يشبه كلام الخلق، فكذلك سمعه لا يشبه سماع الخلق، لأن موسى صلى الله عليه وسلم: "سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض. وإذا كانت له هذه الصفات كان "حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات"[٦٨٩]. فإذا كان موسى عليه الصلاة والسلام سمع كلام الله تعالى بغير صوت ولا حرف فهذا يعني خروج عن سنة الله في خلقه بمشيئة الله، إذ ما ينبغي للأعلى أن يتصف بصفات الأدنى، لذلك فإن الله تعالى ترفع بموسى عليه الصلاة والسلام عن السنة الكونية في طبيعة البشر إلى مرتبة أعلى حتى يتسنى له أن يسمع كلام الله تعالى، وهذا دليل على أن صفات الله تعالى وأفعاله بغير عين ولا جارحة، فقد قال تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}[٦٩٠]، ومع ذلك فقد كان كلام الله تعالى لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام على قدر استطاعة تحمله لكلامه تعالى، ولم يكن كلاما مباشرا كما يكلم أحدنا الآخر في عملية الحديث والمواجهة، لأن موسى عليه الصلاة والسلام: "لما أتى طور سيناء انزل الله الظلمة على سبع فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد عنه الهوام ونحى عنه الملكين وكشف له السماء فرأى الملائكة قياما فى الهواء ورأى العرش بارزا وكلمه الله وناجاه حتى أسمعه كلامه من غير واسطة وكيفية وصوت وحرف"[٦٩١] فالله سبحانه على ما نعتقد

---

[٦٨٩] إحياء علوم الدين ١،٩٧

[٦٩٠] النساء ١٦٤

[٦٩١] تفسير حقي، ج ٣ ، ص ١٥٤

أسمع موسى عليه الصلاة والسلام كلامه بالطريقة التي شاء بها الخالق عز وجل أن يسمعه، لأن جميع العلماء على رأي واحد في هذا الأمر، أن كلام الله تعالى لموسى عليه الصلاة والسلام من غير كيف ولا واسطة ولا حرف ولا صوت، وهو مصداق لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}[٦٩٢] فهذه الآية دليل على أن الله تعالى ما ينبغي له أن يكلم بشرا كفاحا كفاحا إلا من وراء حجاب، فمن ذلك الكلام إلهام إبراهيم عليه الصلاة والسلام في نومه أنه يذبح ابنه، وكذلك ألهم أم موسى عليه الصلاة والسلام أن تقذفه في التابوت ثم تقذفه في اليمِّ، أو من وراء حجاب مثلما كلّم موسى عليه الصلاة والسلام دون أن يراه حيث قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أنظر إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ أنظر إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[٦٩٣] فكلام الله تعالى سمعه موسى عليه الصلاة والسلام بطريقة مغايرة عن سماعه في الطبيعة الإنسانية، "وما صح لأحد من البشر أن يُكلمه الله إلا وحياً بالإلقاء فى القلب إلهاماً، أو مناماً، أو بإسماع الكلام الإلهي دون أن يرى السامع من يكلمه، أو بإرسال ملك يرى صورته، ويسمع صوته ليوحي بإذن الله ما يشاء، إن الله قاهر فلا يمانع، بالغ الحكمة فى تصرفاته وتدبيره"[٦٩٤] وعلى هذا فإن الله تعالى سميع لا نقول بهذه الكيفية التي كلم بها نبيه عليه الصلاة والسلام، وإنما هو سميع بفعل الكينونة ولا نبحث في طريقة السمع أو كيفيتها، ولكن طالما أن الله تعالى أحاط بكل شيء علما فقد دخل السمع ضمن الإحاطة الإلهية لأعمال خلقه.

إن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنه سميع بصير لا يغيب عنه شيء في السموات ولا في الأرض مما تكنه هواجس مخلوقاته أو خفايا ضمائرهم وما يراودهم من الوهم أو التفكير،

---

[٦٩٢] الشورى ٥١

[٦٩٣] الأعراف ١٤٣

[٦٩٤] النخب، ج ٢ ، ص ٣٥٠

ولا يعزب عن سمعه صوت دبيب النملة على الأرض، ولا طنين النحلة في الهواء، ولا انسياب الحيتان في أعماق الماء، فهو جل جلاله سميع بصير لأنه متصف بصفات الكمال، والسمع والبصر من كمال صفات الله تعالى، فهو السميع مطلقا بدليل آيات خلقه التي تتصف بالسمع المتفاوت فيما بينها سواء على صعيد النوع أو على صعيد الجنس، لأن المخلوقات التي تمتاز بالسمع هي ثلاثة أنواع: فنوع سامع ناطق، ونوع سامع صائت ونوع سامع ساكت، وهذه الأنواع سمعها متفاوت ومتباين فيما بين الأنواع حدة وبعدا وقربا، فالإنسان سامع ناطق وهو صاحب عقل مميز، لذلك كان سمعه موازيا لعقله على قدر حاجته للسمع الواعي، لذلك كان سمعه أدنى درجات المخلوقات السامعة، لأن العقل بتمييزه عوضه عن شدة الحاجة إلى درجة عالية من السمع، فأخذ نصيبه منه على قدر حاجته وفق ما قدره السميع العليم، وأما النوع الثاني فهو السامع الصائت من الحيوان والطير، حيث كانت حاجتها إلى درجة أعلى من السمع أكثر من حاجة العاقل لعدم التمييز، فكان لديها استشعار الخطر عن طريق السمع، فإن اعتمادها عليه أكثر، لذلك كانت الحاجة إليه أشد، ومن هنا نرى الفرس مثلا أشد سماعا من الإنسان على مستوى النوع لأنه غير مميز، وكذلك أشد سماعا من الأسد على مستوى الجنس لأنه يفتقد وسائل الدفاع عن النفس إلا ما أعطي من شدة الجري، فكانت حدة سمعه إحدى وسائل الدفاع. أما المخلوقات السامعة الساكتة فإنها تتصف بحدة السمع أكثر من جميع الأنواع لأنها تكاد تكون بالنسبة لها وسيلة الاتصال الوحيدة من جهة وكذلك وسيلة دفاع من جهة أخرى لأنها تعرف من خلالها مكامن الخطر، فالحيتان مثلا تتلقى أصوات بعضها البعض عن بعد آلاف الأميال، إضافة إلى ذلك فإن التفاوت في السمع بين كل جنس من الأجناس لا يخفى على ذوي الاختصاص في هذا المجال، من الإنسان إلى الطير والوحوش والحيوانات البرية والمائية، ونريد أن نخلص من هذا التقديم إلى أن الخالق السميع البصير الذي أعطى كل شيء خلقه، وما يحتاج إليه في شؤون حياته، أعطاه ذلك على أحسن وجه من حيث كمال المخلوق، ونقصد بذلك ما نحن بصدده، ألا وهو السمع. فإذا كانت مخلوقات السميع لها هذه الخواص من حيث

السميع، فلا بدّ أن الخالق عز وجل له من صفة الكمال كونه سميعا، ما يترفع به عن مخلوقاته من الكيف والأداة، ولذلك كان النقص في السمع لبعض الخلق عن البعض الآخر مدعاة لصفة الكمال في الخالق بصرف النظر عن الكيف والصوت والأداة، وإنما برهان ذلك يكون من خلال آيات الخالق السامعة، إذ محال أن يكون الخالق يتصف بصفة المخلوق وإن كانت الصفة مشتركة، فقد امتاز السميع عز وجل بنفي الكيف والأداة والزمان والمكان، لذلك قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام كما جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا}[٦٩٥] فخرج من ذلك كل سامع وكل مبصر غير السميع البصير، فدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه بترك عبادة الأوثان كانت بالابتعاد عن عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، فلم يفهم أبوه أنه يريد أن يحوله إلى معبود آخر يسمع ويبصر من ذوات الأرواح، وإنما هي دعوة لعبادة السميع المطلق الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

والسميع جل جلاله هو الذي يسمع خلقه ما يريد منهم وما يأمرهم به وما ينهاهم عنه فقد جاء في قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسم اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}[٦٩٦] فالأذان من إبراهيم عليه الصلاة والسلام والله السميع هو الذي اسمع عباده نداء التوحيد من أجل تلبية الله تعالى: "رُوي أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء البيت قال الله تعالى له: أذن في الناس بالحج قال يا رب: وما يبلغ صوتي، قال تعالى: عليك الأذان وعليَّ البلاغ فصعد إبراهيم الصفا فادخل إصبعيه فى أذنيه واقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال أيها الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم وحجوا بيته الحرام ليثيبكم به الجنة ويجيركم من النار، فسمعه أهل مابين السماء

---

[٦٩٥] مريم ٤١ ، ٤٢

[٦٩٦] الحج ٢٧ . ٢٩

والأرض، فأجابوه من ظهور الآباء وبطون الأمهات فى عالم الأرواح، فما بقي شيء سمع صوته إلا أقبل يقول لبيك اللهم لبيك"[٦٩٧].

فالله سبحانه وتعالى هو السميع المطلق، فقد أمر الخليفة أن يؤذن بالناس ليسمعهم ما أوجب الله عليهم، حيث أن التبليغ يكون عن طريق السماع بالنسبة للبشر، ويكون ذلك مدعاة للفهم والوعي، لأن السميع العليم جعل السمع شاهدا على العقل والقلب والفؤاد حيث قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[٦٩٨] فلا يتبع الإنسان ما لا علم له به من قول أو فعل، فلا يقول: سمع، وهو لم يسمع، أو علم، وهو لم يعلم، فإن نِعَمَ السمع والبصر والقلب يسأل صاحبها عما يفعل بكل منها يوم القيامة.

فالسامع يجب عليه أن لا يتبع كل ما يسمعه ويقف أثره مما ليس له به علم من المسموعات التي ربما تؤدي به إلى التهلكة من قول ينتج عنه فعل، كمن يتبع مسلكا لا يدري أنه يوصل إلى مقصده حسب اعتقاده مما يظن أنه فيه خير له فيرجح ظنه باعتقاده، لأن الاعتقاد الراجح فى حكم الاعتقاد الجازم، والجزم من غير دليل عن طريق السمع لا يوصل إلى اليقين، لذلك وجب التبصر فيما يسمع، ولما كان السمع هو الأداة التي تهيئ للجوارح ما تقوم به من أفعال، كانت هذه الجوارح مسؤولة عن أحوالها وشاهدة على أصحابها، ومن هنا جاء المنع من إتباع كل ما يسمعه المرء، أو النهي عن إتباع كل ما فيه جهل مما يتعلق بالسمع والبصر والقلب، خاصة وأن القلب هو الذي يقلّب حديث السمع على وجوهه حتى يميز بين الخبيث والطيب، لذلك قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[٦٩٩]، وحيث أن السمع هو أداة التوصيل إلى الوعي، إذ أن الإصغاء مدعاة للفهم، والفهم هو إدراك معنى ما يسمعه السامع، وما يترتب على هذا الإدراك من نتائج إما أن

---

[٦٩٧] تفسير حقي، ج ٨ ، ص ٣٩٥

[٦٩٨] الإسراء ٣٦

[٦٩٩] الحج ٤٦.

توصل السامع إلى الحكمة، وهي درجة الأنبياء والخلفاء والأولياء الذين يقومون بما كلفوا به من إسماع ما أمر به السميع المطلق إلى بقية الخلق، فقد قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[٧٠٠] ومدار الحكمة أصلا قائم على السمع، لذلك فإن السميع المطلق هو حكيم جل جلاله، وهذا الترابط والتلازم بين السمع والحكمة يكون هبة للخلفية من الله تعالى بحيث يجب أن يتجلى ذلك في تطبيق ما أُمر به الخليفة من أجل الوصول إلى النتائج المترتبة على السمع والحكمة مما يؤدي إلى إعمار الأرض وإصلاح الناس، فقد أُمر الخليفة بهذا من السميع المطلق بقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٧٠١] وهنا يقوم الخليفة بدوره في الدعوة إلى طريق الحق الذي شرعه السميع المطلق من أجل إسماع الخلق وصولا إلى الهداية، ويسلك الخليفة وهو السميع بالإضافة في إسماع الناس ودعوتهم، الطريق الذي يناسب كل واحد منهم من خلال ما أوتي من الحكمة، فيسمع أصحاب العقول النيّرة والمدارك العالية، القول الحكيم المناسب لقولهم، ويدعو من هم أقل من ذلك وعيا بما يناسبهم من إيراد المواعظ، ويضرب الأمثال التي توجههم إلى الحق، وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم، وكذلك يسمعهم عن طريق الجدل والحوار بالمنطق السليم والقول اللين، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سِبَاب حتى يتمكن من إقناعهم واستمالتهم وصولا إلى قلوبهم وأفئدتهم، وهذا هو الطريق الذي يسلكه السميع بالإضافة لدعوة الناس إلى السميع المطلق على اختلاف ميولهم، والإسماع عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة هو السبيل الذي يقيم الحجة، وترك أمرهم بعد ذلك إلى اختيار عقولهم التي تميز الخبيث من الطيب، والشر من الخير.

فالأمر هو دعوة الخلق إلى سبيل السميع الحكيم بالحكمة وهي أعلى درجات الفعل المتزن الذي يتصف صاحبه بالهدوء وسعة الصدر وصفاء القلب ونقاء السريرة وهذا هو الخليفة

---

[٧٠٠] البقرة ٢٦٩

[٧٠١] النحل ١٢٥.

الذي يدعو بما سمع من السميع المطلق لهؤلاء الذين يريدهم الله أن يكونوا خلفاء في الأرض، فيترفع بهم السميع بالإضافة عن الطباع التي لا تليق بمن يشاء الله له أن يكون خليفة في أرضه، والوصول إلى هذه الدرجة له سبيل واحدة هي السمع، ولكن نوعية السمع للوصول إلى الترفع والتسامي الذي يميز العاقل عن غيره هو إسماع العقل والقلب واليقين عن طريق أداة السمع، فهنا يمتاز العاقل من غير العاقل، ونقصد به الثقلين من الجن والإنس، لذلك نراهم كما قال تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}[٧٠٢] فالذين سمعوا الخليفة عند ما دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة هم الذين آمنوا لأن السمع أثر في قلوبهم وأفئدتهم وصدورهم، وأما الذين كفروا فهم الذين سمعوا أيضا ما سمعه الذين آمنوا، ولكن الحكمة والموعظة الحسنة التي سمعوها لم تتجاوز أذنهم، أي أداة السمع التي يتوصل بها إلى يقين القلب وتسامي الروح وانسجام النفس مع الفضائل بمعنى أن تلك الحكمة لم تصل إلى قلوبهم وهو مصداق لقوله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وهنا يجب أن نشير إلى مسألة دقيقة يختلط بها السمع بالبصر ويجب أن نميز بينهما ففي الآية الكريمة جاء ذكر البصر بمعنى السمع، وهو بصر السمع إن صح التعبير، أي إن كان للبصر سمع فهذا هو المشار إليه، ذلك أن الصور المشاهدة عن طريق أداة البصر التي هي العين، إنما هي رؤية سواء في اليقظة أم في المنام حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}[٧٠٣] وكذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأنظر}[٧٠٤] فهذا النوع من الرؤية انعدمت فيه الأداة، وأما الصور التي تأتي عن طريق الأداة ونقصد هنا المشاهدة العينية، فلم يقترن معها في القرآن الكريم قلوب أو صدور أو أفئدة، وهذا يدل على تخصيص المشاهدة العينية للصور المادية وهو كثير في القرآن الكريم كقوله

---

[٧٠٢] البقرة ٢٥٣

[٧٠٣] يوسف ٤

[٧٠٤] الصافات ١٠٢

تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[٧٠٥] وكذلك قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[٧٠٦]، وكذلك قوله تعالى: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آَيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}[٧٠٧] من وهنا يتضح لنا الأمر في استخدام اللفظ على الدلالة لذلك نعود فنقول أن بصر السمع مقترن بالوعي المتأتي عن طريق التفكر فيما يسمعه السامع ، فقوله تعالى: {وما تعمى الأبصار) فهو عمى عن السماع لأن القلوب لا ترى الرؤية المادية للصورة المشخصة، وإنما ترسم صورة متخيلة من خلال السماع عن طريق الوعي الذي يدفعها إلى القلب الذي يشكل الصورة، وتشكيل الصورة عن طريق السمع تتعلق بأحد جانبين لا ثالث لهما، وهما جانب الخير وجانب الشر، وكلاهما مرتبط بالقيم الأخلاقية التي يتمتع بها السامع، لأن الأخلاق جزء من تكوين الإنسان وهو الجزء المهم على ما نعتقد، لأن هذه القيم الأخلاقية إنما تكونت لدى الإنسان عن طريق السمع أكثر من بقية الحواس الأخرى، ذلك أن الإنسان منذ نعومة أظفاره إلى أجله وهو يسمع الأحاديث والقصص وتجارب الآخرين، وأما الأفعال فهي نتيجة تقليد لما سمعه أو محاولة تجريب شخصية وهذا نادر جداً، فمعنى ذلك أن الأخلاق بشقيها إنما هي جاءته عن طريق السمع، فالشق الأول هو القيم الفاضلة، والشق الثاني هو قيم الرذيلة المتدنية، وكلاهما يندرج تحت الأخلاق، إذ أن الكذب والسرقة والزنا هي من القيم الأخلاقية، وكذلك الصدق والأمانة والعفة هي قيم أخلاقية أيضاً، ولكن الصدق والأمانة والعفة تندرج تحت الأجزاء العليا المتسامية من الفضائل في الأخلاق، بينما يكون الكذب والسرقة والزنا ينتمي إلى الأجزاء المتدنية في الرذائل من الأخلاق، وبما أن القيم الأخلاقية بصرف النظر عن نوعها سواء أكان مبدؤها عن طريق السمع ثم تأتي بعد ذلك محاولة التقليد أو التجريب للأفعال ومن ثم تكون سمة للشخص الممارس لهذه القيم التي يتصف بها بعد ذلك، فيؤدي

---

[٧٠٥] الواقعة ٦٣٦٤

[٧٠٦] فصلت ٥٣.

[٧٠٧] النجم ١٨

السمع بذلك إلى أحد أمرين يتصف من يحمل هذه الصفات بتلك الأخلاق التي تتشعب إلى جانبين، فالقيم الأخلاقية السفلى وهي المتدنية تندرج تحت باب الشر، والقيم الأخلاقية السامية العليا تترفع إلى مستويات الخير، وكلاهما قيم أخلاقية يكتسبها الإنسان عن طريق السمع، ولكن اختياره هو الذي يجعله من أصحاب القيم الفاضلة السامية وبذلك يكون خيراً، أو من أصحاب القيم الرذيلة المتدنية بحيث يكون شريراً، فالذي سلك مسلك الخير من خلال ما سمع، فقد استوعب الحكمة والموعظة الحسنة التي تجعله مهيئاً لأن يكون خليفة، والذي سلك مسلك الشر فقد ضل ضلالا بعيدا، فهو كالأنعام أو أضل سبيلا.

إن درجات السمع وأحوالها وطرقها مختلفة ومتفاوتة ومتباينة بين السميع المطلق والسميع بالإضافة وسماع بقية الخلق من البشر، فالسميع المطلق جل جلاله لا يمكن أن نقول إلا أنه ينعدم في طريقة سماعه الكيف والصوت والحرف والزمان والمكان فهو خالق الخلق وهو بكل شيء عليم حيث قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[٧٠٨] فالذي خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استولى على العرش بتدبير ملكه وإحكام شؤون هذا الملك والخلق، فهو بالضرورة يعلم كل ما تضمه الأرض وما يخرج منها، وكل ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، لذلك فهو عليم محيط بشؤون خلقه، وبما أنه عليم فهو سميع بصير، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ما من شيء إلا يسبح بحمده حيث قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[٧٠٩] ومن هذه الآية نقف على دليلين مهمين فيما نحن بصدده من السميع المطلق، الدليل الأول: أن التسبيح لا يكون إلا للأحياء، ومعنى ذلك أن كل شيء يسبح بحمده، وطالما أنه يسبح فهو حي بصرف النظر عن كل نوع من حياة المخلوقات المختلفة من

---

[٧٠٨] الحديد ٤

[٧٠٩] الإسراء ٤٤

الأحياء العاقلة كالملائكة والجن والإنس، والأحياء الأخرى من الحيوان والنبات، ومن المخلوقات التي نطلق عليها نحن اسم الجماد، ولكنها تسبح بحمد ربها بحياة لا نعلمها، والدليل الثاني: أن الذي أخبر أنها تسبح فهو يسمع تسبيحها، ولو لم يسمع تسبيحها لما أخبر بذلك لأنه غني عن هذا التسبيح، وإعلامنا بذلك هو إخبار على أنه سميع.

وسماع السميع المطلق جل جلاله أخبر الخلق بأنه سميع لكل شيء، ولكن لا يطلعهم على ذلك إلا بقدر معلوم في وقت مخصوص وبطرق مختلفة، فالسميع المطلق يسمع كل ما يصدر عن خلقه من أقوال، ويرى جميع ما يقومون به من أعمال، ويكون الإخبار به بأوقات متفاوتة وطرق مختلفة، فأقوال العباد التي يحاسبون عليها في الثواب والعقاب يسمعها السميع العليم ولكن مشيئته اقتضت إخبارهم بها في اليوم الآخر حيث قال تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[٧١٠] وأما ما يخص أحوال الناس في دينهم ودنياهم من الأسئلة التي كانت تطرح على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيكون الرد على سماعها بطريق الوحي، حيث نجد جميع الأسئلة التي وجّهت للرسول عليه الصلاة والسلام، كان يأتي بها الوحي بفعل الأمر (قل) إلا سؤالا واحدا سنتكلم عليه لاحقاً. فالسميع المطلق يسمع كل ما في الوجود، ونلاحظ أن الأسئلة الكثيرة التي كانت توجّه للرسول عليه الصلاة والسلام، مما جاء في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}[٧١١] وقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ}[٧١٢] وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}[٧١٣] ومثله قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا

---

[٧١٠] آل عمران ٣٠

[٧١١] البقرة ١٨٩

[٧١٢] البقرة ٢١٥

[٧١٣] البقرة ٢١٧

إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}[٧١٤] وكذلك: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}[٧١٥] وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ}[٧١٦] وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}[٧١٧] فجميع هذه الأسئلة وأمثالها التي سمعها السميع العليم، كانت الإجابة عنها بطريق الوحي للرسول عليه الصلاة والسلام بتكليفه بالإجابة لما سمعه الله منهم، بأمره أن يقول ويجيب عما يسألون عنه، وأما السؤال الوحيد الذي تولى السميع المجيب بنفسه الإجابة عنه فهو في قوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[٧١٨] فهنا لأن الأمر مختلف فقد تولى السميع الإجابة بنفسه ليدلل على أنه سميع وسريع الإجابة لمن يدعوه، ولأن الدعاء لا يكون إلا لله والرجاء لا يكون منه، فكان ذلك منطقيا بسرعة السمع التي يترتب عليها سرعة الإجابة فهو مطلع على العباد، عليم بما يأتون وما يذرون وما يبتغون من الله السميع من فضل ورحمة، فهو قريب من عباده بحيث يعلم ما يخفون وما يعلنون، وما يسرون وما يجهرون، ولم تكن الإجابة هنا بالفعل (قل) وإنما تولى السميع المطلق الإجابة المباشرة: إني أقرب إليهم مما يظنون، ودليل ذلك أن دعوة الداعي تصل في حينها، وهو الذي يجيبها فى حينها كذلك، وإذا كان السميع استجاب لهم، فليستجيبوا هم أيضاً بالإيمان والطاعة فإن ذلك سبيل إرشادهم وسدادهم.

إن الدعاء ومناجاة الله السميع أنه لا يجيبك كما تناديه أو تدعوه، وإنما يعرف المخلوق أن الخالق قد سمع نداءه من خلال النتائج المترتبة على الدعاء أو النداء حيث قال تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ

---

[٧١٤] البقرة ٢١٩

[٧١٥] المائدة ٤

[٧١٦] الأعراف ١٨٧

[٧١٧] الأنفال ١

[٧١٨] البقرة ١٨٦

ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[٧١٩] فنبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام دعا ربه حين أضْنَاه المرض فقال: يا رب إني قد أصابني الضرر في المال والولد، وآلمني المرض، وأنت أرحم الراحمين، فلم تكن إجابة السميع جل جلاله كلاما، وإنما أجابه إلى ما كان يرجوه بطرق الفعل المغيّر لواقع الحال، فرفع عنه الضُّر بأن ردّ عليه عافيته، وأعطاه أموالا وأولاداً بقدر مَنْ مات من أولاده وما هلك من أمواله، ثم زاده على ذلك رحمة من السميع، وهذا النوع من السماع هو سماع رحمة من الله تعالى بكشف الضر والمصيبة النازلة، وأما سماع التأييد فيتضح مما أوحى به الله تعالى لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآَيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ}[٧٢٠] فالله سبحانه منزه عن أن يكون مستمعا، ولكن المعنى سامعون لما يجري بينكما وبين فرعون فأظهركما عليه، وهو من باب تأييد الخليفة وإظهاره على الأعداء مبالغة وهذا السماع من جهة الحفظ والتأييد، فالله سبحانه وتعالى سميع يسمع المضطر إذا دعاه وهو المجيب جل جلاله.

اللهم يا السميع إنّاَ إليك راجعون، وعن ذنوبنا تائبون، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم، اللهم يا السميع نسألك باسمك السميع الذي سمعت به يونس في قلب الظلمات، أن تُسمع عنا دعوة الحق لخلقك، وتجعل أجر ذلك عفوك ورحمتك وغفرانك لنا ولوالدينا ولأصحاب الحقوق علينا، ونسألك باسمك السميع الذي سمعت به أيوب إذ مسّه الضر، أن تسمع دعاءنا، وتكشف الضر عنا، وعمّن أحسن إلينا، وعمّن أسأنا له يا سامع الدعاء ويا ناصر الضعفاء، أن تنصرنا على الأعداء، ونسألك باسمك الذي سمعت به دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، أن تجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم، وأن لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا من بعده.

---

[٧١٩] الأنبياء ٨٣ ، ٨٤

[٧٢٠] الشعراء ١٢ . ١٥

اللهم إنا سمعنا فأطعنا فاغفر لنا وارضى عنا لك الحمد والشكر لا إله إلا أنت سبحانك ما أعظم شأنك نستغفرك ونتوب إليك.

البصير

البصير: "الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون فيها فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك . فسبحان من تحيرت العقول في عظمته، وسعة متعلقات صفاته، وكمال عظمته، ولطفه، وخبرته بالغيب، والشهادة، والحاضر والغائب، ويرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان وحركات الجنان"[٧٢١].

البصير "هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات يرى ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السماوات السبع، بصير بأعمال العباد لا يخفى عليه منها شيء"[٧٢٢].

الحمد لله المنزه عما يخطر بالبال أو يتوهم في الفكر والخيال المحتجب برداء العز والجلال {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير}[٧٢٣] تحيرت العقول في حقيقة

---

[٧٢١] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٤٥.

[٧٢٢] الوجير في أسماء الله، ج ١، ص ١١.

ذاته وتخبطت الأفهام في أسمائه وصفاته واندهشت الأبصار في جلال حضرته {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}[٧٢٤].

البصير هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره أيضا منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان ومقدس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان فإن ذلك من التغير والتأثر المقتضي للحدثان وإذا نزه عن ذلك كان البصر في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات وذلك أوضح وأجلى مما يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيات.

حظ العبد من حيث الحس من وصف البصر ظاهر ولكنه ضعيف قاصر إذ لا يمتد إلى ما بعد ولا يتغلغل إلى باطن ما قرب بل يتناول الظواهر ويقصر عن البواطن والسرائر ، وإنما حظه الديني منه أمران ، أحدهما أن يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت السموات فلا يكون نظرة إلا عبرة قيل لعيسى عليه السلام هل أحد من الخلق مثلك فقال من كان نظره عبرة وصمته فكرة وكلامه ذكرا فهو مثلي، والثاني أن يعلم أنه بمرأى من الله عز و جل ومسمع فلا يستهين بنظره[٧٢٥].

البصير هو من لا تُخفى عليه خافية مصداقا لقوله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٧٢٦]. فالذي يضع كل شيء بحساب وميزان لا تخفى عليه خافيه، ولذلك القاعدة تقول: {الخالق يبصر الأشياء والأشياء لا تبصر خالقها) ولهذا بطبيعة الحال البصير المطلق خالق كل شيء فهو يرى الأشياء وهي لا تراه برغم وجوده وبرغم وجودها، ولهذا فالبصير هو مالك

---

[٧٢٣] الأنعام ١٠٣.

[٧٢٤] الشورى ١١.

[٧٢٥] المقصد الأسنى ص ٩١.

[٧٢٦] الأنبياء، ٤٧.

القـوة التـي يكشـف بهـا الخفايـا مصـداقا لقولـه تعـالى: {يَعْلَـمُ خَائِنَـةَ الْأَعْـيُنِ وَمَـا تُخْفِـي الصُّدُورُ}[٧٢٧].

والبصير: هو الذي يرى الأشياء والأحداث ويعلمها قبل حدوثها، ولذلك فالبصير هو العليم الحكيم، أي أنه يخلق الأحداث مثلما يخلق الأشياء ومثلما يخلق من الأشياء بشرا ومخلوقات لا تحصى ولا تعد بالعقل البشري الذي لم يؤت من العلم إلا قليلا. والخليفة هو المؤمن الذي يعلم هذا الأمر بالعلم الذي أبلغه الله به عن طريق اصطفاء الأنبياء والرسل وما كلفهم به واستخلفهم عليه سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله، ولذا فلخليفة الذي آمن بما أنزل ليس له بدا إلا أن يقول ربي زدني علما، قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآَنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}[٧٢٨].

البصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير جارحة، والبصر هو الذي به تُرى الأشياء هي كما هي، ولا تخفى عليه خافية، حتى يستمد الخليفة بصيرته التي يوصف بأنه المصلح في الأرض وغير المفسد ولا سافك الدماء فيها بغير حق، والجمع أبصار. وفي اللغة بصر به نظر إليه، أبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه، ورجل بصير مبصر

---

[٧٢٧] غافر ١٩.

[٧٢٨] طه، ١١٤ ـ ١٢٥.

خلاف الضرير، وفي التنزيل العزيز: {لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار}[٧٢٩]. ولذا فالبصير هو الذي يُدرك الأشياء المتجاوزة لحاسة البصر، والمبصر هو الذي يُدرك حقيقة وجودها بالمشاهدة العينية، وعليه فالبصير يُدرك العلل والخفايا التي من وراء خلق الأشياء والمخلوقات، والمبصر فقط هو الذي يصف ما يشاهده ولا يدرك ما خلفه، وهذا الأمر المخفي هو الذي يعلمه ويدركه البصير. قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}[٧٣٠].

البصير هو الذي يعلم ما لا يعلمه المبصر فقط، ولهذا المؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يقف عند حد مشاهدة الإبل، بل يتعداها إلى معرفة الكيفية التي بها وعليها خلقت، حتى يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمنا بأن من ورائها خالق عظيم يملك قوة الخلق كله ويؤمن إدراكا أنه الخالق الذي لا يُخلق جل جلاله.

يقول صاحب اللسان: أعلم الله أنه يدرك الأبصار وفي هذا الإعلام دليل أن خلقه لا يدركون الإبصار أي لا يعرفون كيف حقيقة البصر وما الشيء الذي به صار الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، فاعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير[٧٣١].

والأبصار من جهة أخرى هو الاعتبار والاستبصار كما في قوله تعالى: {وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى العمى وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ}[٧٣٢] الضمير يعود للمخاطب وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فالكفرة الفجرة يعرفون حُجة محمد رسول الله ويجحدون الحقيقة الآتي بها، ولذا فهم كالأعمى الذي فقد بصره فلا يرى شيء. فالله حقيقة لا صورة له ولا شكل، وله

---

[٧٢٩] الأنعام ١٠٣.

[٧٣٠] الغاشية، ١٧ ـ ٢٢.

[٧٣١] لسان العرب، ج ٤ ص، ٦٦.

[٧٣٢] يونس ٤٣.

وجود الإعجاز، وتثبته حجج محسوسة وهي جميع المخلوقات التي بطبيعة الحال لا تكون إلا ويكون من ورائها خالق أعظم منها، ومن هذه المخلوقات الخليفة الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم ليدرك خالقه عن بينة ووعي لا لبس فيه، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٧٣٣].

بما أنه ليس كمثله شيء، إذن هو المُثبت بصفة عدم التماثل، أي لو لم يكن موجودا ما كان ذا خصوصية مطلقة، وفي هذا تكون جميع الموجودات {المخلوقات) ذات خصوصيات نسبية تسمح بالمقارنات وفقا للفروق النسبية، إلا هو عز وجل ليس كمثله شيء، وبهذه الصفة هو مثبت، ومع أنه ليس كمثله شيء، فهو السميع البصير الذي لا تخفى عنه خافية، يسمع المنادي والمناجي والمستغيث ويستجيب في ذات الوقت لكل خليفة مطيع بالعبادة وأداء الواجبات ومطيع بالانتهاء عن كل ما نهى عنه.

ويمكن إيراد هذه الحجة على وجه آخر، فيقال:

- إما أن يكون المراد لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ: في ماهيات الذات.
- أو أن يكون المراد ليس كمثله في الصفات شيء.

والثاني باطل؛ لأن العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين، كما أن الله تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين، مع أن الله تعالى يوصف بذلك، فثبت أن المراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات، فيكون المعنى أن شيئاً من الذوات لا يساوي الله تعالى في الذاتية، فلو كان الله تعالى جسماً، لكان كونه جسماً ذاتاً لا صفة، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية - أعني في كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة-، فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتاً، والنص ينفي ذلك فوجب أن لا يكون جسماً[٧٣٤]. ومجمل القول: اتفق العلماء على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به

[٧٣٣] الشورى ١١.

[٧٣٤] تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٤١٦.

المعنى الصحيح وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته {ليس كمثله شيء} ردا على المماثلة المشبهة {وهو السميع البصير} ردا على النفاة فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم ويراد به أنه لا يثبت لله شيئا من الصفات[٧٣٥]. وأن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقة، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسماً لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل.

أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلاً للعدم والفناء قابلاً للتفرق والتمزق.

وأما النقل فقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء} فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أننا لا نقول بأنه متى حصل الاستواء في الصفة لزم حصول الاستواء في تمام الحقيقة، إلا أننا نقول لما ثبت أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية، فلو كانت ذاته جسماً لكان الجسم مساوياً لسائر الأجسام في تمام الماهية، وحينئذ يلزم أن يكون كل جسم مثلاً له، لما بينا أن المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي، لا اعتبار الصفات القائمة بها فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن حجة أهل التوحيد في غاية القوة، خلافا لمن كان بعيداً عن معرفة الحقائق، فجرى على منهج كلمات العوام.

وبناء على قاعدة: {الخليفة يستمد صفاته الحسان من صفات مستخلفه} فإن البصير بالإضافة هو المستبصر في أمره بأمر خالقه الذي خلقه في أحسن تقويم، وهو من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون فتبارك الله أحسن الخالقين. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ

---

[٧٣٥] شرح العقيدة الطحاوية، ج ١ ص، ٩٩.

ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}[٧٣٦].

بناء على هذه الآيات الكريمة فإن الخليفة هو البصير بالأمور الآتية:

١ . بصير بفلاحه أي قيامه بالأعمال الخيرة التي يقدم على أدائها بإخلاص وإيمان ووعي تام بما يترتب عليها من جزاء في مرضات الخالق عز وجل، ولذا فالفلاح هو التوفيق والفوز بالأعمال الحسنة، ولهذا (فقد أفلح المؤمنون) حكم اعترافي بأنهم قد أفلحوا بما قَدِموا عليه من أفعال الخير التي كانت على علم البصير المطلق جل جلاله، ولذا فإن المؤمنون هم الذين قد أفلحوا مصداقا لقوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ).

٢ . البصير بالإضافة هو الذي يرى إعجاز الآيات التي يقرأها في صلاته فيخشع لله وحده، ولذا فالبصير هو المدرك لمعقبات ما يقرأ من آيات قرآنية فيزداد خشوعا مصداقا لقوله تعالى: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

٣ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، هم: الخلفاء الذين يخشون البصير المطلق الذي يعلموا بوحدانيته ويؤمنون بها ويعلمون أنه يعلم ما يعلمون وما لا يعلمون، ويتوبون إليه خاشعين فما لا يعنيهم من قول أو فعل لا يلتفتون إليه، ولا يجترحون به أحد، وذلك لعلمهم بأمر البصير الذي يعلم أمرهم ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وعدها عدا، ولأن الذنوب تسجل اللغو ذنبا فهم عن اللغو معرضون.

---

[٧٣٦] المؤمنون ، ١ . ١٧.

٤ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، هم المؤمنون حقا الذين بإيمانهم يُبصرون ويستخلفون في الأرض، يخشون الله ويعملون على إحقاق الحق فيخرجون الزكاة طهارة عمَّا يملكون وطهارة لأنفسهم بالطاعة التامة لله رب العالمين.

٥ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، طاعة لأمر الله تعالى، وتهذيبا لأخلاقهم وتمسكا بفضائل المجتمع المستخلف في الأرض على القيم والفضائل الخالدة بمحبة الله عز وجل، فالمبصرون بالإضافة هم الممسكون لفروجهم عن الحرام، وذلك لأجل حفظ النوع بعد طاعة الله في أمره، ولهذا فهم المستخلفون بالحلائل لا بالمحرمات، والحلائل هي المستثنية وهي: (أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ).

٦ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، فمن ابتغي أن لا يكون من المستخلفين فهو من العادين الذين يتعدون حدود الله في أمره ونهيه، والبصير من العباد هو الذي يُبصر الحق فيتبعه ويعلم الحق فيطيعه، ولذا فهو المنتهي عما نهى الله عنه والطائع له بالمطلق.

٧ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، الرعاية: انتباه وعناية واهتمام من أجل السلامة والحفظ من كل حاجة أو سوء، ولذا فالمبصرون هم الذين لأماناتهم وعهودهم راعون. أي محافظون على العهد وراعون للأمانة حفظا بعدم النقض أو الخيانة مع الرعاية التامة لذلك.

٨ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، البصير هو المدرك للحق فيتبعه، ولذا فالذين يحافظون على صلواتهم هم الخلفاء الذين التزموا بأمر الطاعة لله وحده لا شريك له، ولهذا فهم المداومون على أدائها في أوقاتها لإدراكهم إنها الحق الذي يستوجب الطاعة التامة. قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[٧٣٧].

٩ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، الذين يمتلكون الصفات الحسان السابقة الذكر هم المبصرون الذين سيرثون جنة الفردوس بالخلود فيها أبدا، ولذا فمن يعمل صالحا في الدنيا يوحِّد الله طاعة تامة لا شريك له، ويتزكى ويصلي ويصوم ويؤدي الفرائض وينتهي عن النواهي المنهي عنها، فيفوز بالجنة وهو من الوارثين.

---

[٧٣٧] العنكبوت، ٤٥.

١٠. وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، العودة إلى أصل خلق الخليفة وهو الطين الذي هو من أديم الأرض ومن مكوناتها، ولهذا فالبصير هو الذي يُدرك أصل خلقه فيقدِّره ويعرف خالقه فيعبده واحد أحد لا شريك له، ويعرف من أبلغه بالمعجزات أو جاء بها فيصلي ويسلم عليه ويتبع سنته في مرضات الله، ولهذا فللأرض أهمية، فيعمل البصير على إصلاحها ولا يُفسد ولا يسفك الدماء فيها بغير حق، وللخالق الطاعة التامة بالوحدانية ركوعا وسجودا حتى الفوز برضاه، ويتَّبع السنة الشريفة حتى يتشرف بتباع الحق هو كما هو، مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٧٣٨].

١١ . البصير المطلق جل جلاله يبين للبصير بالإضافة مما خُلق والكيفية التي بها خلق، والتطورات والتغيرات التي تصاحبه في كل فترة زمنية وفي كل مرحلة عمرية ليبصر القدرة التي خلقته والقوة التي لا تماثلها قوة حتى يؤمن ولا يشرك بعبادة ربه أحدا، ولهذا جاء قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) القرار المكين هو رحم المرأة، المقر المناسب لنمو الجنين والحفاظ عليه مع وافر العناية والرعاية التي لا تجعله في حاجة لسواه مادام في نموه الجنيني في القرار المكين.

١٢ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، تطوُّر وتغيُّر جديد على الجنين يضاف إلى التغير السابق، أي أصبح على حالة من التماسك والتعلق بالدورة الدموية للأم فيتغذى من غذائها.

١٣ . فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، أي بدأ التشكل من اللحم يأخذ صوره ليقترب من مرحلة أخرى تضيف إليه شيئا جديدا. ولهذا قال تعالى: {وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}[٧٣٩]. وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[٧٤٠]. وحتى لا توسوس الأنفس وتظن في غير محله فإن الخالق هو الذي خلق الأشياء وخلق من الأشياء خلق آخر فتبارك الله أحسن الخالقين.

---

[٧٣٨] الحشر، ٧.

[٧٣٩] السجدة، ٢٧.

[٧٤٠] ق ، ١٦.

١٤ . فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، بدأ الهيكل يأخذ شكل لإظهار الصورة، بدلا من كتلة اللحم الخالصة التي تكونت من العلقة. إن المتتبع لخطوات الخلق إذا كان بصيرا يدرك الإعجاز في كل مرحلة من مراحل الخلق والنمو فتبارك الله أحسن الخالقين.

١٥. فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا: لا يدرك هذه المعجزة إلا بصير ذو عقل وبصيرة حتى يرتقي إلى معرفة الكيفية التي بها تتم عملية الخلق وهي القدرة المطلقة للخالق المطلق عز وجل، فكسونا: تعني لقد تمت تغطية العظام باللحم المستمد من المضغة المستمدة من العلقة القارة في المكين المستقر في رحم الأم التي هي في أصل خلقها من طين.

١٦ . ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، أصبح الجنين مولودا متكاملا له صفة الإنسان الذي قال عنه جل جلاله: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٧٤١]. ولهذا تبارك الله أحسن الخالقين، والتبارك هنا مضاعفة المحاسن حتى يصبح الخليفة موصوفا بأحسن التقويم إذا ما قورن بغيره من الخلائق.

١٧ . الذي لا بصيرة له لا يدرك المعجزات في صور الخلق المتعددة كما هو مبين في مراحل التطور تلك، والمبصر فقط هو الذي يُرِيكَ الكيفية التي بها تم خلقه، وهذه ميزة تميزه عن بقية المخلوقات التي لم تدرك ما يدركه من خُلِق في أحسن تقويم، ومع ذلك فالمؤمن المستخلف في الأرض يعلم أن النهاية مرحلة من مراحل التطور التي بها تُطوى المسافة بين الدنيا وزخرفتها وبين الآخرة والجنة التي هي غايته المطلقة، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ}[٧٤٢].

١٨ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ، الخليفة البصير كما أدرك مراحل الخلق والتطورات والتغيرات التي تصاحبها نموا، يدرك أيضا أن الموت مرحلة من مراحل النمو التي تؤدي إلى يوم البعث لتكون الحياة الحيوان لمن اتقى فوزا بالجنة، وتكون جهنم لمن كفر وأشرك بربه الواحد الأحد عذابا شديدا.

---

[٧٤١] التين، ٤.

[٧٤٢] المؤمنون ١٥.

١٩ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ، تنبيه لا يدركه إلا مبصر، الذي يعلم من علمه تعالى أنه خالق السموات السبع وهي: الطرائق السبع والأراضي السبع، والتنبيه يقصد به: الخليفة في الأرض فقط، والطرائق السبع هي أعلى من الأرض وفي هذا العلو الذي يملأه الله المبصر المطلق فهو لم يكن بغافل عما عملت أيدي الناس وما أضمرت نفوسهم وما ظنت عقولهم في الأرض السفلى فتبارك الله أحسن الخالقين والحمد لله رب العالمين الذي جعل لنا بصرا وبصيرة ندرك بها الآيات العظام وندركه بها واحداً أحداً لا شريك له ونخلفه بالطاعة والإيمان لا إله إلا هو.

والذي يجب الانتباه إليه أن يكون الخليفة بصيرا فيما يُقال وفيما يُبصر وفيما يُسمع ويتذوق أو يلمس، وذلك لوجود معانٍ وراء كل معرفة ومعرّف أو معرَّف به، فالبصير هو من يتمكن من إدراك الظاهر والتعامل معه وفقا لقاعدة إحقاق الحق وإزهاق الباطل ومعرفة الكامن والتعامل معه بميزان العدل دون ظن في غير محله أو حكم في غير محله، ولهذا فالبصير هو الذي يتبيَّن أولا ويقول رأيا أو يصدر حكما ثانيا.

ولأن الله واحد فالبصير بالإضافة دائما لا يراه إلا كذلك، واحداً أحداً، ومع أنه لا يتماثل في شيء ولا يقارن بشيء إلا أن الخليفة هو الوحيد الذي يستمد صفاته من صفات خالقه في القول والسمع والفعل والعمل والسلوك، ولهذا فهو المصلح في الأرض دون غيره وهو بصير بقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء) ولهذا الخليفة لا يخلف الله في وجوده بل يخلفه باستمداد صفاته منه.

و(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء) تدل على أن خالق الأشياء ليس كمثله شبيه، ولذا فالشيء مخلوق والله خالق والفرق كبير بين الخالق والمخلوق. وفي حرف التشبيه الدليل الدال على كونه منزّهاً عن المثل، وهذه الآية دالة على نفي المثل[٧٤٣]. وقوله تعالى: (وَلَهُ المثل الأعلى}[٧٤٤] والمثل الأعلى هو في ذاته التي لا يرتقي للوصف بها أحد، ويقتضي إثبات المثل فلا بد من الفرق

---

[٧٤٣] تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٤١٩.

[٧٤٤] الروم ٢٧.

بينهما، فنقول المثل هو الذي يكون مساوياً للشيء في تمام الماهية والمثل هنا في الآية هو الذي يكون مساوياً له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفاً في تمام الماهية.

وختم جل في علاه الآية السابقة بقوله تعالى: (وَهُوَ السميع البصير) وهي الدليل على أن السماع مغاير لتأثر الحاسة أنَّا إذا سمعنا الصوت علمنا أنه من أي الجوانب جاء، فعلمنا أنا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت في نفسه، وهذا يدل على أن إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء. وأما الرؤية فالدليل على أنها حالة مغايرة لتأثر الحدقة، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه، فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية في نفس العالم عظيمة، وهذا يدل على أن الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع، وإذا ثبت هذا فنقول لا يلزم من امتناع التأثر في حق الله امتناع السمع والبصر في حقه.

فإن قالوا: هب أن السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أن حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر، فلما كان حصول ذلك التأثر في حق الله تعالى ممتنعاً كان حصول السمع والبصر في حق الله ممتنعاً.

فنقول ظاهر قوله: (وَهُوَ السميع البصير) يدل على كونه سميعاً بصيراً فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أن الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر، والتأثر في حق الله تعالى ممتنع، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعاً، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه، فإن قال قائل قوله: (وَهُوَ السميع البصير) يفيد الحصر، فما معنى هذا الحصر، مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعون بصيرون؟ فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين

على سبيل الكمال، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله، فهذا هو المراد من هذا الحصر[٧٤٥].

والخلفاء على أرضه يجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده واتباعه بالإيمان والعمل به بالوجوب. (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ففي هذا الإثبات ما يقرر معنى النفي ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله ليس كمثله شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله مما أخبرنا به من صفاته وله صفات لم يطلع عليها احد من خلقه كما قال رسوله الصادق في دعاء الكرب:" اللهم أني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي"[٧٤٦]. لا شيء يعجزه من النفي المذموم فان الله تعالى قال: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض انه كان عليما قديرا}[٧٤٧]، فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز وهو كمال العلم والقدرة فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل وإما من عدم علمه به والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: {تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا}[٧٤٨]. ولأن الله واحداً أحداً فهو بطبيعة الحال لا يكون له مثيل أو شبيه، ولكن يكون هو المتصف بصفات منه تعالى. فالذي يستمد صفاته من صفات عليا يكون مع العليين، والذي يستمد صفاته التي بها يُعرف من صفات دنيا يكون مع الذين هم في أسفل السافلين. ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأسماء هَؤُلاَءِ

---

[٧٤٥] للمزيد ينظر تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٤٢٠.

[٧٤٦] شرح العقيدة الطحاوية، ج ١ ص، ١١٠.

[٧٤٧] فاطر، ٤٤.

[٧٤٨] شرح العقيدة الطحاوية، ج ١ ص، ١١١.

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[٧٤٩].

ولأن الإنسان أكثر شيء جدلا، فهو المختلف عن بقية المخلوقات الأخرى التي آمنت تسليما فما من شيء إلا ويسبح باسمه {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[٧٥٠]. إذن كل شيء يسبح بحمده إلا الذي كان أكثر شيء جدلا لا يسبح إلا بعد إيمان، ومع أن الله قد ميزه بأحسن التقويم إلا أنه بذلك التقويم الخارق إذا ما قورن بغيره من المخلوقات يشك أحيانا في غير محله ويظن وهو يعلم أن بعض الظن إثم، فيضل السبيل الحق الذي اختاره البصير الذي ببصيرته استخلفه الله تعالى في الأرض وعهد له الوراثة في الجنة.

وعليه فالجدل بالحجة يؤدي إلى الاتفاق والتفاهم والتفهُّم والجدل بغيرها لا يؤدي إلا إلى المعصية القاصية عن الاستخلاف ووراثة الجنة.

والفهم الذي يجب هو ما يحصله العقل ويحيط به ولا ينشغل بما هو أكبر وأعلى وأجل؛ لأن الله تعالى لا يُعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى ولمبصر وحده يعرفه سبحانه بصفاته وهو أنه أحد صمد {لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد}[٧٥١]، وهو {الله لا اله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض}[٧٥٢]، و{هو الله الذي لا اله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم}[٧٥٣].

---

[٧٤٩] البقرة، ٣٠ . ٣٣.

[٧٥٠] الإسراء، ٤٤.

[٧٥١] الإخلاص ٣٤.

[٧٥٢] البقرة ، ٢٥٥.

[٧٥٣] الحشر ٢٤.

ففي قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، نفى المثل وأثبت الصفة وإثبات الصفات تنبيها على أنه ليس نفي التشبيه مستلزما لنفي الصفات ومما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع ولا بقياس شمولي يستوي أفراده فإن الله سبحانه (ليس كمثله شيء) ولهذا لا مجال من حيث المقارنة، فالمقارنة تسمح بمقارنة أرنب بأرنب وغزالة بغزالة ورجل برجل وهكذا، وذلك بوجود مبررات التشابه، أما استمداد الصفات والأفعال من الواحد للكثرة فهذا متاح مع صفات الخالق عندما تدركه العقول هو كما هو، وكذلك يمكن أن يستمد الشبيه من الشبيه سلوكا حسنا أو سلوكا غير حسن، وهنا يكون الفرق أن الخليفة لا يستمد من خالقه إلا الصفات الحسان وذلك لانعدام غيرها من الصفات من ذاته، إما من الشبيه فالشبيه يمتد بين الكفر والشرك والظن والإثم والمغفرة والتوبة والإيمان ولهذا لكل سلوك وفعل وعمل. فمن استمد صفاته من خالقه وسلوكه وفعله من سنة الرسول الكريم كان قدوة حسنة من القدوة الحسنة.

والحديث في هذه المسائل يطول فكلما أراد الإنسان الخروج منها رجع إليها وهذا من عجيب هذه المسائل؛ لأنها محل نظر وتوقف، ربما كان التوقف سبيلا لدخول الوساوس الشيطانية، ولأن الوقوف عندها يكون بعدها طرق الباب ومن ثَمَّ الولوج فيها ، ولكن الأولى بنا أن ننظر في ملكوته وننظر في خلقنا وكيف تطورنا من التراب إلى النطفة والعلقة والمضغة والنشوز بالعظام إلى أن أصبحنا خليفة بأحسن التقويم وتبارك الله أحسن الخالقين. وعلينا أن نتفحص ببصرنا وسمعنا وحواسنا الأخرى هذه النعم التي لا تحصى، ولنأخذ نعمة البصر وما يتعلق بها من الرؤية سواء أكانت الرؤية في جواهرنا أم في مظاهرنا، وسواء أكانت في الأشياء الدقيقة أم في الأشياء الكبيرة العملاقة.

فإن هذه الجمادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع والقوى والأغذية والنباتات التي هي كذلك فيها من الحكم والمنافع ما قد أكثرت الأمم في وصفه على ممر الدهور ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا إلى أيسر شيء وأقله بل لو اتفق جميع الأمم لم يحيطوا علما بجميع ما أودع واحد من ذلك النوع من الحكم والمصالح هذا إلى ما في

ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة على وجود الخالق ومشيئته واختياره وعلمه وقدرته وحكمته فإن المادة الواحدة لا تحتمل بنفسها هذه الصورة الغريبة والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هذه الأنواع والصور بنفس التركيب أيضا ولا هو مفيض له فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه فعَّال لما يريد اختيارا ومشيئة فتنويع مخلوقاته وحدوثها شيئاً بعد شيء من أظهر الدلالات؛ وتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع بقوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٧٥٤]، وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٧٥٥]. وقوله: {ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون}[٧٥٦]، وقوله: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٧٥٧]، وقول تعالى: {والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير}[٧٥٨]. فتأمل أيها الخليفة في أرضه كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، ونبه على الاشتراك والاختلاف فيشير

---

[٧٥٤] الرعد ٤.

[٧٥٥] البقرة ١٤٦.

[٧٥٦] يونس ٦٧.

[٧٥٧] النحل ١٠.

[٧٥٨] النور ٤٥.

إلى يسير منه فالطير كلها تشترك في الريش والجناح وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها في ما وراء ذلك، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك، واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره، {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}[٧٥٩]، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره، واشتراك الماشي مع الماشي والزاحف مع الزاحف وتفاوته عنه أعظم تفاوت وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحليل على جلب مصالحه ودفع مضاره فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته وذلك أدل شيء على قوته وبصره وقدرته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل فيعلم إحاطة قدرة واحدة وعلم واحد وحكمة واحدة.

قال تعالى: {ويخلق ما لا تعلمون}[٧٦٠]، وقال: {فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون}[٧٦١]، فيجمع غايات فعله وحكمة خلقه وأمره إلى غاية واحدة هي منتهى الغايات وهي ألوهية الحق التي كل ألوهية سواها فهي باطل ومحال فهي غاية الغايات ثم ينزل منها إلى غايات أخر هي وسائل بالنسبة إليها وغايات بالنسبة إلى ما دونها {وان إلى ربك المنتهى}[٧٦٢] فليس وراءه معلوم ولا مطلوب ولا مذكور إلا العدم المحض وليس في الوجود إلا الله ومفعولاته وهي آثار أفعاله وأفعاله آثار صفاته وصفاته قائمة به من لوازم ذاته. والمقصود أن الغايات

---

[٧٥٩] النحل ١٨.

[٧٦٠] النحل ٨.

[٧٦١] الحاقة ٣٨.

[٧٦٢] النجم ٤٢.

المطلوبة العلم بإحاطة علم واحد من عالم واحد وفعل واحد من فاعل واحد وقدرة واحدة من قادر واحد وحكمة واحدة من حكيم واحد مطلق لا إله إلا هو جل جلاله.

تتوحد الربوبية والإلهية وتتعدد الصفات والأفعال، فنلاحظ النظام الواحد والحكمة الجامعة للأنواع المختلفة مع ضدها وتعذرها. ودل افتقار بعضها الى بعض وتشبك بعضها ببعض ومعاونة بعضها ببعض وارتباطه به على أنها صنع فاعل واحد ورب واحد فلو كان معه آلهة وأرباب غيره كما لا ترضى ملوك الدنيا أن يحتاج مملوك احدهم الى مملوك غيره مثله لما في ذلك من النقص والعيب المنافي لكمال الاقتدار والغناء ودل انتظامها في الوجود ووقوعها في ثباتها واختلافها على أكمل الوجوه وأحسنها على انتهائها إلى غاية واحدة ومطلوب واحد هو إلهها الحق ومعبودها الأعلى الذي لا إله لها غيره ولا معبود لها سواه فتأمل كيف دل اختلاف الموجودات وثباتها واجتماعها فيما اجتمعت فيه وافتراقها فيما افترقت على إله واحد ورب واحد ودلت على صفات كماله ونعوت جلاله فالموجودات بأسرها كعسكر واحد له ملك واحد وسلطان واحد يحفظ بعضه ببعض وينظم مصالح بعضه ببعض ويسد خلل بعضه ببعض فيمد هذا بهذا ويقوي هذا بهذا وينقص من هذا فيزيده في الآخر يولج الليل بالنهار ويولج النهار بالليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويبيد هذا فينشئ مكانه من جنسه ما يقوم مقامه ويسد مسده فيشهد حدوث الثاني إن الذي أحدثه وأوجده هو الذي أحدث الأول لا غيره وإن حكمته لم تتغير وعلمه لم ينقص وقدرته لم تضعف وإنه لا يتغير بتغير ما يغير منها ولا يضمحل باضمحلاله ولا يتلاشى بتلاشيه بل هو الحي القيوم العزيز الحكيم[٧٦٣].

هذا إلى ما في لوازم مكبرها وانتظام بعضها ببعض وما يصدر عنها من الأفعال والآثار من حكم وأفعال أخرى وغايات أخر حكمها حكم موادها وحواملها كما نشاهده في أشخاصها وأعيانها مثال ذلك في أحدوثه واحدة إنك ترى المعدة تشاق الغذاء وتجتذبه إليها فانظر لوازم ذلك قبل تناوله ولوازمه بعد تناوله وما يترتب على تلك اللوازم من عمارة الدنيا فإذا جذبته

---

[٧٦٣] شفاء العليل، ج ١، ص ٢٣١، ٢٣٢.

إليها أنضجته وطبخته كما تنضج القدر ما فيها فتنضجه الإنضاج الذي تعده لتغذي أجزاء البدن وقواه وهي إذا أنضجته لأجل نصيبها الذي ينالها منه فهو قليل من كثير بالنسبة إلى انتفاع غيرها به فيدفع ما فضل عن غذائها عنها إلى من هو شديد الحاجة إليه على قدر حاجته من غير أن يقصد ذلك أو يشعر به ولكن قد قصده وأحكمه من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير يدبره بحكمته ولطفه وساقه في المجاري التي لا ينفذ. فيها الإبر لدقة مسالكها حتى أوصله الى المحتاج إليه الذي لا صلاح له إلا بوصوله إليه وكانت طبيعة الكبد ومزاجها في ذلك تلي طبيعة المعدة وفعلها يلي فعلها وكذلك الأمعاء وباقي الأعضاء كالكبد للقلب في إعداد الغذاء والقلب للرئة والرئة للقلب في إعداد الهواء وإصلاحه فالأعضاء الموجودة في الشخص إذا تأملتها وتأملت أفعالها ومنافعها وما تضمنه كل واحد منها من حكمة اختصت به كشكله ووصفه ومزاجه ووضعه من الشخص بذلك الموضع المعين علمت علما يقينا أن ذلك صادر عن خالق واحد مبصر ومدبر واحد وحكيم واحد فانتقل من هذا إلى أشخاص العالم شخصا شخصا من النوع الإنساني تجد الحكمة الواحدة الظاهرة في تلك الأفراد الكثيرة قد نفعت بعضهم بعض وأعانت بعضهم ببعض حارثاً لزارع وزراعا لحاصد وحائكا لخياط وخياطا لنجار ونجارا لبناء فهذا يعين هذا بيده وهذا برجله وهذا يعينه بعينه وهذا بإذنه وهذا بلسانه وحكمته وهذا بماله وإذ لا يقدر أحدهم على جميع مصالحه ولا يقوم بحاجاته ولا توجد في كل واحد منهم جميع خواص نوعه فهم بأشخاصهم الكثير كإنسان واحد يقوم بعضه بمصالح بعض قد كمل خواصه الإنسانية في صفاته وأفعاله وصنائعه وما يراد منه فإن الواحد منهم لا يفي بأن يجمع جميع الفضائل العلمية والعملية والقوة والبقاء فجعل ذلك في النوع الإنساني بجملته والله سبحانه وقد فرق كمالات النوع في أشخاصه وجعل لكل شخص منها ما هو مستعد قابل له بحيث لو قيل أكثر من ذلك لأعطاه فإنه جواد لذاته قد فاض جوده على العالم كله.

أما النظر في جواهرنا وأنفسنا فلننظر كما قال تعالى: {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[٧٦٤] النفس ليست الروح ولا البدن، هي شيء آخر، يتكون من القبول والرفض والرضا وعدم الرضا الخوف والطمأنينة، الاتزان والقلق والوسوسة التي بها تمتلئ الصدور فتتسع أو تضيق. فالنفس توصف ويتم التعرف عليها بالمخاطبة وتؤدي بصاحبها للتفاعل أو عدم التفاعل، وهكذا تظل على قيد الحياة إلى أن يتوفاها الله تعالى.

في الآية الكريمة السابقة استغراب تساؤلي: أن الأنفس التي لا تدرك حقيقة أمرها لم تبصر حالها، ولذلك الخليفة مع استغراب هذه الآية يستغرب كيف لا يدرك الإنسان نفسه ليبصر أمره وما يربطه بالخالق العظيم جل جلاله. يستمر الاستغراب مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[٧٦٥]، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}[٧٦٦]، وقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[٧٦٧].

قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}[٧٦٨].

وإذا ما خرجنا من باطن الإنسان لنبصر ونرى ما حولنا من الأشياء الدقيقة والكبيرة فإننا يجب أن ننظر إليها بعقلنا وفكرنا وكيف تسير وفق نظام دقيق لا اختلال فيه فهذه الكواكب وهذه النجوم (الشموس) والمجرات والأجرام بمختلف الأحجام تسير في مسارات على شكل دوائر تعرف بالمدارات – في علمنا الحديث – فإذا نظرنا إلى مجموعتنا الشمسية نجدها تسير وفق نظام عجيب فكل كوكب له مدة تختلف عن غيره في دورانه حول نفسه وحول

---

[٧٦٤] الذاريات ٢١.

[٧٦٥] محمد ٢٤.

[٧٦٦] الأعراف ١٧٩.

[٧٦٧] الحج ٤٦.

[٧٦٨] الأنعام ١٢٢.

الشمس فأقربها يأخذ ثلاثة وثمانين يوما للدوران حول الشمس؛ لقربه منها، أما المشتري فيأخذ مائتين وثمانين سنة ليستكمل الدورة نفسها. ولننظر إلى القمر كيف جعله منيرا مصداقا لقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا}[٧٦٩]، وكيف جعل الشمس سراجا وهاجا {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}[٧٧٠]. ولنقترب إلى كوكبنا ماذا ينتج عن هذه الدورة التي يلفها حول نفسه لنبصر ما نتج عنها الليل والنهار، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[٧٧١]. في جميع الآيات الواردة بالمبصرين والتساؤلات التي تتضمنها تربط العقل والإدراك والتبيُّن وذلك لأجل المعرفة عن وعي تام، وفي معظمها تفطين يستهدف العقول والقلوب والأنفس إلى الانتباه بما هو ملاحظ أو مشاهد وقابل للتعرف عليه، أو التعرف به كدليل إثبات لا شك فيه.

قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}[٧٧٢]. الذي خلق كل شيء وما ذكر منه في هذه الآية، ألا يكون هو العزيز الغفار؟. وإلا لماذا خلق كل ذلك لو لم يكن عزيزا ولو لم يكن غفارا لمن استغفر وتاب إليه واحداً أحداً لا شريك له. قال تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) تلاحم واتصال في حركة دائرية غير منفصلة يحمل الليل على النهار ويحمل النهار على الليل فيَغْشَى هذا الآخر، ويغشى الآخر هذا. وما ينتج عن هذا الاختلاف من فائدة كتعاقب الفصول الأربعة وما ينتج عن هذه الفصول من معرفة للحساب والأوقات وكل ذلك بتسخير الله تعالى، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا

---

[٧٦٩] الفرقان ٦١.

[٧٧٠] النبأ ١٣.

[٧٧١] القصص ٧٢.

[٧٧٢] الزمر ٥.

عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا}[٧٧٣]. آية النهار مبصرة بنور الله وشروق الشمس ووضوح النهار للحركة والعمل، أي سخر الشمس والقمر لعباده، ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب، ويعرفوا الليل من النهار لمصلحة معاشهم ولن تجد اختلالا فيها إلى قيام الساعة، وأن لكل واحد منها منزل، لا يعدوه ولا يقصر دونه، وإن الله فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم ليبين للخليفة إنه البصير بأحواله وأمره فليتب مخلصا له الدين مصلحا في الأرض المستخلف فيها وفاعل للخيرات.

وأن يكون بصيرا بكل ما يجري حوله حتى لا يقع في المزلات والمحضور ولا يفسد في الأرض ولا يسفك الدماء فيها بغير حق.

وإذا ما ركزنا بنظرنا وبصرنا في البر والبحر وتفحصنا الأشياء الصغيرة من فيروسات وبكتيريا وفطريات وطحالب وكيف استطاع العلي القدير أن يجعل منها النافع والضار، فالنافع منها يساعد الإنسان في جوفه على الهضم مثلا وفي الأرض يساعده على تخصيب التربة مثلا. وأما ما كان ضارا فعلى صغر حجمه يستطيع أن يفتك بالجسم الضخم كالفيل أو القوي كالأسد فيجعله كأن لم يكن وكل ذلك بأمره تعالى القادر القهار فقد أرسل على ذلك المتكبر نمرود حشرة ضعيفة تأكل رأسه وهو لا يقوى على الفكاك مع ما يدعي من جبروت وعظمة، وإذا ما نظرنا إلى النملة في جحرها كيف تحصل على قوتها بإذنه تعالى الذي يعلم ما في جوفها والدودة في الصخرة الصماء فلا ينقص من رزقها ويتأخر أجلها كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٧٧٤]. ففي هذه الآية الكريمة أفلا يبصرون؟. ومنها ألا يعرفون بأنه العزيز؟. وإذا ما أدركوا وتابوا ألا يعلمون حقيقة أنه هو الغفار. فما لهؤلاء الكفرة والمشركين والضالين والمنحرفين لا يستغفرون ولا يتوبون إليه واحداً أحداً وهم يعلمون عدد السنين والحساب ويعلمون أن ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها؟.

---

[٧٧٣] الإسراء١٢.

[٧٧٤] هود ٦.

وأما النظر إلى تاريخ الأمم والسابقين ففيه أمر منه تعالى، فقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[٧٧٥]. وقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}[٧٧٦]. وهذا الأمر منه تعالى يأمر فيه بالنظر والتبصر في هذه الأرض وأخذ العبرة من السابقين وحتى لا نقع في الذي وقعوا فيه وبما استوجبوا به سخط الله جل جلاله. ولننظر فيما يسر أعيننا سواء في المحسوسات كما في قوله تعالى: {صفراء فاقع لونها تسر الناظرين}[٧٧٧]. وهذا ما أكده العلم الحديث فقد وجدوا أن العين تسر باللون الأصفر الفاقع، سواء أكان في الأنواع المختلفة من الزهور والأشجار أم كان في التربة والأحجار، وفي غير ذلك من مخلوقاته. أما النظر لما يسر أعيننا في الأشياء الخفية فيجب أن يكون نظرنا ببصيرتنا وأن نرقب الله في أفعالنا وأعمالنا فيكون لزاما علينا أن لا نغتب أحدا ولا نذم أحدا ولا نذكر غيرنا إلا بالخير وإلا فالصمت خير ويجب أن لا يكون تفكيرنا إلا بالنظر العميق في مظاهر خلقه تعالى جل جلاله وهذا هو الذي يوصلنا إلى ما يسرنا حقيقة.

أما النظر الذي هو نعمة البصر لدى الإنسان فهو من النعم التي لا يستطيع أحد حصر أو عد نعمائها وفضائلها فالعينان التي نرى بهما جمال الكون وما حواه من نجوم وكواكب والأرض وما حوت من جبال وحيوانات متوحشة وأليفة كبيرة وصغيرة فهي لنعتبر ونعمل ما نتقي بهما غضبه وننال بهما رضاه، قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[٧٧٨]. النظر إلى الكيفية يُمكِّن من بلوغ الحقيقة ويتوّج بالتقوى، ولهذا فلننظر حتى نتمكن من بلوغها.

---

[٧٧٥] الأنعام ١١.

[٧٧٦] النمل٦٩.

[٧٧٧] البقرة .

[٧٧٨] الغاشية ١٧ ٢١.

وحظ خليفته في أرضه أن يحافظ على هذه النعمة وذلك باتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه فلا ينظر بهما إلى محرم أو ممنوع وسواء أكان في البيت أم في الشارع أم في الطريق أم أمام بيته فلابد من أن يعطي الطريق حقه كما جاء في الحديث الشريف، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا"، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ:" غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ"[٧٧٩].

قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ}[٧٨٠]. من يتبصر في معاني هذه الآيات الكريمة وهو من المستخلفين في الأرض يدرك أن الحق مبصرا وإلا لو لم يكن مبصرا كيف يمكن أن تنتظم هذه المخلوقات العظام؟. وكيف لها أن تُسبح وتصلي له، معجزات لا يدركها إلا مبصر. فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير {ويوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا}[٧٨١]. وأما أولئك الذين يخادعون الله فيما يبصرون فهو خادعهم قال عز جلاله: { يخادعون الله وهو خادعهم}[٧٨٢]، فهم عندما يرجعون إلى الموضع الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئا

---

[٧٧٩] صحيح البخاري، ج ٨، ص ٣٥١، رقم ٢٢٨٥.

[٧٨٠] النور ٤٠ . ٤٣.

[٧٨١] الحديد ١٣.

[٧٨٢] لنساء ١٤٢.

فينصرفون إليهم {فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب}[٧٨٣]. وغير ذلك من نعمه كثير لا يحصى، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[٧٨٤].

والتبصر في آيات الله بالباطن يكون بالإيمان العميق بربوبيته العامة التامة فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير، أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالى: {إن زلزلة الساعة شيء عظيم}[٧٨٥]، فيكون شيئا في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج كما قال تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}[٧٨٦]. وقال تعالى: {وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا}[٧٨٧]، أي لم تكن شيئا في الخارج، وإن كان شيئا في علمه تعالى، وقال تعالى: {هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا}[٧٨٨]، وقوله : {ليس كمثله شيء}؛ رد على المشبهة، وقوله تعالى: {وهو السميع البصير}[٧٨٩]؛ فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبيه، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير كمستخلف في الأرض بالطاعة فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه إذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق كما يليق به، وللخليفة أن لا ينفي عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق بربه[٧٩٠]. إن نفيت شيئا من ذلك كنت كافرا بما أنزل على محمد وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه فليس كمثله شيء وهو الواحد القهار وهو الأول والآخر سبحانه.

---

[٧٨٣] الحديد ٣١.

[٧٨٤] إبراهيم ٣٤.

[٧٨٥] الحج ١.

[٧٨٦] يس ٨٢.

[٧٨٧] مريم ٩.

[٧٨٨] الإنسان ١.

[٧٨٩] الأنعام ١١٥.

[٧٩٠] شرح العقيدة الطحاوية ج، ١ ص، ١٤٣.

قال تعالى: {للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى}[791]، وقال تعالى: {وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم}[792]، فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأوثانهم وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى و هو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجوبية والوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان لأنهما يتكافئا من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر وإن لم يتكافئا فالموصوف به أحدهما وحده فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير[793].

واسم البصير هو من الأسماء التي وصفها تعالى بكونها حسنى أي حسان وقد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها كما يدل عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال فأسماؤه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرا بمراد محض بل هو على سبيل التقريب والتفهم فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة نقص فله من صفة الإدراك العليم الخبير دون العالم الفقيه والسميع البصير دون السامع والباصر وكذلك سائر أسماء الله تعالى يجري على نفسه أكملها وأحسنها ولا يقوم غيره مقامه فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا نعدل عما سمى به نفسه إلى غيره كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم إلى ما وصفه به المبطلون ومن هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم الصانع والفاعل والمربي ونحوها لأن اللفظ الذي

---

[791] النحل ٦٠.

[792] الروم ٢٧.

[793] شرح العقيدة الطحاوية ج، ١ ص، ١٤٤.

أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتم من هذا وأكمل وأجل شأنا فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته فهو فعَّال لما يريد وبإرادة اليسر لا العسر فهو يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر وهو الرحمن الرحيم البصير بعباده وبما خلق وبكل أمر لا إله إلا هو عز وجل[٧٩٤].

وقيل هل النظر يبقى أو يزول يوم القيامة ؟ فكان الرد في قوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}[٧٩٥]. قوة الإنسان في بصره الذي به يستقرئ ويقرأ الأسطر وما بينها من مضامين ودلائل إعجازية ومعارف وعلوم، فقبل الإيمان يكون الإنسان في غفلة من أمره وبإيمانه يتمكن من معرفة الحقيقة فيتقي الله ربه. وهكذا كان الحال في الجاهلية غفلة عن الحق وبعد الإسلام جاء الحق وزهق الباطل بقوة إحقاق الحق، فبصرك اليوم حديد بالحجة الإعجازية من الله رب العالمين، ولهذا بالإسلام تمت إزاحة الجهل.

قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[٧٩٦]. الوجوه الناضرة هي الوجوه المستبشرة باستخلافها في الأرض، والواثقة ببصيرتها فيما تبصر به وتبصر إليه بأنه قوة في جماله وإعجازه، فلها من الذوق الرفيع الذي يُمكنها من التعلق بالجميل المطلق الذي تنضره، أما نظرها إلى ربها فهذه تتعلق بالبصر في آياته العظام فترى القمر والشمس والكواكب وكل ما خلق تعالى وهو قابل للمشاهدة، فتنتقل من خلال ما تنظر إليه إلى الكيفية التي بها خلقت الأشياء التي تنظر فيها، كالإبل والجبال والسماء المرفوعة بغير عمد تُرى بالعينين والكيفية التي عليها سطحت الأرض.

ولأنه ليس كمثله شيء فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولهذا فلخليفة هو من ينظر إلى ربه يقينا وإعجازا، ولا ينظر إليه مشاهدا، فالمشاهد هو الذي له أمثال وأشكال ويتعدد

---

[٧٩٤] شرح كتاب التوحيد، ج ١، ص ٥٧٢.

[٧٩٥] ق ٢٢.

[٧٩٦] القيامة٢٢ ، ٢٣.

وهذه ليست من صفات الله تعالى، فسبحانه يرانا ولا نراها وهذه آية تجعل كل ذي عقل يُسلِّم أمره إليه ويؤمن به واحدا أحدا سبحانه جل جلاله، {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

البصير هو الله المهيمن الذي يرانا ويرى كل شيء بالمطلق، وهو المقيت بكل متجزئ من الجزء والكل، وهو الذي يعلم ما لا نعلم، وهو القادر على الفعل والقدير له في الحركة والسكون، وهو المؤمن الذي آمن أولياءه من خزي الدنيا ووقاهم في الآخرة عذاب الهاوية وآتاهم في هذه الدنيا حسنة وسيحلهم دار المقامة في جنة عالية، وهو العزيز الذي شهد على الخلق بأعمالهم وهو القائم على كل نفس بما كسبت لا تخفى عليه منهم خافية إنه بعباده لخبير بصير ولأنه العزيز الذي لا مغالب له ولا مرام لجنابه الجبار الذي له مطلق الجبروت والعظمة وهو الذي يجبر كل كسير مما به وهو المتكبر الذي لا ينبغي الكبرياء إلا له ولا يليق إلا بجنابه، العظمة إزاره والكبرياء رداؤه فمن نازعه صفة منها أحل به الغضب والمقت والتدمير وهو الخالق البارئ المصور لما شاء إذا شاء في أي صورة شاء من أنواع التصوير، {هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير}[٧٩٧]، {ما خلقكم وما بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير}[٧٩٨]. وهو الغفار الذي لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئا لأتاه بقرابها مغفرة وهو القهار الذي قصم بسلطان قهره كل مخلوق وقهره، وهو الرزاق الذي لا تنفد خزائنه ولم يغض ما في يمينه أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ماذا نقص من فضله الغزير يرزق كل ذي قوت قوته ثم يدبر ذلك القوت في الأعضاء بحكمته تدبيرا متقنا محكما يرزق من هذه الدنيا من يشاء من كافر ومسلم أموالا وأولادا وأهلا وخدما ولا يرزق الآخرة إلا أهل توحيده وطاعته قضى ذلك قضاء حتما مبرما وأشرف الأرزاق في هذه الدار ما رزقه عبده على أيدي رسله وخلفائه من أسباب النجاة من الإيمان والعلم والعمل والحكمة وتبيين الهدى المستنير، وهو الفتاح الذي

---

[٧٩٧] التغابن٢.

[٧٩٨] لقمان٢٨.

يفتح على من يشاء بما يشاء من فضله العميم يفتح على هذا مالا وعلى هذا ملكا وعلى هذا علما وحكمة ولذا فهو البصير العليم الذي يعلم ما لا نعلم سبحانه لا إله إلا هو.

قال تعالى: {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم}[٧٩٩]، {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم}[٨٠٠]، إنه عز وجل البصير العليم الذي أحاط علمه بجميع المعلومات من ماض وآت ظاهر وكامن ومتحرك وساكن، وجليل حقير علم بسابق علمه عدد أنفاس خلقه وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ومن هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار في العذاب المهين وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو يعلم ما في البر والبحر {وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}[٨٠١]، ما من جبل إلا ويعلم ما في وعره ولا بحر إلا ويدري ما في قعره وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير، وهو القابض الباسط فيقبض عمن يشاء رزقه فيقدره عليه ويبسطه على من يشاء فيوسع عليه وكذا له القبض والبسط في أعمال عباده وقلوبهم كل ذلك إليه إذ هو المتفرد بالإحياء والإماتة والهداية والإضلال والإيجاد والإعدام وأنواع التصرف والتدبير الخافض الرافع الضار النافع المعطي المانع فلا رافع لمن خفض ولا خافض لمن رفعه ولا نافع لمن ضر ولا ضار لمن نفعه ولا مانع لما أعطى ولا معطي لمن هو مانع فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن وما بينهما على خفض من هو رافعه أو ضر من هو نافعه أو إعطاء من هو مانعه لم يك ذلك في استطاعتهم بواقع، {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير}[٨٠٢]، ولذا فإن البصير هو المعز المذل الذي أعز أولياءه المؤمنين في الدنيا والآخرة وأيدهم بنصره المبين وبراهينه القويمة

---

[٧٩٩] الجمعة ٤.

[٨٠٠] فاطر ٢.

[٨٠١] الأنعام ٥٩.

[٨٠٢] الأنعام ١٧.

الظاهرة وأذل أعداءه في الدارين وضرب عليهم الذلة والصغار وجعل عليهم الدائرة فما لمن والاه وأعزه من مذل وما لمن عاداه وأذله من ولي ولا نصير وهو السميع البصير لا كسمع ولا بصر أحد وهو القائل لموسى وهارون: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا اسمعُ وَأَرَى}[٨٠٣].

قال تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}[٨٠٤].

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ)، أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة، لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو اللطيف الخبير.

(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) تعني: لا تلاحقه مطلقا، وهو يخلقها ويتحكم في أمرها ولذا فهو مدركها وبالغ أمرها والعليم بأسرارها وخفاياها والقادر على إظهارها وإخفائها وهي لا تدركه بشيء فسبحانه هو البصير الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار. (وهو اللطيف الخبير)، اللطيف: هو من يعلم بكل خافية ويعلم بكل ظاهر وباطن، (ما تظهره الصدور وما تخفيه) وبلطفه يمهل ولا يهمل حتى يتيح لمن يراد له أن يكون خليفة أن يكون، ولذا فهو الخبير بكل أمر، فهو يعلمه ويعرفه ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماوات العلى وما بينهما وما تحت الثرى وهو الطيف الخبير.

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ)، يعني: الحجج البينة التي تدركون بها الهدى. والبصائر: هي البينات التي يُستدل بها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) مثل قوله تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}[٨٠٥]؛ ولهذا قال: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) أي:

---

[٨٠٣] طه، ٤٦.

[٨٠٤] الأنعام، ١٠٢ ـ ١٠٤.

[٨٠٥] الإسراء ١٥.

فإنما يعود وبال ذلك عليه، كقوله: {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[٨٠٦].

والبصائر هي مجموع الحِكم والحجج والدلائل المحسوسة وكذلك الحواس التي بها تتم عمليات الإدراك، كالسمع والبصر واللمس والذوق والشم، والعقل الذي به تتم عمليات المشاهدة والملاحظة من خلال ما يقوم به من ربط للظاهر والباطن. وعليه يتم استخلاف الإنسان ببصائره التي تمكنه من الإدراك الواعي والتمييز الواضح والإقدام على ما يجب في مرضاة البصير المطلق والابتعاد عما لا يرضيه جل جلاله.

البصير هو الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم مصداقا لقوله تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}[٨٠٧].

البصير جل جلاله أمره مؤسس على الفعل (كن) والفعل هذا قوته تتجاوز قوة احتساب الزمان، فهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام إي انه صاحب الأمر لأن تكون السماوات والأرض في ستة أيام، ولهذا كانت الأيام التي بها الخليفة يعد ما يستطيع عده من المخلوقات التي لا تحصى، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}[٨٠٨]. ولهذا فبديع السماوات والأرض إذا قضى أمرا يقول له كن فيكون. {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٨٠٩]. ولذا فهو مدبر الأمر من السماء إلى الأرض بقوله (كن). ولذلك فما يأمر به الله في الزمن (الآن)

---

[٨٠٦] الحج، ٤٦.

[٨٠٧] السجدة ٥ . ١٠.

[٨٠٨] الأعراف، ٥٤.

[٨٠٩] البقرة، ١١٧.

بالأمر (كن) لو حسبه الإنسان لظنه بأيامه يساوي ألف يوما، مع أنه سبحانه يجعله كائنا في الزمن (الآن) الذي بيده أمره.

ومما تقدم فأن التعداد الزماني، من حيث الحركة والسكون، من خلال دوران الكواكب والنجوم، يتعلق بحساب المخلوق ولا يتعلق بحساب الخالق.

فقوله تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) لأن له الأسماء الحسنى والأفعال الحسنى فهو بطبيعة الحال يخلق ما يشاء بالأفعال الحسان، فهو لا يخطى ولا يغفل ولا ينام ولا تأخذه سينه، وهو الحي القيوم، وهو بكل شيء عليم وبصير وقدير سبحانه الأول والآخر واحد أحد لا شريك له. إنه خالق الأشياء وبدأ خلق الإنسان من الطين في أحسن تقويم، (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم).

(وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) ثم بدأت دائرة الاستخلاف تتسع لتصلح الأرض ولا تفسدها ولا تسفك الدماء فيها بغير حق، وهذه من الصفات الحسان التي بها يستخلف الإنسان الذي فيه نفخة من روح الله تعالى، وهذه الروح هي المكون للصفات الحسان التي بها يتم الاستخلاف في الأرض وورثة الجنة. فروح الله هي المكوّن لصفاته وأفعاله الحسان التي من تجسدت فيه قولا وفعلا كانت فيه نفخة من روح الله عز وجل.

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) الذي له الصفات الحسان، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، هو الذي جعل السمع والأبصار والأفئدة وهي قليل من كثير من فضل الله على الخليفة الشاكر له والحامد له على فضله ونعمائه، والمُسبِّح باسمه في إصلاح الأرض التي خلقه منها جل جلاله في أحسن تقويم.

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) الضلال غير الهداية فمن ضل في الأرض أفسد فيها أو سفك الدماء فيها بغير حق، ومن اهتدى كان مؤمنا لله خليفة، ولهذا من يضلل في الأرض يخسر الجنة في الآخرة مما يجعله من الخاسرين يوم لقائه ربه ويومها لا ينفعه الندم. ولذا قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ

أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[٨١٠] وقال تعالى: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}[٨١١] وقال تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَأنظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}[٨١٢]، وقال تعالى: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}[٨١٣]. سبحانه وتعالى لا يظلم أحدا، فمن اهتدى فإنما اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

وعليه فمن صفات ذاته تعالى البصر وهو المحيط بجميع المبصرات و إثبات السمع له المحيط بجميع المسموعات له، وهاتان الصفتان هما مضمون اسميه السميع البصير قال الله عز وجل: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا}[٨١٤]، وقال تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وقال تعالى: {ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وأن الله سميع بصير}[٨١٥]، وقال تعالى: {قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات و الأرض أبصر به و اسمع}[٨١٦]. قال ابن جرير و ذلك بمعنى المبالغة في المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه، و تأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود و ما أسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء، ثم روى عن قتادة في قوله تعالى أبصر به و اسمع: فلا أحد أبصر

---

[٨١٠] المائدة، ١٠٥.

[٨١١] الكهف، ١٠٤ . ١٠٨.

[٨١٢] الصافات، ٧١ . ٧٦.

[٨١٣] النجم، ٢.

[٨١٤] النساء ٥٨.

[٨١٥] الحج ١٦.

[٨١٦] الكهف ٦٢.

من الله و لا أسمع ولا مجال للمقارنة بين خالق مطلق لا إله إلا هو واحد أحد لا شريك له، وبين مخلوق لا يخرج في امتداده مهما امتد عن دائرة النسبية ذات الحيز المحدود. و قال ابن زيد أبصر به وأسمع يرى أعمالهم و يسمع ذلك منهم (إنه كان سميعا بصيرا)، وقال البغوي رحمه الله تعالى: أي ما أبصر الله بكل موجود و اسمعه لكل مسموع أي: لا يغيب عن سمعه و بصره شيء و قال تعالى لموسى و هارون عليهما الصلاة السلام: {إنني معكما اسمع و أرى}[٨١٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أسمع دعاءكما فأجيبه، و أرى ما يراد بكما فأمنعه لست بغافل عنكما فلا تهتما. و قال تعالى لهما في موضع آخر: {كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون}[٨١٨]، وقال تعالى: {أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون}[٨١٩]، وقال تعالى: {و قل اعملوا فسيرى الله عملكم}[٨٢٠]، وقال تعالى: {ألم يعلم بأن الله يرى}[٨٢١]، و قال تعالى: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله و الله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير}[٨٢٢]. نحن فيما عرضنا من آيات لا نريد إثبات السمع والبصر، بل نريد من ذلك إظهار السمع والبصر المطلق حق مطلق، فالبصير هو الله هو كما هو سبحانه وتعالى.

ورُوي عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: "أربعوا على أنفسكم". فإنكم لا تدعون أصما و لا غائبا تدعون سميعا بصيرا قريبا ثم أتى علي و أنا أقول في نفسي لا حول و لا قوة إلا بالله فقال: يا عبد الله بن قيس قل: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة[٨٢٣]. وعن عبد الله رضي الله عنه قال اجتمع عند البيت ثقفيان وقرشي أو وقرشيان و ثقفي كثيرة الشحم بطونهم قليلة الفهم

---

[٨١٧] طه ٦٤.

[٨١٨] الشورى٥١.

[٨١٩] الزخرف ٠٨

[٨٢٠] التوبة ٥٠١

[٨٢١] العلق ٤١.

[٨٢٢] المجادلة ١ .

[٨٢٣] المعارج القبول، ج ١ ص، ٢٣٥.

قلوبهم فقال أحدهم أترون أن الله يسمع ما نقول قال الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا وقال الآخر إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا فأنزل الله تعالى {وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون}[٨٢٤].

الخليفة البصير:

هو عميق البصر والبصيرة، وهو المتمكّن من بلوغ الأشياء والتعرف عليها، وهو الذي يتبيَّن الأمر قبل الخوض فيه، وهو المحتكم بما حكم الله، وهو العادل بإحقاق الحق وإزهاق الباطل، إنه الذي يتعلم ويعلم ويعرف ويتعرف، ثم يقول أو يفعل بعد ذلك، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[٨٢٥] وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}[٨٢٦] هؤلاء هم المبصرون حقا، وهؤلاء هم المستخلفون في الأرض، وهؤلاء هم الوارثون. اللهم إنَّا بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فاحفظنا من شرور الحادثات ومن كل وسواس خناس من الجنة والناس والحمد لك وحدك لا شريك لك.

ولذا فالخليفة البصير هو الناظر إلى الأشياء بعين الحق فلا ينكر شيئاً ولا يتعجب من شيء فهو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين وصفاته بعين اليقين وذاته بحق اليقين فالغائبات له حضور والمستورات له كشف.

---

[٨٢٤] فصلت ٢٢.

[٨٢٥] النساء، ٩٤.

[٨٢٦] الحجرات ، ٦، ٧.

فالخليفة هو السميع لأوامر ونواهي البصير المطلق ولذا فهو في نفسه بصير وفي أبنائه بصير وفي زوجه ووالديه بصير، ولمن له حق عليه بصير، وفي أداء عباداته بصير وفي تقلُّبِه حين ينام وحين يقوم بصير، يصلي لله رب العالمين ولهذا لا يركع ولا يسجد لسواه، يصوم ويزكي ويتصدق ويحج ويجاهد في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وإذا حكم بين الناس يحكم بالعدل في خشيته لله بصير، وفي إدراك آياته بصير.

وعليه فالبصير بالإضافة هو المدرك للبصير المطلق، فهو يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت والسموات فلا يكون نظرة إلا عبرة، قيل لعيسى عليه الصلاة السلام: هل أحد من الخلق مثلك؟ فقال: "من كان نظره، عبرة وصمته، فكرة وكلامه ذكرا، فهو مثلي"[٨٢٧]. ولأن الخليفة بصير فهو الطائع لا العاصي وهو يعلم أن الله عز وجل يراه فيتقيه حق تقاته إيمانا بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}[٨٢٨].

اللهم يا البصير نسألك أن تبصر حالنا، وتتقبل دعاءنا وتختم بالصالحات أعمالنا وتتوفنا وأنت راض عنا، نحن الضعفاء وأنت البصير القوي، نحن الفقراء وأنت البصير الغني، اللهم إننا نسألك يا البصير أن تقلب قلوبنا نحو عبادتك، وارزقنا الخير كله، واجعل الحياة لنا دارا للإيمان، والآخرة دارا للخلود في جنتك يا البصير بنا وبأحوالنا.

---

[٨٢٧] المقصد الأسنى ج، ١ ص، ٩١.

[٨٢٨] آل عمران، ١٠٢ . ١٠٨.

اللهم إنا نسألك النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك فلا تحرمنا يا ارحم الراحمين.

اللهم يا البصير، سبحانك وبحمدك، توكلنا عليك في أمورنا كلها وأنت بصير بها فاغفر لنا وعافنا وارزقنا واقض حاجتنا ويسر أمرنا يا الله.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا، واجعل بصرنا يا البصير مشغولا بالنظر إلى عظمتك وقدرتك ورحمتك. ومكنا يا البصير بالنظر الذي أنعمت به علينا أن ننظر إلى آياتك العظام حتى نعرف ونحن مؤمنون كيف خلقت الإبل ونصبت الجبال ورفعت السماء وسطحت الأرض، اللهم اجعلنا مذكّرين ومتعظين بكل أمر آمرتنا به واجعلنا من العاملين عليها ولا تجعلنا من الجاهلين، واجعلنا من الطائعين ولا تجعلنا من العاصين، ومن المسبحين بحمدك الذاكرين لأسمائك وصفاتك الحسان لا من الغافلين.

الحَكَمُ

الحَكَمُ: هو من بيده الأمر والنهي، وهو الله العادل في ملكه، ولأنه مالك الملك فهو بطبيعة الحال أن يكون حكما، ولذا فالحكم هو الذي يلم بالمطلق بمستوجبات الحكم فيما يحكم، والله عزّ وجلّ الحاكم العدل، والحَكَم العدل في حُكْمه.

قال الشاعر:

أقادَت بنو مروانَ قيساً دماءنا ... وفي اللهّ إن لم يَعْدِلوا حَكَمٌ عَدْلُ[٨٢٩].

والخليفة الحكم هو الذي يفصل بين الناس ليُعرف الخير من الشر، والحق من الباطل، والله جل وعلا هو الحكم المطلق الذي ميز بين النقائض عموما وبين الحق والباطل خصوصاً.

ويرتبط الحكم بالعدل في مواضع كثيرة من القران كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[٨٣٠]

---

[٨٢٩] الجمهرة، ج ١ ، ص ٢٩٢

[٨٣٠] المائدة ٩٥

وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٨٣١]

إن اقتران الحكم بالعدل أمر لا يشك فيه عقل، فالله هو العدل وهو الحكم، ومن بديهيات ما يقبل العقل اقتران الحكم بالعدل وبخلاف ذلك لن تعمر الأرض، ولا يمكن للبشرية أن تتعايش وتتطور وتبني الحضارة التي وصلت إليها الآن وستصل إليها فيما بعد، هذا كله بمعادلة الحكم العدل.

وأول ما يجب على الإنسان الوقوف عليه في اسم الله (الحَكَمْ) رسم الكلمة ووقعها على النفس، حيث تُشعرك بالقوة والحزم فتشدك لتتبين معانيها وتلتمس الطريق إلى إدراك حقيقتها، وذلك بإثارة التساؤلات عن الكيفية التي يكون فيها الحكم عدلاً؟ والإجابة على مستوى الخليفة هي أن يتوخى الخليفة أموراً بعينها، منها:

أولاً: لا يقبل أن يكون حكما إلا بما شرع الله: أي أن يستمد قواعد احتكامه مما أنزل الله له من آيات تشريعية تبين له الحق من الباطل والحلال من الحرام والمحبب والمفضل من المكروه والواجب اجتنابه، وأن يتبين بدون استعجال. قال تعالى: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٨٣٢].

---

[٨٣١] النساء ٥٨

[٨٣٢] المائدة، ٤٢، ٤٥.

يتحقق العدل لمن يروم إشاعته بالحكم بما شرع الله، فالحَكَمُ البصير بعباده والرحيم بهم شرع من الأحكام ما يمكّن بني آدم من العيش في الأرض وتعميرها والخلافة عليها، وهي أحكام ترضاها النفوس وتعجب بها الألباب لما فيها من دقة ومن رحمة وخير، والحكم سبحانه يقول: {وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[٨٣٣].

ونص الذكر الحكيم على مصادر الحكم بالعدل، وبصيغةٍ مؤكدةٍ تقوم على استخدام فعل الأمر الملزم (أحكم)، متبوعاً بلا الناهية دلالة على حتمية الوجوب وانتفاء الجواز، يقول عز من قائل: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[٨٣٤].

والنص واضح صريح، فمصدر الحكم الكتاب مع تحذير بيّن بالابتعاد عن الهوى وعن الأحكام العاطفية، ويتضح أن آفة الحكم اتباع الهوى من قبل الحاكم، وعلى الخليفة في الأرض تجنب الوقوع فيما نبه الله نبيه إلى عدم جواز الأخذ به، وبخلاف ذلك يقع الإنسان في الظلم كما تنص الآية الكريمة: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٨٣٥].

---

[٨٣٣] الإسراء ١٧

[٨٣٤] المائدة ٥٠

[٨٣٥] المائدة ٤٥

ومن مصادر الحكم العدل السنة الصحيحة، فهي مما يستند عليه الخليفة في الحكم إن أراد أن يكون حكماً عدلاً، وفي القران إشارة تدل على ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[٨٣٦].

ثانياً: أن يكون الحكم محايداً فلا يميل إلى طرف دون آخر لا لحبٍ ولا لبغض، وهذا رب العزة الحكم العدل يُعلّم الإنسانَ درساً عظيماً ليكون حيادياً في الخصومة وذلك في قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون، يقول عز وجل: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[٨٣٧].

فالله سبحانه يقدّم لخليفته في الأرض المثل الأعلى في الحياد، فبالرغم من كون موسى رسول الله وهو ضعيف خائف، وفرعون عدو الله وهو قوي ظالم إلا أنه سبحانه عامل الطرفين في هذه الخصومة على حد سواء، فقد طلب الله من موسى وأخيه أن يحاورا خصمهما باللين وذلك بسبب طغيان سابق، فقال سبحانه لموسى عن فرعون (أنه طغى) بالفعل الماضي، وفي ذلك حكمة، لأن استعمال الفعل المضارع للحاضر (يطغى) أو الفعل المضارع للمستقبل (سيطغى) فيه حكم مسبق من الله على فرعون مع علمه سبحانه أن فرعون سيبقى على طغيانه لكن الله يريد أن يعلّم موسى عليه الصلاة والسلام وخلفاء الله في الأرض من بعده عدم إصدار الأحكام المسبقة لأن ذلك خلاف الحياد الذي يدعو إليه الحكم العدل.

---

[٨٣٦] النساء ٦٥

[٨٣٧] طه ٤٣ . ٥٠

ثالثاً: المساواة، الحكم العدل سبحانه يساوي بين عباده، ولا يفاضل بينهم إلا بالعمل الصالح الذي يتقربون به إليه، وليس أدل على ذلك من تعامله سبحانه وتعالى مع أنبيائه، فعندما دعا سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لذريته أجابه الله تعالى إجابة تشع بالمساواة، يقول عز وجل: {قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[838]، فذرية إبراهيم على شرف الانتساب يتساوون مع بقية عباد الله، فلا فضل لهم وإن انتسبوا إلى إبراهيم إن هم ظلموا أحدا من الناس، فالأولى بالخليفة أن يساوي بين رعيته فلا يقرب أحداً لنسبٍ أو لمودة، ويباعد آخر لقطيعةٍ أو عداوة، وإنما الرعية سواء.

والمساواة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات شرط أساس في العدل، مع من تحب أو من تكره، وهذا ما يدعونا إليه الحكم العدل:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[839].

يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيامُ لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصِّروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدِّي، واعملوا فيه بأمري[840].

فمن واجب الخليفة عدم التفريق بين الأولياء والأدعياء في الحكم، فلا يزيد في عقوبة قوم يبغضهم، ولا يخفف من عقوبة قوم يحبهم، فهم سواء، فتحقيق العدل يتم بالابتعاد عن الأحكام التي تصدر عن الهوى، وتستند على الوحي الذي يوحى.

---

[838] البقرة ١٢٤

[839] المائدة ٨ ٩

[840] الطبري ١٠،٩٥

رابعاً: التدقيق في الأحكام، وهو مما أرشد الله سبحانه عباده إليه بالآيات الكريمة التي ننهل منها دروساً نتدبر من خلالها معنى الحكم العدل، ومن ذلك الآيات الكريمة التي تروي قصة سيدنا داود في الحكم بين الخصوم: {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ}[٨٤١].

يخاطب الله في هذه الآية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، هل أتاك يا محمد خبر الخصمين اللذين تسلّقا السور ودخلا عليه في مكان عبادته، لا من الباب، وعندما دخلوا عليه بهذه الطريقة الغريبة خاف منهم واضطرب، قالوا: لا تخف، نحن خصمان ظلم بعضُنا بعضا، وجئناك لتحكم بيننا بالعدل، لا تجُرْ في حُكمك وأرشِدنا إلى الحق. إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، ولي نعجة واحدة، فقال أعطِني إياها لتكون في كفالتي وغلبني بكلامه وحججه، قال داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر: لقد ظلمك يا هذا حين طلب ضمَّ نعجتك إلى نعاجه، إن كثيراً من الشركاء والمتخالطين ليجور بعضهم على بعض، إلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات، ولكنهم قلة نادرة، وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ، وعرف داود أن الأمر ما هو إلا امتحان من الله، فطلب المغفرة، وخرّ ساجدا لله، وأناب إليه بالتوبة. فغفرنا له تعجّله في الحكم[٨٤٢].

فالعجلة يمكن لها أن توقع الخليفة في الخطأ، والأولى له أن يتأنى ويدقق ويستمع إلى الخصوم ثم يصدر حكمه الذي يراه.

---

[٨٤١] ص ٢٠٢٥

[٨٤٢] تفسير القطان ،ج٣ ، ص ١٦١

خامساً: الابتعاد عن الظلم، الله الحكم يقول عن نفسه: {وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ}[٨٤٣]، ويقصد بالعبيد من يُراد لهم أن يكونوا خلفاء مطيعين له، ولذا فهو لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذي لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغني الحميد.

وعلى الخليفة أن ينتهي وينهى من معه عن الظلم، مدركاً وموقناً أن عاقبة الظلم في غاية الخطورة، فقد أشارت الآيات الكريمة إلى العواقب الدنيوية والأخروية للظلم، ومن تلك الآيات قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٨٤٤].

يقول الألوسي: المراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد، ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم[٨٤٥]، فالظلم علة قطع الدابر وهو أثر الظالم من نسلٍ أو عملٍ.

ومن عواقب الظلم إيقاظ الفتن وعلى صعيد واسع، حيث تتسع الفتن لتشمل الظالم وغيره، وذلك لأمرين:

الأول: حكمته عز وجل.

الثاني: سكوت الناس عن الظالم كما تشير الآية الكريمة: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}[٨٤٦]، فالسكوت عن الظلم ظلم جزاؤه شيوع الفتن بين الناس، فقد أُمروا أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب[٨٤٧]، يقول المولى سبحانه: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٨٤٨].

أما قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}[٨٤٩]. فانه يدل على أن الظلم من أسباب الهلاك.

---

[٨٤٣] الحج١٠

[٨٤٤] الأنعام ٤٥

[٨٤٥] تفسير الألوسي، ج ٥ ، ص ٣٣٢

[٨٤٦] المائدة٧٩

[٨٤٧] تفسير ابن عبد السلام، ج ٢ ، ص ٢١٨

[٨٤٨] الأنفال ٢٥

[٨٤٩] الكهف ٥٩

ويرى ذوي الألباب من تغير حال بعض العباد وتبدل حالهم من الخير إلى الشر ما يعتبرون به في الدنيا استعدادا للآخرة، وهذا وعيد من الله لكل ظالم وفي كل زمان، يقول الحكم العدل سبحانه: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}[٨٥٠]. والآية ناطقة بما لا شيء أهيب منه وأهول، ولا أنكى لقلوب المتأمّلين ولا أصدع لأكباد المتدبرين، وذلك قوله: (وَسَيَعْلَمُ) وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: (الذين ظَلَمُواْ) وإطلاقه. وقوله: (أي مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) وإبهامه، وقد تلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه: وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدتها[٨٥١].

وتوعد الله سبحانه الظالمين فقال: {وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}[٨٥٢]، وعلى من يرجو لقاء ربه أن ينتهي عن الظلم ويتراجع، ولتحقيق ذلك على الخليفة أن لا يسمح للظلم بأن ينال من عباد الله وذلك بأن ينصر المظلوم موقناً بنصر الله في الدنيا والآخرة إن هو فعل ذلك، ولا أدل على ذلك من قول الله: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}[٨٥٣].

والمتدبر لآيات الله ليسعد أيما سعادة بوعد الله جزاءً لنصرة المظلوم، كما يخاف كل الخوف وهو يقرأ وعيده.

وإذا كانت الآيات الكريمة قد بينت ما للظلم من عواقب، فإنها تركت تحديد الثواب دلالةً على عظمته، يقول المولى عز وجل: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ

---

[٨٥٠] الشعراء ٢٢٧

[٨٥١] تفسير الزمخشري، ج ٥ ، ص ٥٤

[٨٥٢] النحل ٨٥

[٨٥٣] الحج ٤٠

وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[٨٥٤].

ومعنى قوله تعالى: (وليعلم الله) أي الذي له جميع العظمة علم شهادة لأجل إقامة الحجة بما يليق بعقول الخلق فيكون الجزاء على العمل لا على العلم، وأوقع ضمير الدين عليه سبحانه تعظيماً له لأنه شارعه فقال: (من ينصره) أي يقبل مجداً على الاستمرار على نصر دينه ورسله ذلك النصر (بالغيب) من الوعد والوعيد، أي بسبب تصديق الناصر لما غاب عنه من ذلك، أو غائباً عن كل ما أوجب له النصرة.

فكيف إذا أصبح الإنسان ظالماً وأراد التوبة؟ الجواب أن سبيل الله واسع والظالم له أن يعود بأمرين:

الأول: أن يستغفر الله، لا باللسان وإنما بالقول وبالعمل وذلك بأن يرفع الظلم عمن ظلم نادماً، ثم التوجه إلى الله لطلب المغفرة.

الثاني: فهو ترك الظلم وعدم الإصرار عليه كما يُعلّمنا الله تعالى بقوله:{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[٨٥٥].

والحكم مصدر الحُكم، وحَكَمَ بينهم يَحْكُمُ أي قضى[٨٥٦]، فالله سبحانه هو الذي يقضي بين عباده: {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ }[٨٥٧]. وعليه ينبغي أن نميز بين شيئين:

الأول: الحَكَمُ: وهو مصدر لكل حُكم، وهو الحاكم بأمره لا بأمر غيره، وتعود الأمور إليه دون سواه.

---

[٨٥٤] الحديد ٢٥

[٨٥٥] ال عمران ١٣٥

[٨٥٦] لسان العرب، ١٢ ، ص ١٤٠

[٨٥٧] النمل ٧٨

الثاني: الحُكم: هو النص الذي يحتوي ويتضمن الكلمة والجملة والمعاني التي بها يتم التشريع، وعليها تستند القرارات.

وقد نصت الآيات الكريمة على نماذج للأحكام التي يريد الحكم سبحانه إفهامها لخليفته في الأرض، وعلى مستويين:

الأول: نماذج للأحكام العادلة، وهي تلك الأحكام التي شرعها الله ليصلح بها أحوال الإنسان منها قوله تعالى:{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٨٥٨]، فمُصدر الأحكام سبحانه شرّع لنا من الأحكام ما ترضاه النفوس وتقبله العقول، لما فيها من مراعاة للحق وإرضاء لنفسية المجني عليه وتهذيب للجاني وردع من تسول له نفسه القيام بأي اعتداء، وعلى خليفة الله في الأرض أن يحرص أيما حرص على أن تراعي أحكامه أحوال الناس وبما يرضي الله، وأن تكون الغاية منها إحقاق الحق وليس لغايات أخرى.

وعلى الخليفة إصدار أحكام دقيقة وواضحة ومعلنة امتثالا لأحكام الحكم سبحانه، مثل ما جاء في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ }[٨٥٩].

ومعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصَاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبدُ بالعبد والأنثى بالأنثى، أي أن الحر إذا قتل الحرَّ، فَدم القاتل كفءٌ لدم القتيل، والقصاصُ منه دون غيره من الناس، فلا تجاوزوا بالقتل إلى غيره ممن لم يقتل، فإنه حرام عليكم أن تقتلوا بقتيلكم غيرَ قاتله. ومع أن الدين الإسلامي جاء بغاية تحرير العبيد، إلا أنه في البداية قَبِلَ بأن يكون العبد بالعبد والحر بالحر، وذلك للبدء مع العباد من حيث هم بغاية بلوغ ما يجب

---

[٨٥٨] المائدة ٤٥

[٨٥٩] البقرة ١٧٨

أن يكونوا عليه وهو بلوغ الحرية مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}[٨٦٠].

والفرض الذي فرضَه الله علينا في القصاص، هو ما وصفتُ من ترك المجاوزة بالقصاص قَتلَ القاتل بقتيله إلى غيره، لا أنه وجب علينا القصاص فرضًا وجُوب فرضِ الصلاة والصيام، حتى لا يكون لنا تركه. ولو كان ذلك فرضًا لا يجوز لنا تركه، لم يكن لقوله: "فَمن عُفي لهُ من أخيه شيء"، معنى مفهوم. لأنه لا عفو بعد القصاص فيقال: "فمن عفي له من أخيه شيء"[٨٦١].

والثاني: نماذج للأحكام الباطلة التي لا تتم عن تأمل ولا عن علم ولا عن عقل، والحكم يرينا نماذج لتلك الأحكام السطحية لتكون مثلاً لخليفته فلا يقع في مثلها، يقول عز من قائل: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ}[٨٦٢].

تساؤلات استغرابية بأسباب جهل الكاذبين الذين وصفوا الملائكة بالإناث، وأن الله يلد وقد اصطفى البنات على البنين، ولذلك يسود الآيات تعجب على هؤلاء، فهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم. ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر[٨٦٣].

---

[٨٦٠] النساء ٩٢، ٩٣.

[٨٦١] الطبري، ج ٣ ، ص ٣٥٧

[٨٦٢] الصافات ١٥٦

[٨٦٣] الزمخشري، ج ٥ ، ص ٤٨٨

أما قوله تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ}[٨٦٤].

فلا شك أن فيه من العبر التي يجب على الخليفة الاعتبار بها لتلافي إصدار الأحكام الفاسدة، والمطلوب التمييز لكي لا يجعل المطيع لله من عبيده، والعاصي له منهم في كرامته سواء. يقول جلّ ثناؤه: لا تسوّوا بينهما فأنهما لا يستويان عند الله، بل المطيع له الكرامة الدائمة، والعاصي له الهوان الباقي[٨٦٥].

ويتعجب الحكم من حكمهم واستبعاداً له وإيذاناً بأنه لا يصدر من عاقل إذ معنى مالكم أي شيء حصل لكم من خلل الفكر وفساد الرأي[٨٦٦].

وتتوالى الآيات التي يعظنا الحكم سبحانه بها، لتكون عبرة على مر السنين، ومن خليفة إلى آخر، ومنها قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[٨٦٧].

الحَكَمُ سبحانه رءوف بالعباد يمهل عباده عسى أن يعودوا عما اقترفوا من ذنوب، فهو الرحيم وهو الحليم وهو الغفور، لذلك فإن الله يؤخر إنفاذ أحكامه بحق المذنبين من عباده رحمة منه بهم، وإمهالهم لعلهم يستغفرون، يقول سبحانه: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٨٦٨].

---

[٨٦٤] القلم ٣٤ . ٣٨

[٨٦٥] الطبري، ج ٢٣ ، ص ٥٥٢

[٨٦٦] الالوسي، ج ٢١ ، ص ١٨٦

[٨٦٧] الأنعام ١٣٦

[٨٦٨] النحل ٦١

ولكن هذا الترك والإمهال لم يكن مطلقاً لأنه سيصبح عند ذاك _حاشاه سبحانه _ إهمالا، وهذا خلاف الرحمة والرأفة والمغفرة، بل اختار سبحانه أن ينبه عباده إلى ظلمهم وذنوبهم قبل إنفاذ الحكم فيهم بعدة أمور يعلمها سبحانه، ومنها ما نبهنا إليها في كتابه الحكيم كبعث الرسل بالكتب التي تبين للناس ما لهم وما عليهم، يقول الحكم سبحانه: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٨٦٩].

وهذه الكتب فيها آيات واضحة وتفصيلة، تُمكّن الإنسان من إدراك المحظورات التي تجعله في موطن الخطر، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}[٨٧٠]، وهذا أمر كتبه الحكم على نفسه لكي لا يدعي البشر حجة مفادها عدم التبليغ، يقول سبحانه:{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[٨٧١]، وعلى الخليفة أن يُعلم الناس بوضوح حدود المعاملة بينهم بما يرضي الله ويمهلهم لينفذوا أمره ثم بعد ذلك ينفّذ الحكم كما علمه الله .

ومن إشارات الحكم سبحانه إرسال الآيات، ومنها أن يصاب الناس بالبلاء تذكيراً لهم بذنوبهم، يقول سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}[٨٧٢].

والبأساء التعب المحاط بالقنوط مع فقدان مشبعات الحاجة ولذا في البأساء القحط والجوع والضراء المرض ونقصان الأنفس والأموال، لأجل أن يتذكروا مالك الملك فيدعوه ويستغفروا لذنوبهم ويتوبون إليه.

ويعم هذا البلاء ليشمل الناس في بواديهم وفي حواضرهم تنبيهاً من الله سبحانه لهم على إصرارهم على الذنوب، كما فعل سبحانه مع آل فرعون تعليماً لمن بعدهم فقال: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}[٨٧٣].

---

[٨٦٩] الأنعام ٥١

[٨٧٠] طه١١٣

[٨٧١] النساء ١٦٥

[٨٧٢] الأنعام ٤٢

وقال ابن عباس رضي الله عنه: أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيهم. وأمّا نقص الثمرات فكان في أمصارهم، والحكمة في ذلك لأن الناس في حال الشدّة أضرع خدوداً وألين أعطافاً وأرق أفئدة [٨٧٤].

هذا كله من رحمة الله بعباده فهو اللطيف الخبير بأحوالهم، فإذا أصر العبد على ذنبه أنزل الله عليه عذاباً أقل وطأةً من عذاب الآخرة لعله يتنبه ويعود إلى الصراط المستقيم، يقول سبحانه: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[٨٧٥].

فإذا بلغ الأمر مداه وانتهى العبد إلى ربه انفرد ولم يبق له قريب أو نصير أو شفيع كما ينص قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[٨٧٦]، يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع بين القوم التعاون والتناصر وصار الحكم إلى العدل الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها[٨٧٧].

فلا بد إذا من جعل الشفاعات في الإحكام من المستقبحات عند الخليفة، لأنها ستخل بميزان العدل عنده فتخفف على المذنب وتزيد في ظلم المظلوم الذي ينتظر من الخليفة أن ينتصر له إلا أن الشفاعة حرمته من ذلك.

ومن الأمور التي يجب على الخليفة التنبه إليها الحزم في إنفاذ الأحكام التي أصدرها، وعدم تأجيل أي منها، وهذه صفة الحكم سبحانه نعقلها من قوله:{وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }[٨٧٨]. بطبيعة الحال الحكم المطلق بيده الأمر (أي أمر) ولذا فهو يحكم

---

[٨٧٣] الأعراف ١٣٠

[٨٧٤] الزمخشري، ج ٢ ، ص ٢٧٥

[٨٧٥] السجدة٢١

[٨٧٦] البقرة ٤٨

[٨٧٧] الطبري، ج ١ ، ص ٣٥

[٨٧٨] البقرة ١١٧

كما يشاء فيما يشاء متى ما شاء، وحكمه أمر نافد بقوله للشيء كن فيكون فسبحانه لا إله إلا هو الملك المتعال العادل في ملكه.

وحَكَمَ الشيء وأَحْكَمَهُ كلاهما منعه من الفساد قال الأزهري وروينا عن إبراهيم النخعي أنه قال حَكِّم اليَتيم كما تُحكِّمُ ولدك أي امنعه من الفساد وأصلحه كما تصلح ولدك وكما تمنعه من الفساد[٨٧٩].

ارتبط منع الفساد من قبل الحكم سبحانه بخلق الإنسان، حيث كان من أول الموضوعات التي أثيرت في الحوار بين رب العزة وبين ملائكته، وهذا يدفعنا للتساؤل لماذا ذكرت الملائكة في أول ما ذكرت الفساد مع تأخيرٍ لسفك الدماء؟ لابد أن العليم سبحانه وضع في ملكوته للمفسدين عذاباً شديداً أذهل الملائكة بشدته الأمر الذي جعلها تسأل ربها عن ذلك؛ يقول المولى سبحانه: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٨٨٠].

إنّ الملائكة إذ قال لها ربها: "إني جاعلٌ في الأرض خليفة"، لم تُضف الإفساد وسفك الدماء في جَوابها ربَّها إلى خليفته في أرضه، بل قالت: "أتجعل فيها من يُفسد فيها"؟ وغير مُنْكَر أن يكون ربُّها أعلمها أنه يكون لخليفتِه ذلك ذرّيةٌ يكون منهم الإفساد وسفك الدماء، فقالت: يا ربنا "أتجعل فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء"[٨٨١].

وتسأل الملائكة ربنا وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا.

قال ابن جرير: فكان تأويل الآية خليفة مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك

---

[٨٧٩] اللسان، ج ١٢ ، ص ١٤٠

[٨٨٠] البقرة ٣٠

[٨٨١] الطبري، ج ١ ، ص ٤٥٣

الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه، والخليفة الفعلية من قولك، خلف فلان فلانا في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده[٨٨٢]، كما قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}[٨٨٣].

والفساد ضد الصلاح، كما أنه مرحلة تلي الطغيان، أي إذا طغى الإنسان تحول إلى الفساد كما تشير الآية الكريمة: {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ}[٨٨٤].

وقد منع الحكم سبحانه الفساد بعديد الآيات وبأكثر من أسلوب تنبيهاً منه وتحذيراً ووعيداً لعباده، ومنها:

١- أشار سبحانه إلى كرهه عز وجل للفساد فقال: {وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[٨٨٥].

٢- التذكير بما أحل الله من الطيبات في الدنيا بمقابل التذكير بكراهيته سبحانه للفساد: {وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[٨٨٦].

٣- التحذير من الفساد الخفي، وهو أن يبدو الإنسان مصلحاً بقوله، وأما فعله فهو المنبئ بفساده، يقول سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ}[٨٨٧]، فعلى الخليفة أن يتقصى عن أفعال الناس عموماً ومن حوله خصوصا ليتبين له المفسد منهم من المصلح، فيقرب المصلحين ويبعد ويعاقب المفسدين.

---

[٨٨٢] ابن كثير، ج ١ ، ص ٢١٨

[٨٨٣] يونس ١٤

[٨٨٤] الفجر ١١ ، ١٢

[٨٨٥] المائدة ٦٤

[٨٨٦] القصص٧٧

[٨٨٧] البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥

٤–الوعيد بالعذاب للمفسدين، يقول الحكم سبحانه: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ}[٨٨٨].

٥ – مكافأة منع الفساد، يقول سبحانه: {تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[٨٨٩]. أما الأسلوب الأخر الذي اختاره الحكم سبحانه ليكون لنا عبرة تدفع بنا إلى منع الفساد فهو بالإصلاح والدعوة إليه وحثنا عليه وترغيبنا فيه، فقد ربط الله سبحانه بين الإصلاح والرزق الحسن المبارك فقال: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[٨٩٠]. كما بشّر الحكم سبحانه المصلحين بالأمن في الدنيا، فلا بأساء ولا ضراء فقال: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[٨٩١].

والذي يعين الخليفة على منع الفساد هو إيمانه بقضية الإصلاح مصداقا لقوله تعالى: {وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[٨٩٢] وقال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٨٩٣] وقال تعالى: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آَمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[٨٩٤].

إن كل صلاح نقدره بالعقل بالنسبة إلى شخص عارضه صلاح فوق ذلك أو فساد مثل ذلك بالنسبة إلى شخص آخر فلئن كان الصلاح يقتضي وجوده بالنسبة إلى ذلك الشخص

[٨٨٨] النحل ٧٧
[٨٨٩] القصص ٨٣
[٨٩٠] هود ٨٨
[٨٩١] هود ١١٧
[٨٩٢] النساء ١٢٨.
[٨٩٣] المائدة ٣٩.
[٨٩٤] الأنعام ٤٨.

فالفساد يقتضي عدمه بالنسبة إلى شخص آخر فالسم في أصحاب السموم صلاح وفي غيرهم من الحيوانات فساد، فلو كان الصلاح اقتضى وجوده فالفساد اقتضى عدمه.

إن أفعال الله تعالى اشتملت على الخير وتوجهت إلى الإصلاح وأنه لم يخلق الخلق لأجل الإفساد ولذا فالصلح خير، ولأنه خير خلق الإنسان لفعله، ولأنه كذلك جعل الله الإنسان خليفة ليصلح ما استطاع ولا يفسد فيها ويسفك الدماء بغير حق.

ولأنه الحَكَمُ فهو الذي يُحْكِمُ الأَشياءَ ويتقنها، ينظمها ويسويها ويهدي إليها ويحفظها لأجل الخير ويهلكها إن أريد بها شرا. فقد أعطى كل شيء من الأشياء الأمر الذي طلبه بلسان استعداده من الصورة والشكل والمنفعة والمضرة وغير ذلك أو الأمر اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع المطابق له كما أعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع وكذلك الأنف واليد والرجل واللسان كل واحد منها مطابق لما علق به من المنفعة غير ناب عنه، والحق أن الله تعالى راعى الحكمة فيما خلق وأمر تفضلاً ورحمة لا وجوباً وهذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، فكل شيء كامل في مرتبته حسن في حد ذاته[٨٩٥]، فقد قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}[٨٩٦].

وما من معتبر إلا ويقف مذهولاً أمام خَلق الإنسان، لاسيما في ملازمة الشكل الخارجي لإرادة الفعل الداخلي، فلولا هذه اليد بأصابعها الخمسة لما كانت الأرض على ما هي عليه الآن من عمارة وحضارة، ولولا العقل المتضمن في أحسن تقويم لما تحركت اليد للبناء والعمار، يقول الخالق تبارك وتعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٨٩٧].

---

[٨٩٥] الالوسي ١٢،١٧٠

[٨٩٦] السجدة ٧

[٨٩٧] المؤمنون١٢ ، ١٤

والله عز وجل أحكم الخلق بأن خلق كل شيء في هذه الدنيا وأتقن خلقه، فهو سبحانه يعرف كل ما يتعلق بهذا الخلق من إنسان إلى حيوان ونبات وأكوان ومجرات وغير ذلك، فهو الحكم سبحانه يقول عن خلقه وعلمه بهم: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٨٩٨].

وآيات إتقان الحكم سبحانه لا تحصى ولا تعد، قال تعالى: {وَآَيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٨٩٩]، سبحان الحكم القدير خلق وأتقن، فلو تنبه ذو اللب إلى دقة حركة الكواكب وما يقابلها من دقة في الزمن الذي يسير الحياة على الأرض لكفاه أن يؤمن بالله الخلاق العليم.

إنه الحكم الذي يعلم مالا نعلم سبحانه جل جلاله، فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويشفي من يشاء ويجبر من يشاء وقد اصطفى من شاء كيف شاء، وقد أنزل الكتاب والحكمة، وقد أحي وأمات، ويبشر المؤمنين أن لهم جنات قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ

---

[٨٩٨] الأنعام ١٠١

[٨٩٩] يس ٣٢ ، ٤٠

أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم}[٩٠٠].

ومن آيات إتقان الحكم سبحانه قوله:{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[٩٠١].

أي أفلا ينظرون إلى الإبل التي هي نصب أعينهم يستعملونها كل حين كيف خلقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سنن خلق أكثر أنواع.

وحَكَمَ الشيء هيمن عليه وأحاط به وتحكم في أمره، والله سبحانه هو المحيط بملكه وبخلقه وبكل شيء، ومهما حاول البشر بما يجتهدون فيه من العلم الوصول إلى حقيقة الأشياء والى المعرفة التامة بها فإنهم سيبقون عالمين بها وجاهلين بتمام وكمال عللها وأسبابها مصداقا لقوله تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[٩٠٢]، وقال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا}[٩٠٣]. وعليه فإن علم الله الكامل محجوب عن البشر، فهم في دائرة النسبية لم يؤتوا منه إلا قليلا، ولذا فالحكم هو المحيط بعلمه ولا يحاط بأي علم قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا

---

[٩٠٠] البقرة، ٢٥ ـ ٢٩.

[٩٠١] الغاشية١٧

[٩٠٢] البقرة، ١٢٠، ١٢١.

[٩٠٣] الإسراء، ٨٥ ـ ٨٧.

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[904].

فعلم الله خاص بجلاله، وحتى من اختصهم الله بعلم يفوق علم البشر العاديين لم يحيطوا بعلم الله، وإنما وهبهم من علم الكتاب، يقول سبحانه: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آَتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ }[905].

والإحاطة هي الإلمام الكامل وإدراك الشيء بكماله ظاهراً وباطناً[906]، والحكم سبحانه محيط بأفعال البشر وبأخلاقهم وبمكنوناتهم، يقول سبحانه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[907].

والحكم سبحانه أحاط بخلقه بما يفوق قدرتهم على المنع، فهو محيط بهم بعلمه، يقول سبحانه: {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآَنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}[908].

وإحاطة الحكم سبحانه كلية من حيث النوع ومن حيث العدد، فهو سبحانه حكم محيط بالأشياء إحاطة تامة، عارف بكل دواخلها وخوارجها، يقول سبحانه: {سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}[909].

أي عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها فيعلم بواطن من خلق وظواهرهم، ويجازي كل أحد على فعله بحسب ما يليق به إن خيراً فخير، وإن شراً فشر فإن قيل قوله: {أَلاَ إِنَّهُ بِكُلّ

[904] البقرة ٢٥٥

[905] النمل ٤٠

[906] التعريفات ١ ،٢

[907] ق ١٦

[908] الإسراء ٦٠

[909] فصلت ٥٤

شَيْء مُّحِيطٌ} يقتضي أن تكون علومه متناهية، قلنا قوله: {بِكُلّ شَيْء مُّحِيطٌ} يقتضي أن يكون علمه محيطاً بكل شيء من الأشياء فهذا يقتضي كون كل واحد منها متناهياً بالنسبة له جل جلاله وغير متناهي بالنسبة لنا نحن المستخلفين في الأرض، وذلك لأن خلق الله تعالى لا نعلم منه إلا القيل ولهذا لن نحيط بعلمه وهو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

وهو محيط بكل الأشياء فلا يخفى عليه أي منها، يقول سبحانه من حكم محيط: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[٩١٠].

وإحاطة الحكم سبحانه بخلقه مستمرة دائمة، لا موقوتة ولا موقوفة، وسورة البروج توضح ذلك في قوله تعالى:{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}[٩١١].

ومما يدل على الاستمرارية استخدام الفعل المضارع (تكذيب) دلالة على استمرار الكافر بالإنكار لدعوة الحق، مما يستدعي دوام الإحاطة منه سبحانه بكل هؤلاء فهو الدائم سبحانه، وقوله تعالى: {والله من ورائهم} تعني من أمامهم ومن خلفهم فهي لا تقتصر على الخلف فقط. مصداقا لقوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}[٩١٢] و(محيط) بهم بالقدرة والقوة المطلقة، وهو تمثيل لعدم نجاتهم من بأس الله بعدم فوت المحاط المحيط إذا سد عليه مسلكه بحيث لا يجد هربا أو إفلات منه وفى التأويلات النجمة محيط والمحيط لا يفوته المحاط ولا يفوت المحيط شيء لإحاطة الله سبحانه عند العارفين بالكافرين من الموجودات كلها عبارة عن تجليه بصور الموجودات فهو سبحانه بأحدية جميع أسمائه سارٍ في الموجودات كلها ذاتا وحياة علما وقدرة إلى غير ذلك من الصفات والمراد بإحاطته تعالى

---

٩١٠ الطلاق ١٢

٩١١ البروج ٢٠

٩١٢ الكهف ٧٩.

هذا السرايان ولا يعزب عنه ذرة في السموات والأرض وقالوا هذه الإحاطة ليس كإحاطة الظرف بالمظروف ولا كإحاطة الكل بأجزائه ولا كإحاطة الكلى بجزيئاته بل كإحاطة الملزوم بلازمه فإن التعينات اللاحقة لذاته المطلقة إنما هي لوازم له بواسطة أو بغير واسطة وبشرط أو بغير شرط ولا تقدح كثرة اللوازم في وحدة الملزوم ولا تنافيها[٩١٣].

وحَكَمْتُ السَّفِيه وأَحْكَمْتُه إذا أَخذت على يده[٩١٤]، أي منعته من الإضرار بالناس سفهاً، وفي هذا الكون من السفهاء ما لو تُرك على هواه لظهر الفساد في البر والبحر، فلا بد من حَكَمٍ يأخذ على يد هؤلاء السفهاء، ومن غير الله سبحانه قادر على ذلك؟

والسَّفَهُ والسَّفاهُ والسّفاهةُ: نقيضُ الحِلْم وسَفِهُتَ ْأحلامُهم. وسَفُهَ الرَّجلُ: صار سفيهاً. وسَفِهَ حِلْمَهُ، ورأيَهُ ونفْسَه، إذا حملها على أمرٍ خطأ[٩١٥]، وقولُ اللهِ عزّ وجلّ: {إلاّ من سَفِهَ نَفْسَه} [٩١٦]. يشر القرآن الكريم إلى أنواعٍ من السفه أخذ عليهما الحكم سبحانه، الأول سفهٌ لا إرادي وهو ما لم يكن فيه القصد والإصرار غاية، وإنما ظهر لدون ذلك، ومثاله سفه الطفولة أو الشيخوخة، وربما يكون لعلة عضوية كنقص العقل، أو الجنون أحيانا، أو بأسباب مرضية.

وقد أخذ الحكم تعالى على هذا السفه أخذ الحكيم العادل فوضع قيوداً منظمة لتصرف هؤلاء تناسب ما هم فيه فقال: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}[٩١٧].

ينهى الحكم تعالى عن تَمْكين السفهاء من التصرّف في الأموال التي جعلها الله للناس قياما، أي: تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها. ومن هاهنا يُؤْخَذُ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحَجْرُ للصغر؛ فإن الصغير مسلوب العبارة. وتارة يكون الحجرُ

[٩١٣] تفسير حقي، ج ١٧ ص ١٦١ .

[٩١٤] اللسان، ج ١٢ ، ص ١٤٠

[٩١٥] معجم العين، ج ١ ، ص ٢٦٠

[٩١٦] البقرة ١٣٠

[٩١٧] النساء ٥

للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للفَلَس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاقَ ماله عن وفائها، فإذا سأل الغُرَماء الحاكم الحَجْرَ عليه حَجَرَ عليه.

وقد يكون أخذ الحكم على يد السفيه رحمة به ولحماية حقه، كما جاء في قوله تعالى: {فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ}[٩١٨].

سَفِيهًا أي عاجزاً أحمق قاله ابن زيد ، أو جاهلاً بالإملال قاله مجاهد، أو مبذراً لماله ومفسداً لدينه قاله الشافعي أَوْ ضَعِيفًا أي صبياً، أو شيخاً خرفاً[٩١٩]. أما نحن فنؤكد على الضعف الذي تتعدد أسبابه، من طمع وخيانة أو نفاق أو ضلال وسوء نية، أو غير مدرك أو غير قادر، أو كان سفيها لا يقدر الأمر والظرف والزمان والمكان.

وهنا يأتي تدخل الحكم سبحانه لحفظ الحقوق لاسيما تلك التي يسهل على بعض البشر التطاول عليها، فأخذه هنا رقابةً فهو الرقيب، ورحمةً فهو الرحيم، وحفظاً فهو الحافظ ومهيمنا فهو العزيز الودود الملك القدوس جل جلاله.

ومن رحمة الحكم سبحانه بعباده تصنيفه لبعض ذنوبهم على أنها سفهٌ، وأخذه عليهم في هذه الحالة جاء بصيغة الترغيب والترهيب، إذ قدم الرحمن الرحيم قبوله للتوبة ممن أذنب، وأخر سبحانه منع القبول رحمة بعباده ليوقنوا أن ربهم غفور رحيم فيعودوا إليه تائبين مستغفرين، يقول سبحانه: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[٩٢٠].

---

٩١٨ البقرة ٢٨٢

٩١٩ الالوسي، ج ٢ ، ص ٣٨٦

٩٢٠ النساء١٧

التوبة من تاب الله عليه إذا قبل توبته وغفر له، يعني إنما القبول والغفران واجب على الله تعالى لهؤلاء، وبِجَهَالَةٍ في موضع الحال أي يعملون السوء جاهلين سفهاء، لأنّ ارتكاب القبيح مما يدعو إليه السفه والشهوة، لا مما تدعو إليه الحكمة والعقل[٩٢١].

أما النوع الثاني من السفه فهو قلة المعرفة بوضع الأمور مواضعها وهو ضعف الرأي، وقد يكون سفه غير متعد وإنما ينصبُّ رأيه على التفسير[٩٢٢]، وإلى هذا النوع أشار الحكم سبحانه بقوله: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}[٩٢٣].

السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ، إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه.

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو في جانب الإثبات، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه، وإثبات الشريك والصاحبة والولد وكلا الأمرين شطط ومذموم[٩٢٤].

وأخذ الحكم سبحانه على هذا النوع من السفه جاء بطريقة التعريض للمنع، فليس للإنسان الخوض بما لا يعلم فكيف إذا تطاول في القول بما لا يعلم؟.

أما النوع الثالث من السفه فهو سفه الكفار والمعاندين، وأخذ الحكم عليه شديد، لأنه نابع من إصرار الكافر المعاند على الرفض لكل أشكال الإيمان جهلا منهم بالخالق، وعدواناً على عباده المؤمنين، يقول عنهم سبحانه وتعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}[٩٢٥].

---

[٩٢١] الكشاف، ج ١ ، ص ٣٩١

[٩٢٢] الفروق اللغوية، ج ١ ، ص ١٩٣

[٩٢٣] الجن ٤

[٩٢٤] تفسير الرازي، ج ١٦ ، ص ٧٦

[٩٢٥] البقرة ١٣

الضعفاء في اعتقاداتهم واختياراتهم التي اختاروها لأنفسهم، من الشكّ الذي لا يؤدي إلى يقين وظن ليس فيه حسن نية، والريْب في أمر الله وأمر رسوله وأمر نبوته، وفيما جاء به من عند الله، وأمر البعث، لإساءَتهم إلى أنفسهم بما أتَوْا من ذلك وهم يحسبون أنَّهم إليها يُحْسِنون. وذلك هو عَيْنُ السَّفه، لأن السفيه إنما يُفسد من حيث يرى أنه يُصلحُ، ويُضيع من حيث يَرى أنه يحفظ، فكذلك المنافق: يَعصي رَبَّه من حيث يرى أنه يطيعُه، ويكفرُ به من حيث يرى أنه يُؤمن به، ويسيء إلى نفسه من حيث يحسب أنه يُحسن إليها، كما وصفهم به ربنا جلّ ذكره، فقال: (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)، وقال: (ألا إنهم هم السفهاء) – دون المؤمنين المصدّقين بالله وبكتابه، وبرسوله وثوابه وعقابه –(ولكن لا يعلمون[٩٢٦].

والتكبر على آيات الله وتكذيب رسله من علامات السفه التي توعد الحكم سبحانه من يسلك سبلها وعدا مهلكا يضيّع فيه المرء آخرته وذلك بصرف الله لهم عن فهم وإدراك الكتب السماوية مما يعني البقاء على الضلالة، يقول سبحانه: {سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[٩٢٧]. الآيات المعجزات العظام التي بين أيدي الناس والتي في الآفاق والتي في أنفسهم والتي في السماوات والأرض والنجوم والكواكب والتي في الحركة والسكون والتي في السمع والبصر والتي في النبات والبحار والمحيطات والحيوانات، كلها تُرى ويحس بها ومع ذلك هم عنها غافلون.

ومن آيات أخذ الحكم سبحانه إقرار القصاص، ولولا هذا الأخذ على يد السفهاء لكانت الأرض غابة يأكل فيها القوي الضعيف، يقول الحكم تعالى: {ولكم في القصاص حياة}[٩٢٨]،

---

[٩٢٦] تفسير الطبري، ج ١ ، ص ٢٩٥

[٩٢٧] الأعراف ١٤٦

[٩٢٨] البقرة ١٧٩

جعل الله هذا القصاص حياة، ونكالا وعظةً لأهل السفه والجهل من الناس. وكم من رجل قد هَمّ بداهية، لولا مخافة القصاص لوقع بها، ولكن الله حَجز بالقصاص بعضهم عن بعض؛ وما أمر الله بأمر قط إلا وهو أمر صلاح في الدنيا والآخرة، ولا نهي الله عن أمر قط إلا وهو أمر فساد في الدنيا والدين[٩٢٩].

وعلى الخليفة إدراك ما لإقامة القصاص على المذنبين من أهمية، فهي طاعة لله، وتنظيم للحياة وذلك بمنع السفهاء من العبث بأرواح الناس أو بأموالهم وأوطانهم.

وحَكَمَ الرجلُ يَحْكُمُ حُكْماً إذا بلغ النهاية في معناه مدحاً لازماً[٩٣٠]، وما من مؤمن إلا يعلم أن الله سبحانه وتعالى تنتهي عنده المعارف بالأشياء فلا يبلغ مداها أحد سواه، فهو العليم، {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[٩٣١].

وتتهاوى أمام قدرته كل القوى والخوارق فهو القوي، {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[٩٣٢].

وتعجز عن الوصول إلى رحمته ومغفرته وفضله قدرة، فهو المنان الرحيم، {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٩٣٣].

فمن ذا يبلغ مداه سبحانه وتعالى الحي القيوم الآخر الذي ينادي؟ وما من مجيب سواه لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار.

والحكم العدل جل جلاله حدَّ الحدود وشرّع الشرائع لخلقه رحمة بهم وخوفا عليهم وحفظا لهم وصونا لمصالحهم في الدنيا والآخرة، ذلك أن الحدود في الأصل هي الفواصل بين الأشياء حتى يتبين بعضها من البعض الآخر، فكان الحكم العدل جلت حكمته أن شرّع هذه الشرائع وحدّ هذه الحدود ليبين للناس الحلال من الحرام، وكذلك الإباحة والمنع

---

[٩٢٩] تفسير الطبري، ج ٣ ، ص ٣٨٢

[٩٣٠] لسان العرب، ج ١٢ ، ص ١٤٠

[٩٣١] البقرة ٣٢

[٩٣٢] هود ٦٦

[٩٣٣] الحجر ٤٩

والواجب والمستحب والمندوب والمكروه، مما يراعي أحوال العباد ومصالحهم بحيث يعرف كل ذي حقٍ حقه، وبذلك تفض المنازعات والخصومات بما أوضحه الحكم جل جلاله في حقوقه على خلقه، وفي حقوق الخلق فيما بينهم، وقد فصل الله القول الحق بقوله تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}[٩٣٤] فالله أعدل الحاكمين، لأنه أعلمهم بما كان وما سيكون، وهو أحكم الحاكمين سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله.

لقد كان من عدالة الحكم العدل وعلمه تعالى أنه أول ما أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام، قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[٩٣٥] فالقراءة أول العلم والمعرفة وهي التي تؤدي إلى الناس علم دينهم ودنياهم، وهي مكتفية بنفسها، لا تحتاج إلى غيرها، وهي الجليس الذي لا يمل، والصديق الذي لا يكذب، والرفيق والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا تعاملك بالمكر، ولا تخدعك بالنفاق، ولا تحتال لك بالكذب، فتشحذ الطباع، وتبسط اللسان، وتنير العقل، وتبلغ بها الحاجة لما تمكنك من معرفة كل ما أمر به الله تعالى من واجبات، وما نهى عنه من مناهٍ، وبذلك تتبين الفصل بين ما تحب وترضى، وبين ما تأنف وتأبى فيما يرضى الحكم بما حكم، والحكم على صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض والعدل هو الميل، والميل عين الاستقامة، حيث لا تكون استقامة إلا عن الميل فإن الحكم العدل لا يحكم إلا بين اثنين فلا بدّ أن يميل بالحكم مع صاحب الحق، وإذا مال إلى واحد مال عن الآخر ضرورة، وهنا نقول ليست الاستقامة ما يتوهمه البعض، إذ أن الاستقامة من الحكم هي الانحياز والميل إلى صاحب الحق، لذلك فالحكم العدل، عدل عن الباطل وابتعد عنه، ومال إلى الحق وانحاز إليه، ولذلك فالخليفة الذي أراده الله تعالى أن يستخلفه في الأرض حكما، هو بالضرورة يتصف

---

[٩٣٤] هود ٤٥

[٩٣٥] العلق ١٥

بصفات من استخلفه نسبيا، إذ أن مكارم الأخلاق التي أمر بها الحكم المطلق في وجوبها فرضا على خليفته أوجبت عليه الانحياز إلى الحق والعدول عن الباطل حتى يستقيم الميزان.

ومن أجل استقامة الميزان فقد استخلف الحكم عز وجل خليفة في الأرض يفصل بحكمه بين الخلق بالحق والعدل، فمن القضاة نجد مثلا من لا نستطيع أن نسميه حكما لعدم اتصافه بما ذكرنا من صفات الحكم العدل نسبيا، فنجد بعض هؤلاء القضاة يعكسون المعنى ويغيرون المفاهيم بالانحياز والعدول، وعندما يصبح الأمر كذلك فيكون هذا التصرف هو ظلم وجور في حق إنسان، لباطل إنسان آخر كان له تأثير على القاضي ولا نقول على الحكم، لأن هذا القاضي عدل إلى باطل صديقه على حساب حق خصمه فنصره عليه، وسواء نصره أو خذله أو اعتنى به أو أهمله فمردّ ذلك إلى الحكم العدل يوم القيامة، فالحكم يفصل بالحكم يوم القيامة بين عباده بما أعلمهم وأنزل في الدنيا من الأحكام المشروعة والنواميس الوضعية الحكمية كل ذلك من الاسم الحكم العدل بحكمه بالحق وإقامة الملة الحنيفية حيث قال تعالى: {قَلَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[٩٣٦] فهذه دعوة من النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: يا رب احكم بيني وبين مَنْ بلَّغتُهم الوحي بالعدل حتى لا يستوي المؤمنون والكافرون، أي اقض بيننا وبين من كفر بالعدل المظهر للحقوق التي جرى حكم الله فيها في الأزل، وإن أخر العذاب رحمة منه ليتوب من يتوب، فيتوب الله عليه لأن رحمته غير متناهية وإن كانت أنواعها مائة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة"[٩٣٧]

[٩٣٦] الأنبياء ١١٢

[٩٣٧] صحيح مسلم، ج ١٣، ص ٣١١

إن حكمة الحكم وعدله وإنصافه جعلت الحدود بين الناس قائمة، وهذه الحدود التي شرّعها الشارع عز وجل، إنما هي من إنصاف الحكم لخلقه، إذ لو تُرك الحبل على الغارب لتعطلت

المصلحة العامة التي نصبت من أجلها إقامة الحدود التي لا يتمكن الشفاعة فيها كحد السارق والزاني وحقوق الله على الإطلاق، ولكل من هذه الحدود لها منافعها وفوائدها لما تؤدي من إقامة العدل من الحكم على الجانح، وكذلك الردع والزجر للآخرين حيث قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٩٣٨] فالذي يسرق، والتي تسرق، الحكم فيها أن تقطع أيديهما جزاء بما ارتكبا، وهذا القطع هو عقوبة لهما، وزجراً وردعاً لغيرهما. وذلك الحكم لهما من الله، والله غالب على أمره، حكيم فى تشريعه، يضع لكل جريمة ما تستحق من عقاب رادع مانع من شيوعها، فالقطع هو جزاء لهما على ما فعلا من فعل السرقة وعقوبة رادعة لهما من العود مرة ثانية إلى هذا الفعل الشنيع، وهو ردع لغيرهما لكي لا يقتدي أحد بهما، وهنا نحب أن ننوه على أن الذين يطعنون في حكم الحكم العدل مما شرعه في قطع السارق، بأنهم يقولون هذه جريمة، حيث يقولون كيف يقطع هؤلاء المسلمون يد من يسرق، وللرد على هؤلاء من ثلاثة جوانب:

أولا: إن قولهم هذا فيه تعدٍ على الحكم العدل جل جلاله، واتهام بالظلم من طرف خفي في مهاجمة الإسلام ودين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لخلقه حيث قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}[٩٣٩] فالحكم الذي ارتضى هذا الدين لخلقه، وأمر خليفته باتباعه وتطبيق شرائعه لعلمه تعالى أن هذا الحُكم من الحَكم العدل المقسط الذي ما كان ظلاما للعبيد، وإنما هو رحمة بهم وحفظا لحقوقهم.

---

[٩٣٨] المائدة ٣٨ ، ٣٩

[٩٣٩] المائدة ٣

ثانيا: أن هؤلاء يرجمون بالغيب بغير علم لأنهم جهلوا شروط تطبيق هذا الحد من الحدود التي أمر بها الحكم، أو أنهم يعرفونها ويحرفونها، إذ أنه لا يقطع السارق إلا إذا توفرت شروط القطع المجمع عليها من علماء المسلمين التي فصلها رسول الله عليه الصلاة والسلام وهي: أن يكون السارق بالغا عاقلا راشدا غير مجنون ولا معتوه، وأن تبلغ السرقة حدّ النصاب المقدَّر وفقا لمعطيات الشريعة، وأن يكون المال في حرز حصين، ليس على قارعة الطريق ولا مالا سائبا، وأن لا تكون في هذا المال شبهة، أي إن كان السارق شريك في المال في تجارة أو أنه أحد ورثة هذا المال وغير ذلك من الشبهات فلا يقام عليه الحد كما يظن البعض ظنا في غير مكانه، لذلك فالحكم بالإضافة المكلف بإقامة الحدود، يعلم من الحكم المطلق بما علمه من شرائعه حدود الإنصاف في إقامة حدود الحكم المطلق من أجل إعمار الأرض وإصلاح أحوال الناس.

ثالثا: إن النتائج المترتبة على إقامة هذا الحد أعظم من أن تعد وتحصى، لما تؤدي من انتشار الأمن الذي يؤدي إلى الرخاء، فعندما يكون المجتمع آمنا مطمئنا تزدهر الحياة وترتقي بالمجتمع لما يكون من الخدمات العامة من التعليم والصحة، وما يعود عليه من نفع في البيع والشراء والتجارة، فيعرف بذلك كل ذي حق حقه، ويقف عند حدّه، فالحكم بالإضافة، الذي يقيم هذه الحدود، ويعرف الناس بها، استحق أن يكون خليفة الله في الأرض لأنه وقف عند حدود الله تعالى الذي أمر بعدم الاقتراب منها، أو التجاوز عليها، حيث أكد الحكم عز وجل على ذلك في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٩٤٠] فهذه الحدود وضعها الله للناس وأمرهم بالمحافظة عليها ولا تقربوها لتتجاوزوا أوامرها، وقد أوسع الله في بيانها للناس على هذا النحو ليتقوها ويتجنبوا تبعاتها، وقرن الالتزام بها بالتقوى التي هي صفة خليفة الله في أرضه، فحُكم الحَكم أوجب حقوقا للناس على بعضهم البعض، وأوجب حقوقا له عز وجل، فحقوق الحكم العدل منهي عن الاقتراب منها أو الاعتداء عليها كما جاء في قوله تعالى:

---

[٩٤٠] البقرة ١٨٧

{تِلْكَ حُدُودُ اللَّـهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّـهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٩٤١] فأحكام الله المقررة، منع الحكم العدل من أن تخالفوها أو تتجاوزوها لأن من يفعل ذلك فهو ظالم لنفسه وظالم للمجتمع الذي يعيش فيه.

وأما ما هو حق للعبد فإن الله قد ندب فيه إلى العفو والتجاوز في أمور أحكم تشريعها رحمة بالعباد كدية القتيل، ففي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٩٤٢] فالخطاب هنا من الحكم العدل بما أوجب الله تعالى على الخليفة وعلى من يجري مجراه ويقوم مقامه من إقامة القصاص في فرض استيفائه إذا أراد ولي الدم ذلك، فالقاتل العمد عليه تسليم نفسه عند مطالبة ولي المقتول بالقصاص، وذلك لأن القاتل ليس له أن يمتنع عن القصاص لكون ذلك حق من حقوق العباد على بعضهم، وهو بخلاف الزاني وشارب الخمر فان لهما الهرب من الحدود لكون ما عليهما من الحق هو حق الله تعالى، وهنا يتجلى أمر الحكم عز وجل بما شرع وأوصى خليفته به إذ أنه "من الشرائع التي فرضها على المؤمنين أحكام القتل العمد، فقد فرضنا عليكم القصاصَ بسبب القتل، ولا تأخذوا بظلم أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون الحر غير القاتل بالعبد والذكر الذي لم يقتل بالأنثى، والرئيس غير القاتل بالمرؤوس القاتل دون مجازاة القاتل نفسه فالحر القاتل يقتل بالحر المقتول، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فأساس القصاص هو دفع الاعتداء فى القتل بقتل القاتل للتشفي ومنع البغي، فإن سَمَت نفوس أهل الدم ودفعوا بالتي هي أحسن فآثروا العفو عن إخوانهم وجب لهم دية قتيلهم، وعلى أولياء الدم إتباع هذا الحكم بالتسامح دون إجهاد للقاتل أو تعنيف، وعلى القاتل أداء الدين دون مماطلة أو بخس، وفى حكم القتل الذي فرضناه على هذا الوجه تخفيف على المؤمنين بالنسبة إلى حكم التوراة الذي

---

[٩٤١] البقرة ٢٢٩

[٩٤٢] البقرة ١٧٨

يوجب فى القتل القصاص، كما فيه رحمة بهم بالنسبة إلى الذين يدعون إلى العفو من غير تعرض للقاتل، فمن جاوز هذا الحكم بعد ذلك فله عذاب أليم فى الدنيا والآخرة"[٩٤٣].
والحكم لعدله جل جلاله، شرع مع هذه العقوبة، الجنوح إلى العفو، فالعفو يكون من الولي، وهنا يبرز دور الخليفة كونه حكما بالإضافة، فعندما يجنح الولي إلى العفو يقوم الخليفة بإرضائه حقنا للدماء وعدم إظهار الضغينة والكراهية، وأما الحكمة من الحكم في ذلك، فإن المظلوم هو المقتول وقد مات، والمطالب قد يتقدم بالشكوى التي يمشي بها إلى الخليفة الحكم بالإضافة رافعاً على من ظلمه تلك المظلمة، فجعلت الدية كالإحسان لولي الدم لعل ذلك الشاكي إذا بلغه إحسانه لذوي رحمة يسكت عنه ولا يطالبه عند الله الحكم العدل بشيء من دمه يوم القيامة: "لأن الحُكم العدل يسكن الأصوات عن الله عز وجل، وإن الحُكم الجائر تكثر منه الشكاة إلى الله تعالى"[٩٤٤]. مع أن من وراء ذلك هو رفع الأحقاد، ونشر الرحمة بين العباد بما شرع الحكم من أمور، يحكم بها الخليفة، لأجل تخفيف هول الموقف يوم القيامة عند الوقوف بين يدي الحكم العدل، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. والخلافة هي النيابة عن الغير لأكثر من سبب، فهي إما لغيبة المنوب عنه، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف، فالأول والثاني يستحيلان على الله سبحانه وتعالى، وأما الوجه الثالث فهو تشريف الإنسان من الخالق عز وجل في خلافته في أرضه، وهذا استخلاف على الملك في الأرض والحكم فيما بين أهلها، فجعله أهلا للتصرف النافذ الحكم في الأرض.
إن الله سبحانه وتعالى هو الحكم المطلق، استخلف خليفته في الأرض، فنهاه عن مناهٍ وأمره بأوامر، فمن أطاعه فيما نهى وأمر فهو الحكم بالإضافة، حيث أمره أن لا ينزل ما ولاه إياه من الأحكام في الدماء والفروج والأموال، عن منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة، وحرماته المعظمة، وبيناته المبينة في آياته المحكمة، وأن يجعل مخافة الحكم

---

٩٤٣ النخب، ج ١ ، ص ٤٣

٩٤٤ حلية الأولياء، ج ٢ ، ص ١٧١

المطلق عز وجل، وشرائعه التي شرّعها في الفصل بين العباد قبلة لوجهه، وإليها يتوجه في الأمور كلها، وعليها يكون قطب الرحى فيما يرضى الحكم بما حكم، فيحكم بالحق ويقضي بالقسط، ولا يحكّم الهوى على العقل، ولا القسط على العدل، إيثارا لأمر الله عز وجل حيث يقول: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[٩٤٥]

فالحكم المطلق جعل الإنسان خليفة عنه في أرضه، وأمره بالحكم بين الناس بما شرع له، فلا يسير في الحكم وراء الهوى، فيحيد بذلك عن سبيل الله، فالذين يحيدون عن سبيل الله باتباع أهوائهم لهم عذاب شديد بغفلتهم عما أُمروا به في الدنيا فيجازيهم عليه في الآخرة. لذلك كان الحكم بالإضافة خليفة الله في أرضه بين عباده باتباع ما وجب عليه حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[٩٤٦] وهذه دعوة من أجل المحافظة التامة على أداء حقوق الله، وتأدية الشهادة بين الناس على وجهها الحق، ولا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم على أن تجانبوا العدل معهم، بل يجب أن تلتزموا العدل والحق، فهو أقرب سبيل إلى خشية الله والبعد عن غضبه، واخشوا الله فى كل أموركم، فإنه عليم بكل ما تفعلون، ومجازيكم عليه.

والخليفة قد يكلف من يجد عنده الأهلية في أن يكون حكما، فيوجهه ويأمره بإعزاز أمر الله تعالى والشد على يد المخالفين في تنفيذ أحكامه وأقضيته، والقصر من عنان كل متطاول على الحكم، والقبض بالحق المفترض لله عز وجل، وكذلك يأمره بترك المجاملة والمحاباة لذي رحم وقربى، فالحكم لله ولخليفته في أرضه، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين للحق والعدل والحكم، والمتطاول عليه، والمباين عن الجماعة ومخالف لما هو عليه عامة

---

[٩٤٥] ص ٢٦

[٩٤٦] المائدة ٨

الناس حقيق بالإذلال والرد إلى الصراط المستقيم، وكذلك يأمره بتقوى الله تعالى وأن لا يستحي من الحق فقد قال تعالى: {وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}[٩٤٧] فالخليفة حاكم، والحاكم حكم بالإضافة، فإذا جلس للحكم بين الناس، يعلم أن عليه أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية الواضحة للمتحاكمين، ويرفع عنهم حجابه وأستاره، ويفتح لهم أبواب مجلسه وأبواب قلبه، ويحسن لهم انتصابه وهيأته، ويقسم بينهم لحظه وطرفه ولفظه قسمة لا يحابي فيها قويا لقوته، ولا يردي فيها ضعيفا لضعفه، بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته، ولا يكون إلا مع الحق وفي كفته، ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه، موقفه هو ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان الذي قال: { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[٩٤٨]. إن من أركان الحُكم العادل الذي فرضه الحكم العدل، هو ركن الشهادة وتأديتها على وجهها حيث قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آَثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[٩٤٩] لذلك وجب على الخليفة وهو الحكم بالإضافة، أن تتجلى أمامه صفات الحكم المطلق عند الفصل بين الخصوم من استدعاء الشهود والإدلاء بما يعرفون، وهو دون شك صاحب فراسة في الوقوف على الحق واليقين من سمات الوجوه، فينعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع، وبهم يقطع في منافذ القضايا ومقاطع الأحكام، ويستشف أحوالهم استشفافا شافيا، ويتعرف دخائلهم تعرفا كافيا، ويسأل عن مذاهبهم في الحياة، وتقلبهم في سرهم وجهرهم، والجلي والخفي من أمورهم، فمن وجده منهم في العدالة والأمانة، والنزاهة والصيانة، وتحري الصدق، والشهادة بالحق، على الشيمة الحسنى، والطريقة المثلى، أبقاه. وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى، وأن يطالع الخليفة بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله: ليكون في الأمرين من الرد والقبول على المحجّة

[٩٤٧] الأحزاب ٥٣

[٩٤٨] آل عمران ٣٠

[٩٤٩] البقرة ٢٨٣

البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، فيأمن في هذه السبيل كل خلل يداخله، إذ أن الشهادة أساس الأحكام، وإليها يرجع الحكام، والنظر فيمن يؤهل لها أحق شيء بالإحكام حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ والأقربين إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا}[٩٥٠] إن العدل هو نظام الوجود الكوني، وهو القانون الإلهي الذي سنّه الحكم المطلق من أجل خير الخلق ومصلحتهم بحيث لا يختلف عليه عاقلان، فالذين يذعنون للحكم العدل، ولدعوة خليفته، يكونون مراقبين لأنفسهم فى الإذعان للعدل، ومراقبين للناس، في إنصاف المظلوم، ويكونون قائمين بالقسط لا لرغبة غني أو لعطف على فقير، لأن الله هو الذي جعل الغني غنيا والفقير فقيرا، وهو أولى بالنظر في حال الغني أو الفقير، ولأن الهوى هو الذي يميل بالنفس عن الحق فلا تتبعوه لتعدلوا، وإن تتولوا إقامة العدل أو تعرضوا عن إقامته فإن الله يعلم ما تعملون علماً دقيقاً، ويجازيكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}[٩٥١] فهذه صفات الحكم العدل يتصف بها الخليفة اتصافا نسبيا، ويعكسها أخلاقا على الناس بحيث أنهم يتنزّهون عن شهادة الزور، وأنهم إذا وجدوا من إنسان ما لا يُحمد من قول أو فعل لم يشتركوا فيه، ويترفعوا بأنفسهم عن مثل هذه الأخلاق. ومن عدل الحكم ورحمة منه بعباده أنه قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[٩٥٢] فهذه المحرمات التي بينها الله تعالى كونه حكما مطلقا، فينبغي أن تهتموا بها وتبتعدوا عنها لا تجعلوا لله شريكاً في ملكه وحكمه وإرادته، بأي نوع كان من أنواع الشرك، ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحساناً

---

[٩٥٠] النساء ١٣٥

[٩٥١] الفرقان ٧٢

[٩٥٢] الأنعام ١٥١

بالغاً، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم، أو تخشون نزوله مستقبلا، لأنكم لستم أنتم الرازقين، بل نحن الذين نرزقكم ونرزقهم، ولا تقربوا الزنا فهو من الأمور المتناهية فى القبح، سواء منها ما ظهر للناس حين إتْيانه، وما لم يطلع عليه إلا الله، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها لعدم أمر موجب للقتل، إلا إذا كان القتل بحق تنفيذاً لحكم القضاء. أمركم الله أمراً مؤكداً باجتناب هذه المنهيّات التي تقضى بديهة العقل بالبعد عنها، فالله سبحانه وتعالى لأنه حكما قد حرم قتل قوم مشركين يكفرون بالله تعالى ويجعلون له الصاحبة والولد من اليهود والنصارى إذا أعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وأباح قتل مسلم فاضل قد تاب وأصلح لزنى سلف منه وهو محصن. والحكم جل شأنه جعل هذه الأمة أمة وسطا حيث قال تعالى: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}[953] لقد قضت مشيئة الحكم أن اختار أمة من خلقه وهداها إلى الطريق الأقوام، وجعلها أمة عدولاً خياراً بما وفقها إليه من الدين الصحيح والعمل الصالح لتكون مقررة الحق بالنسبة للشرائع السابقة، إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، فتبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوراتهم وشعاراتهم، فتفصل في أمرها، فتقول هذا حق منها وهذا باطل، لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها، وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم، وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كونه حكما بالإضافة، هو الذي يشهد عليها، فيقرر لها موازينها وقيمها، ويحكم على أعمالها وتقاليدها، ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيها الكلمة الأخيرة. وبذلك تتحدّد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدر دورها حق قدرها، وتستعد له استعداداً لائقاً، وإنها لَلأمة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

---

[953] البقرة ١٤٣

إن الله تعالى تقدست أسماؤه وجلت صفاته هو الحكم العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، وإن تكن حسنة يضاعفها ويؤتي من لدنه أجرا عظيما، فهو الذي يفصل بين عباده بالحق يوم الفصل ليجازي الذي آمنوا أحسن ما عملوا، والذين كفروا لهم عذاب مقيم حيث قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}[٩٥٤] فقد قضى الحكم عز وجل أن الذين خرجوا على العدل والإنصاف أنهم خالدون فى النار ما دامت السموات والأرض، لا يخرجون منها إلا في الوقت الذي يشاء الله إخراجهم فيه، ليعذبهم بنوع آخر من العذاب، وأما الذين رزقهم الله السعادة فيدخلون الجنة خالدين فيها من أول لحظة، بعد انتهاء موقف الحساب إلى ما لا نهاية، ويعطي ربك هؤلاء السعداء فى الجنة عطاء عظيماً مستديماً، غير منقوص ولا مقطوع.

وربَّ قائل يقول إن الخلود لأهل الجنة فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك، فهذا من كرم الله سبحانه وتعالى، ولكن كيف يجوز على الله الحكم العدل أن يكون ذلك لأهل النار حيث قال تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}[٩٥٥] وقد علموا أنها لا تفنى أبداً فإن قيل كيف يجوز على الحكم العدل أن يعاقب على جرم منقض بعقوبة غير منقضية، قيل هو الجزاء على السواء، وكما أنه اقتصرت مدة أعمارهم على الكفر في دار الدنيا وهي حياة، وجب أن لا يقصر عنه العذاب مدة أعمارهم في الآخرة، وهي حياة أيضاً، وكذلك أهل الجنة، هذا من جهة، وأما من جهة أخرى فقد تفضل الحكم على خلقه بأن جعل جزاء أعمالهم بخواتيمها، فبعزته لقد أنصفنا وزادنا على النصف بهذا. لأنه من يكون كافرا جاحدا فإن التقدم في العمر والسن

---

[٩٥٤] هود ١٠٦ . ١٠٨

[٩٥٥] المائدة ٣٧

والتجربة تمنحه فرصة العودة إلى الهدى الصواب، ومن كان مؤمنا عاصيا يكون أمامه فرصة التوبة والإنابة، إن الله كان توابا رحيما.

الحمد لله الحكم العدل الهادي عباده صراطاً مستقيما، الحاكم الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً، المثيب من قدم خيرا من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال، الرقيب على ما يصدر من أفعال العباد، فيفصل بينهم بالحق يوم التنادي، ولا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه والٍ. وله الحمد حيث يؤول كل شيء إلى زوال، وإن تراخى العمر وطال، فيبقى وجهه ذو الإكرام والجلال، ويبقى الحكم العدل، والربّ الذي قوله الفصل، وبيده الفضل.

اللهم إنك الحكم ونحن الطائعين لحكمك فاجعلنا بحكمك على الصراط ثابتين، اللهم إنك الحكم العليم بما أعلنّا وما أخفينا، والمحيط بما لم نأت وما أتينا، اللهم لا تسلّط عدوّك وعدوّنا علينا، وأنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا، فالحمد لك يا أحكم الحاكمين الذي خلق كل شيء فأحسن التقدير، ودبر الخلائق فأكمل التدبير، وقضى بحكمته على العباد بالسعادة والشقاوة فريق في الجنة وفريق في السعير، ربنا إليك أنبنا وإليك المصير.

اللهم إنك الحكم وسعت كل شيء عِلْمًا عليك تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا فافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ اللهم إنك الحكم تفصل بين الحق والباطل فاجعل الحق لنا حُجَّة وتفصل بين الخير والشر فاجعلنا من أهل الخير ولا تجعلنا من أهل الشر، وتفصل بين الحلال والحرام فاجعلنا من أهل الحلال ولا تجعلنا من أهل الحرام، وتفصل بين الجنة والنار فاجعلنا من أهل الجنة، اللهم يا الحكم بحكمك عمَّرت الأرض رزقا وخلقا فاجعلنا فيها أغنياء مطمئنين آمنين ومصلحين لا مفسدين، اللهم وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ فاجعلنا من الذين يحتكمون بشريعتك ويطيعون أمرك طوعا لا كرها، اللهم إنك الحكم وحكمك نافذ فاجعلنا من المقسطين الذين يخافونك ويتقونك ولا تُسلِط علينا ظالما لا يخافك ولا يتقيك، اللهم إننا عبادك وأنت اللطيف الخبير.

الْعَدْلُ

العدل مبدأ باعتباره الأول بذاته، وغاية باعتباره الآخر بذاته، ومصدر: باعتباره الأول والآخر بذاته، والعدل فعل في ذاته وصفة حسنة في ذاته فمن حيث اللغة مصدر يشتق منه اسم الفاعل "العادل" وغيره من المشتقات، والعادل المطلق هو الله جل جلاله، ومن يتبع هذه الصفة الحسنة يوصف بها ويستخلف بها في الأرض ليصلح ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير حق، ولهذا تكون الإضافة إلى العدل الذي هو فعل من أفعال العادل المطلق وصفة كاملة له، به يتصف بالكمال والجمال، ولهذا فخلفاءه في الأرض هم المضافون إلى العدل الذي هو من عنده عز وجل. وتكون العملية:

أولا: العدل: صفة حسنة من صفات العادل، وهي المستمدة منه فلو لم يكن العادل في ملكه ما كان للعدالة والعدل مصدرا.

ثانيا: العادل: وهو مصدر العدل والعدالة والمتحكم بهما في خلقه وملكه، وهو الذي بيده الأمر والنهي، فالعادل هو الذي لا توجد في قواميسه إلا الرحمة ولا توجد فيها المظالم.

ثالثا: المضاف إلى العدل وهو الخليفة: ولأن العدل صفة حسنة فلا يتصف به إلا عادل محسن، والعادل المحسن هو الخليفة الذي أخذ بصفات العدل التي ترضي الله تعالى ويعمل بها فلا يظلم؛ ولهذا فهو المضاف المتصف بصفة العدل قولا وسلوكا وفعلا. قال تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[٩٥٦]. فالخليفة هنا هو المضاف في قوله ذوي عدل منكم، والعدل بصيغة المصدر صفة من أسماء الله الحسنى، ولأنه جلّ وعلا القادر على تحقيق العدل المطلق في كافة الأماكن والأزمنة في آن واحد فلا يحدُّه حدود ولا يقيده قيود فقدرته مطلقة وعدله يحيط بملكه وملكوته، لذا فقد احتفظ لذاته باسم "العدل " مصدراً لا اشتقاقا، ولأنه العدل فهو مصدر لا يظلم ولا يجور لأن في ذلك تناقض فالعدل المطلق ليس عنده ظلم، وحتى يُبَسِّط لنا معنى العدل ألقى على مسامعنا في القرآن الكريم ألفاظاً تدل

[٩٥٦] الطلاق، ٢، ٣.

على العدل وتهدي إليه منها الصراط المستقيم، والقسط، والميزان، ومثقال ذرة، وقد وضع الموازين القسط للحكم بين الخلق في الدنيا وبيّنها في المنهج الذي ارتضاه لمن أراد أن يحقق الخلافة ولمن أراد أن يكون من الخلفاء لهذا الاسم.

ولأنه العدل فهو جلّ وعلا لا يحكم بالجور، لأن الجَوْرُ نَقِيضُ العَدْلِ، وضِدُّ القَصْدِ[٩٥٧]، والميزان الإلهي لا يغادر شيئا إلا ويحصيه بالقسط أو القسطاس المستقيم، والقُسْطاسُ، بالضم والكسر المِيزانُ، وأقْوَمُ المَوازينِ، أو هو ميزانُ العَدْلِ[٩٥٨] أيّ ميزانٍ كان، القِسْطُ، بالكسر العَدْلُ، والعَدْل من المَصَادِرِ المَوْصُوفِ بها[٩٥٩]، والله هو العدل ينصف صاحب الحق فيعطيه حقه لذا فالإنْصَافُ: العَدْلُ، والعْدلُ ضِدُّ الجَوْرِ والظلم، وما قامَ في النُّفوسِ أنه مُسْتَقيمٌ فهو عدل، كالعَدالَةِ، فهو عادِلٌ من عُدولٍ وعَدْلٍ، بلَفْظ الواحِدِ، وهذا اسم للجَمع. رجُلٌ عَدْلٌ، وامرأةٌ عَدْلٌ. وعَدَّلَ الحُكْمَ تَعديلاً أقامَهُ،[٩٦٠] واسْتَقَامَ: اعْتَدَلَ[٩٦١].

إذن العادل في ملكه هو الله عز وجل وهو العادل المطلق، والعادل بالإضافة هو المضاف لصفة العدل المستمدة من العادل المطلق، والتي بها اندمج عدلا في قوله وفعله وسلوكه وأحكامه.

ولا يجوز في حق العدل الجور لأن الجَوْرُ نقيضُ العَدْلِ، وكذلك المتحققون بالعدل الذي أراده الله لا يجورون ولا يميلون عن عدله تعالى وذلك لأن الجور ظلم، وكل ما مال فقد جارَ، وجارَ عن الطريق عَدَلَ والجَوْرُ المَيْلُ عن القصدِ وجار عليه في الحكم ظلمه[٩٦٢].

فالعدل المطلق لا يجور ولا يميل عن الطريق المستقيم وكيف ذلك وهو الذي خلق الطريق المستقيم ليستقيم الخليفة أو العادل المشتق من العدل وقد أمر الله العدل النبي صلى الله

---

[٩٥٧] القاموس المحيط ج ١ ، ص ،٣٧٧.

[٩٥٨] القاموس المحيط ج ٢ ، ص ١٠٦.

[٩٥٩] القاموس المحيط ج ٢ ، ص ٢٣٢.

[٩٦٠] القاموس المحيط ج ٣ ، ص ١٣١.

[٩٦١] القاموس المحيط ج ٣ ، ص ٢٧٦.

[٩٦٢] لسان العرب ج ٤ ، ص ١٥٣.

عليه وسلم بالاستقامة وهو الذي لم يمل عن الحق ولم يظلم فقال الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[٩٦٣].

فهذه وصية جامعة تحث على العدل المطلق لمن أراد أن يلحق بركب العدل، فالله العدل يأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يستقيم كما أمره على منهج العدل الذي أنزله إلى الإنسان بوصفه الخليفة على أرضه في كتب سماوية أنزلت منذ آدم عليه الصلاة و السلام مرورا بسيدنا نوح وإبراهيم وموسى وداود وعيسى عليهم الصلاة والسلام جميعا، وكل هذه الشرائع والكتب لا محالة تحضُّ على العدل، وهذا زمان الخلافة المحمدية فمن أراد أن يلحق بركب العدل فعليه باتباع نبي العدل على شريعة العدل، والاكتفاء بما أنزل على النبي الذي أُمر ليعدل فعدل، وحتى لو كانت هناك أفكار تستحق الدراسة في المناهج الأخرى والأديان الأخرى إلا أنها قد جمعت جميعها في الشريعة المحمدية الكاملة، ولهذا عاتب النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عتابا شديدا لمّا قرأ في كتب أهل الكتاب ليزداد نورا على نور، فقد ورد في الحديث الشريف عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي"[٩٦٤].

فالنبي صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى يقسم بالله لو أن موسى بن عمران كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعه صلى الله عليه وسلم لما في المنهج المحمدي من الكمال في الأسس التي بها يصل الخليفة إلى العدل، وهذا ما عمل به الفاروق

[٩٦٣] الشورى، ١٥.

[٩٦٤] مسند أحمد ج ٣٠ ، ص ١٧٣

الخليفة العادل الذي أصبح مضرب المثل في العدل لأنه عمل بالمنهج المحمدي الذي أساسه العدل والذي يشمل في الوقت نفسه المناهج السابقة المنزلة على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعا.

العدل صفة العادل المطلق، وصفة الحاكم بحكمه تعالى، ولذلك اتخذ الخليفة العدل حكم بعد مشاورة، وليس حكما سابقاً عليها أو متغافلا عنها، والمشورة في الدين الإسلامي أخذ الرأي في كل أمر يتعلق بمصير العباد دون إنابة عنهم في شيء إلا إذا كانوا قُصَّر، مصداقا لقوله تعالى: {وشاوِرْهم في الأمر}[٩٦٥]، ويقول ابن منظور: "شاورهم تعني استخرج آراءهم"[٩٦٦]، وهناك من يقول: "هي تلقيح الرأي بآراء متعددة "[٩٦٧]. وهذا يدل على أن الشورى في الفكر الإسلامي تماثل الديمقراطية عندما تكون ممارستها حقا للجميع الذكور والإناث، ولذلك يستوجب ممارسة الشورى في الأمر. والأمر هو: كل ما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسؤوليات، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية، أو كان هذا الأمر حالة سلم أم حالة حرب، وسواء كان اقتصادا أو علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاورة في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية (وشاورهم في الأمر) موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم.

وفي حالة ما لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام معهم يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وأمْرُهُم شُورى بينهم}[٩٦٨]. إذن بكل وضوح إن الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حالة شورى بين الرسول والآخرين الذين يتعلق

---

[٩٦٥] . آل عمران ، ١٥٩ .

[٩٦٦] .تفسير الجلالين . بيروت ، دار الفكر ، ص ٩٤ .

[٩٦٧] . محمد متولي شعراوي ، تفسير الشعراوي . القاهرة ، أخبار اليوم ، ج٣، ص ١٨٤٠ .

[٩٦٨] . الشورى ، ٣٨ .

الأمر بهم. أما من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورى يقررون ما يشاؤون فيه، وينفذونه كما يشاؤون، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من أمر. وكلمة أمرُهُم ، تتكون من جزأين هما: (أمْرُ) و(هُم)، فالأمر هو ما سبق تبيانه، أما هم فجاءت مطلقة أي كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، وهذا يعني لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية، بل الوجود فقط للكل دون استثناء، وكلمة بينهم الظرفية تعني أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعنيهم الأمر فقط، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية، ولتأكيد هذا الاقتصار قال عزّ وجل بينهم، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول.

ولذا فمن العدل الحث عليه والعمل به في كل حين وفي كل زمان، فالعدل هو العدل واحد لا اثنان، إنه صفة لواحد أحد لا شريك له بيده الملك والحكم وهو على كل شيء قدير، فالعدل صفة لا تقتصر على المجال السياسي بل العدل يمتد في كل المجالات القيمية الستة الآتية:

أولا ـ مجال العدل الاجتماعي.

ويحتوي على اثنتي عشرة علاقة قيمية هي:

(علاقة الأمة، والوطن، والمجتمع المحلي، والأسرة، والعلاقة الزوجية، وعلاقة الأخلاق، وعلاقة الكرم، وعلاقة البخل، وعلاقة الصداقة، والعلاقة بالجنس الآخر، وعلاقة السلوك الاجتماعي).

إن مجال العلاقات القيمية الاجتماعية مجال بنائي يكوّن الشخصية الاجتماعية المتفاعلة والمتعاونة كلما تم تشرب هذه القيم بإرادة ومعرفة واعية، وإذا لم يتم ذلك بإرادة فإن السلوك المناقض للبناء قد يكون هو سلوك الصدارة، ولذا فإن التفاعل الموجب الذي تنتجه ألاثنتا عشرة قيمة هو الذي يقوي عاطفة الانتماء والروابط القيمية الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، ويجعل الضمير (نحن) هو السائد بينهم بدلا للضمير (أنا) الذي

في كثير من الأحيان يؤدي إلى الصدام والفرقة. ويحتوي مجال العلائق القيمية الاجتماعية على الآتي:

١ . علائق قيمية طبيعية تستوجب العدل: كالعلاقة الأسرية والعلاقة العائلية والعلاقة القبلية وعلاقة الأمة التي تكوّن الذات العامة المشتركة للأفراد والجماعات، وتغرس في نفوسهم عاطفة الحب وروح الانتماء.

٢ . علائق قيمية ضرورية تستوجب العدل: كالعلائق بين رفاق العمل، ورفاق الحرف والمهن، ورفاق التعليم والتعلم، وهذه العلائق قد تكون بين بني الأمة أو مع الآخرين، فعندما تكون بين أبناء الأمة أو الوطن تحتويها عاطفة الأصل والانتماء، وعندما تكون مع الآخر تحتويها علاقة المهنة وعاطفتها المؤقتة.

٣ . علائق قيمية اختيارية تستوجب العدل: كالعلاقة مع رفاق المناشط الرياضية والفنية والمسرحية والموسيقية والثقافية، أو رفاق الحفلات والرحلات السياحية. أيضا عندما تكون هذه العلائق الاختيارية بين أفراد الأمة وجماعاتها فإن عاطفة الأصل والانتماء هي التي تسودها، وعندما تكون مع الآخر تحتويها علاقة المناشط المتنوعة وعاطفتها المؤقتة.

ثانيا ـ مجال العدل الاقتصادي.

يحتوي هذا المجال على خمسة علائق قيمية تستوجب سيادة صفة العدل بين عناصرها التي تشترك فيها، وهي:

{العلاقة الاقتصادية، والإبداعية، والعملية، والتقنية، والعلاقة الإنجازية).

هذه العلائق القيمية كل منها يؤدي إلى الإنتاج سواء كان هذا الإنتاج ماديا (إنتاج السوق) الذي تترتب عليه قيم البيع والشراء، وارتفاع مستوى الدخل أو انخفاضه، أو إنتاجا معرفيا (إنتاج المعلومة والفكرة) التي تثري ما سبق، وتدعم ما في الآن، وتسعى لصناعة المستقبل. ولذا فإن التقنية (مولود الفكرة) تتطور وتتنوع وتتجدد مع كل جديد.

في خماسي تحليل القيم الذي قدمناه إضافة جديدة للقراء والذي سجلت براءته الفكرية باسمنا[969]، يعتبر هذا المجال العلائقي مجالا لتحقيق المنفعة القابلة للقياس بالإنتاج الذي يتطلب إدارة ملاحِقة (تلاحق المنتجين لتمدهم بالخدمة التي تمكنهم من زيادة الإنتاج)، وإدارة تتفهم ظروفهم ومتطلباتهم كما تتفهم احتياجات المستهلكين.

إن مبدأ المنفعة جعل الإنسان في حالة منافسة مع الآلة بدلا من منافسته للآخر من بني جنسه، ولذا أصبحت الآلة تحل محل الإنسان غير القادر على المنافسة في العملية الإنتاجية، فإذا كان الجهد المبذول يقل قيميا عن العائد منه لابد وأن تكون الخسارة هي المبعدة عن ميادين المنافسة الحرة.

ولذا فإن تحليل مجال العلائق القيمية الإنتاجية يمكّن البحّاثة من التعرف على حالات المنتجين بعدل من حيث الجهد، الإنتاج، والإشباع والمنفعة، وفقا للآتي:

١ . جهد يؤدي إلى الإنتاج يؤدي للإشباع ويحقق منفعة.

٢ . جهد يؤدي إلى الإنتاج ولا يؤدي للإشباع لا يحقق منفعة.

٣ . جهد يؤدي إلى الإنتاج، يؤدي إلى الزائد عن الإشباع، يحقق الفائض عن المنفعة.

٤ . جهد لا يؤدي إلى الإنتاج لا يؤدي للإشباع ولا يحقق منفعة.

٥ . لا جهد يؤدي إلى الإنتاج لا إشباع ولا منفعة.

وعليه فمن العدل أن يكون الإنتاج العام ملك عام، وتوزيعه حق عام وفقا للحاجة والجهد المبذول، ووفقا لحقوق القصر على من لهم حق عليهم.

ثالثا . مجال العدل السياسي:

يحتوي مجال العلائق القيمية السياسية على العلائق القيمية الآتية:

{علاقة الحرية، الاستقلالية، علاقة الموقع، والسلطة، وعلاقة السياسة، والفكر).

تكمن في هذه العلائق القيمية الست عناصر القوة الداعمة للإرادة والقامعة لها في وقتٍ واحدٍ، وهذا ما يجعل السلوك البشري في حالة تماثل مع الفعل أو في حالة تناقض معه. مما

[969] عقيل حسين عقيل، خماسي تحليل القيم، دار الكتاب الجديد، بيروت، ، ١٣٥، ص ٢٠٠٣.

يؤدي إلى التفاعل والمشاركة والوحدة، أو يؤدي إلى الرفض والتمرد والصدام، أو أن يؤدي إلى الخنوع والإدعاء والنفاق السياسي.

ولذلك تتباين اختيارات المبحوثين من مجتمع لآخر ومن موضوع لآخر، فما يراه البعض مناسبا أو مفضلا في اختياراتهم للبدائل القيمية قد لا يراه البعض الآخر كذلك أو أنهم يرون ما هو أفضل، ولذا فمن العدل أن لا يجبر الأفراد على ما لا يرغبون، وإن أجبروا فلا مفر من الصدام والخصام الذي يفرق بين المرء وزوجه.

إن تحليل مجال العلائق القيمية السياسية يؤدي إلى معرفة اتجاهات الأفراد والجماعات والمجتمعات وميولهم ومدى تمسكهم بالقيم التي تكوّن شخصياتهم أو تهدها، ونظرا لوجود الفروق الفردية في القدرات والاستعدادات والمهارات فإنه بالضرورة أن يكون لكل فرد رغباته التي من العدل أن تحترم ويقدر أصحابها، ولا يفرض عليهم مالا يرغبون أو ما لا يفضلون، ومن العدل أن تراعى قدرات الأفراد وميولهم وحاجاتهم المتنوعة والمتطورة.

ولأن مجال العلائق القيمية السياسية ذو صلة بالقرار وأساليب اختياره، وبالتنفيذ وطرق اعتماده فإنه بلا شك ذو صلة بالإرادة التي تتميز من خلالها كل شخصية وكل جماعة ومجتمع وهذه القيم تؤكد على الآتي:

١ . روابط اجتماعية طبيعية، تؤدي إلى مجتمع الذاتية، تحقق الشخصية العاطفية.

٢ . روابط منفعية تؤدي إلى مجتمع الأنا تحقق الشخصية الفردية (الشخصانية).

٣ . روابط فكرية، تؤدي إلى مجتمع الفكرة، تحقق الشخصية الموضوعية (العقلية).

٤ . روابط سياسية تؤدي إلى مجتمع الاختراق تحقق الشخصية الانسحابية.

٥ . روابط إنسانية تؤدي إلى المجتمع الإنساني تحقق الشخصية الاقترانية (المنطقية).

رابعا . مجال العدل النفسي:

يحتوي هذا المجال على العلائق القيمية الآتية:

(علاقة الشخصية، وعلاقة إثبات الذات، والعلاقة الضميرية، وعلاقة الواجب، وعلاقة الحقيقة، وعلاقة الواقع، والعلاقة الجنسية).

هذه العلائق تؤثر في علائق أخرى وتتأثر بها، تفيد في التحليل النفسي للأفراد والجماعات والمجتمعات من خلال التعرف على اتجاهاتهم وميولهم والقيم التي يتمسكون بها أو التي يحيدون عنها مما يجعلهم يتخذون مواقفا وأدوارا متباينة تختلف من وقت لآخر.

ولتحليل مجال العلائق القيمية النفسية ينبغي أن يهتم البحاثة بمعرفة علم الخفايا الذي يجعل من الأفراد متفاعلين ومتفائلين أو منطويين ومتقوقعين في حالة إقدام أو إحجام، وفي حالة مشاركة أو في حالة عزلة ووحدة. إن معرفة علم الخفايا يمكّن البحّاثة من معرفة العلل والأسباب الكامنة وراء الأفعال المرتكبة، ولذا فهو علم معرفة الباطن (الجوهر)، الذي يتطلب تحليل شخصية المبحوث تحليلا نفسيا غير مباشر، فالسلوك الظاهر قد لا يعبر عن حقيقة الكامن، ولذا يلتجئ المحلل أو الباحث إلى استخدام الأساليب الإسقاطية في دراسة بعض المواضيع المتعلقة بالشخصية.

إن النفس البشرية تقوى وتضعف بالكلمة أو بالفعل أو بالسلوك، وتتأرجح بين الخيال الممكن والخيال غير الممكن تارة وبين المتوقع وغير المتوقع تارة أخرى، عندما تضعف تضطرب، وعندما تقوى تطمئن. معايير اختياراتها القيمية في بعض الأحيان تتمركز على الأفعال الأنانية، وفي بعض الأحيان الأخرى تتمركز على الذاتية أو الموضوعية، وفي حين آخر تتشتت الذات بين الميول إلى الأنانية أو الميول إلى الموضوعية، وهذا يعني أن مجال العلائق القيمية النفسية قد تندمج فيه مكونات الشخصية مما يجعل عناصر الذاتية جزاء لا يتجزأ من عناصر الأنانية أو عناصر الموضوعية، وهذا يتماثل مع قطاعات خماسي تحليل القيم الذي يمكّن البحّاثة من معرفة محتويات النص أو الخطاب أو الشخصية قيد البحث والدراسة.

إن القيم التي يحتويها مجال العلائق النفسية تنصهر في بوتقة الاعتراف والتقدير التي يتمركز عليها التفكير الإنساني، حيث الكل يسعون إلى نيل الاعتراف والتقدير وعلى جميع المستويات، مستوى الحاكم ومستوى المشارك ومستوى المحكوم، ومستوى الحر ومستوى العبد، فالعبد كغيره من البشر يبحث عن قيمة الاعتراف والتقدير، أن يعترف له سيده بأنه

مخلص لكي يزيد في الطاعة وأن يقدره على هذا الإخلاص، والابن الذي يطيع والديه في غير معصية الله عز وجل يريد أن ينال منهما الاعتراف والتقدير لكي يستمر في هذه الطاعة، وهكذا الحاكم يسعي إلى أن ينال الاعتراف والتقدير من رعيته بأن النظام الذي يترأسه هو الأفضل وأن يقدروا هذا التفضيل، أو أن يقدروا الظروف التي لم تمكّنه من تحقيق خطابه أيام الدعاية الانتخابية، وهكذا المحكومون يسعون لنيل الاعتراف والتقدير من الحاكم على تحملهم فترة حكمه وأن يقدّرهم على هذا التحمّل. ولذلك فإن البدائل القيمية لهذا المجال العلائقي تستوجب استخدام الخماسي في التعرف على السلوك الذي يتغير حاله من شخص لآخر ومن ظرف لظرف خاصة وأن السلوك البشري يسعي إلى تحقيق الاعتراف والتقدير في مقابل إشباع الحاجة كما هو مبين في الآتي:

. سلوك يعترف بالحاجة ويقدّرها، يحقق الرضاء ويؤدي إلى إثبات الذات.

. سلوك لا يعترف بالحاجة ولا يقدّرها، يحقق الاضطراب ويؤدي إلى الانسحابية.

. سلوك يعترف بالزائد عن الحاجة ويقدره، يحقق الرضا ويوصف بالعقلية.

. سلوك لا يتدخل في ما لا يعنيه، يحقق الرضا ويوصف بالمنطقية.

. سلوك لا يُفعل إلى لمصلحة، يحقق الرضا ويوصف بالشخصانية.

وعليه فمن العدل أن لا يتم الإغفال عن المستوى القيمي الذي تكون عليه شخصية الأفراد والجماعات والمجتمعات حتى يتم التمكن من تفعيل مشاركة الشخصية وفقا للحالة التي هي عليها ومدى سلامتها وملائمتها لقبول الفعل أو رفضه، ولهذا قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}[٩٧٠] النفس الأمَّارة بالسوء لا يمكن أن ينتصر أصحابها، وهذا ما ألم باليهود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لم يتقوا ربهم بما جاء به محمد صلوات الله وسلامه عليه. ولذلك جاء قوله (واتقوا) أي: خافوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى، أي: لا تغني (نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ) فيه (شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ) والعدل هنا يعني الفداء، ولهذا لا يمكن أن يحل احد محل آخر في ممارسة

[٩٧٠] البقرة، ١٢٣.

حقوقه وأداء واجباته وحمل مسؤولياته، وفي كل ما يحقق له الرضا النفسي أو يحقق له الشقاء، فعلى سبيل المثال: المستعمر لا تدخل نفسه الفرحة إلا على حساب الذين بلدانهم احتلت من قبله، ولذا ما يرضي النفس المستعبِدة ليس هو ما يرضي النفس المستعبَدة. (وَلاَ تَنفَعُهَا شفاعة وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ) يمنعون من عذاب الله.

خامسا . مجال العدل الذوقي.

يحتوي مجال العلائق القيمية الذوقية على العلائق التي تتجاوز بالعقل البشري من حالة الإحساس بالمشاهد إلى حالة الإحساس بالمجرد وهي:

(العلاقة الوجودية، والعلاقة الدينية، وعلاقة السعادة، وعلاقة الجمال، وعلاقة الفن، وعلاقة الأدب، وعلاقة الطبيعة).

فالقيمة الحسية بالجميل على سبيل المثال لا تقتصر على النظر إلى المشاهد فقط بل تتعداه إلى الإحساس بقيمة الجمال المجرد (الذي يكمن في الجميل). الذوق رفعة في الحس تؤدي إلى سمو عقلي ومعرفي يُمكِّن الإنسان من الاطلاع على الكامن والإحساس به مثل كمون النغمة في المعزوفة وكمون الصور البلاغية في المقطوعة الشعرية وكمون السيناريو في النص وكمون القصة في اللوحة الفنية وكمون النشوة في السعادة وكمون الإعجاز في آيات الخالق.

وعليه فإن مجال العلائق القيمية الذوقية يحتوي على سبعة علائق تتمّم بعضها البعض في تفطين العقل الإنساني من الغياب إلى الحضور ومن المشاهد إلى المجرد {من النظر إلى المخلوق إلى النظر إلى الكيفية التي خلق بها وخلق عليها) مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}[٩٧١]. وردت تساؤلات أربع في هذه الآيات الكريمة، فيها من الاستغراب ما يلفت إلى الانتباه لما هؤلاء لا ينظرون إلى الكيفية التي بها خلقت الإبل؟ والكيفية التي بها رفعت السماء؟، والكيفية التي بها نصبت الجبال؟، والكيفية

---

[٩٧١] الغاشية، ١٧ . ٢١.

التي بها بسطت الأرض. أي لما هؤلاء يقصرون نظرهم على المشاهد فقط الذي تراه أبصارهم، ولا يمدون تفكيرهم وعقولهم إلى معرفة الكيفية التي بها تمت هذه المعجزات؟. مما جعل الخلفاء يمدونها من المشاهد إلى المجرد حتى آمنوا واتقوا وأدركوا أن ورائها خالق عظيم قادر على الفعل كيف يشاء متى ما شاء سبحانه لا إله إلا هو، به آمنوا، وعليه توكلوا، وبعلمه استناروا، وبكتابه المحفوظ اهتدوا فاستخلفوا بذوقهم الرفيع في الأرض ليصلحوها.

ولذا فإن للذوق أثر على السلوك والفعل حيث يجعل الإنسان في حالة بهجة وإيمان وتفاؤل وعطاء أو في حالة راحة وتعجب واستبصار أو في حالة تقرّب وخضوع وترويح، والذوق كمحقق للرفعة الحسية والروحية يتطلب التذكر والتفكر والتأمل.

يعد هذا المجال العلائقي مجالا لتحقيق السمو القيمي الرفيع الذي يبرز أهمية الذوق العقلي والوجداني لِما يشاهد ولِما يلاحظ وعندما يتحقق هذا السمو تصبح اللذّة ذوقا حسيا يحقق المتعة، فعندما تسبح في البحر وقت الغروب تربطك متعة الشفق الذي يلونك مع ماء البحر وصفاء السماء بسترة لونه الذهبي الذي لا عيار له إلا الذوق، حينها بإمكانك أن تكتب على السماء ما تشاء وأنت تسبح في البحر وتُسبِحُ بحمد ربك، وبإمكانك أن تجول بين عالم الواقع وعالم الأمل دون أن تترك العوم.

سادسا . المجال العدل الثقافي:

ولأن لكل مجتمع ثقافة وخصوصية فمن العدل أن لا يتم إطغاء ثقافة على أخرى إلا بالحق، وهذا المجال يحتوي على العلائق القيمية الآتية:

(علاقة الثقافية، علاقة العلم، علاقة التحصيل، علاقة الصحة، علاقة الطعام، علاقة الزمن، علاقة الرياضة).

أن قيم هذا المجال العلائقي هي دائما في حالة حركة وامتداد فكري حيث أنها تتأثر بالمزيد المعرفي الذي يثريها ويجعلها قادرة على أن تثري السلوك المصاحب لها في كل ظرف، وأن تفاعل الإنسان مع القيم الثقافية تجعله في حالة تميّز كلما تمكّن معرفةً وسلوكا، ومع أن

الإلمام بالقيم الثقافية يفتح آفاق واسعة أمام امتداد التفكير الإنساني إلا أنه قد يشكل عائقا أمام سرعة الامتداد غير الواعية التي كانت قبل المزيد المعرفي، وذلك لأن المزيد المعرفي يؤدي إلى الإحجام عن السلوكيات غير الموضوعية (التي كانت تُفعل على حساب الآخرين)، فبالثقافة تفك القيود وبها توضع قيودا (تُفك من قيد الجهل المعرفي وتوضع به)، والإلمام بمجال القيم الثقافية يؤدي إلى حسن الفعل ورفعة السلوك واستيعاب الآخر بإرادة كما هو لا كما ينبغي أن يكون علية.

مجال العلائق القيمية الثقافية مجال امتدادي تمتد فيه القدرات والملكات العقلية الإنسانية من حالة السكون إلى حالة الحركة الواعية التي تمكّن الإنسان من التمييز والتفضيل وتمكنه من الممارسة السلوكية عندما تتطابق المفاهيم مع الأفعال المرغوبة التي تؤدي إلى ظهور الأنموذج وتبرز الاتجاهات المعرفية والأفكار الخاصة والعامة (المنغلقة والمنفتحة)، فتبرز الشخصية على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الإنساني. وعليه فإن مجال العلائق القيمية الثقافية يعتمد كثيرا على معرفة الأثر القيمي وأساليب تقديره عن طريق تطبيق الخماسي على موازين اختيارات المبحوثين للبدائل القيمية لكل علاقة من علائق هذا المجال الثقافي.

عندما تقتصر قيم مجال العلائق الثقافية على المستوي الشخصي فإنها تؤدي بالضرورة إلى بناء شخصية الأنا، وعندما تمتد القيم لتحتوي مميزات الأمة (الدين والأعراف واللغة) فبالضرورة تؤدي إلى بناء الذات الاجتماعية التي تكوّن العاطفة الاجتماعية، وعندما تستوعب الآخر كما هو لا كما ينبغي أن يكون عليه فإنها ستؤدي إلى بناء الشخصية الموضوعية، ويحتوي الخماسي أيضا على معيار قيمي يؤدي إلى تكوين ومعرفة الشخصية الانسحابية (عندما تكون في حالة تراجع من مستوى الذات إلى مستوى الأنا)، ويؤدي في الوقت ذاته إلى بناء ومعرفة الشخصية المنطقية (التي تتمسك بالقيم العامة للمجتمع أو الأمة وتستوعب قيم الآخرين دون أن تتخلى عن قيم أمتها الموجبة).

باتباع سلوكيات من شأنها إكمال العدل مثل صلة القربى لدى الإنسان من أبناء جلدته من أخوة وأخوات وأعمام وعمات وأخوال وغير ذلك، وقربى عامة للجيران ولو كانوا على غير الملة، وصلة أبناء آدم جميعا لما بين البشر من قربى قد نُسيت وعفا عليها الزمان، والوفاء بالعهد والصدق مع النفس ومع الآخرين لأن الله العدل هو الذي أمر بذلك وقد أحاط بقلوب العباد وما يخطر فيها من هواجس، فهذا وغيره من متممات العدل يقول الله تعالى:

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[٩٧٢].

جاء أمر العدل مطلق دون اقتصار على عدل بذاته، وتبعه أمر الإحسان مطلق، وتبعهما أمر الإيتاء لذي القربى مطلق حيث وجوبية الحق بالإتباع والطاعة. ولأنها أوامر من عند الله فإتباعها والأخذ بصفاتها طاعة لله تعالى وأخذ بصفاته، وعدم الأخذ بها عصيان لا يقدم عليه إلا كافر فليتقي الإنسان ربه بالطاعة التامة له واحداً أحداً لا شريك له. ولهذا فالخلفاء هم الذين إذا حكموا هم يعدلون بالحق، وللإحسان هم فاعلون، وللعطاء لأصحاب الحقوق عليهم من ذي القربى وافون، وهم الذين ينهون عن الفحشاء والمنكر والبغي، وجميع هذه المواعظ من الرحمن الرحيم العادل في ملكه، ولأن هذه المواعظ والأوامر هي في اللوح المحفوظ فإن التذكير بها يستوجب العودة إليها وإلى الأسرار التي تكمن من ورائها. ثم أمر تعالى بإيفاء العهد وعدم نقض الإيمان بعد توكيدها والله تعالى شاهد على ذلك، فليتقِ الإنسان ربه ويتبع أوامره ويبتعد عما نهى عنه ويحمده ويشكره على فضله.

وعَنْ مُحَمَّد بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: دعاني عمر بن عَبْد العزيز، فقال:"صف لي العدل، فقلت: بخ سألت عَنِ أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابنا، وللمثل منهم أخاً،

[٩٧٢] النحل، ٩٠.

وللنساء كذلك، وعاقب الناس عَلَى قدر ذنوبهم، وَعَلَى قدر أجسادهم، ولا تضربن بغضبك سوطاً واحداً متعدياً، فتكون مِنَ العادين"[٩٧٣].

ومن الأمانة العدل لأنه بإقامة العدل يستقر المجتمع ويأمن الفرد على نفسه وعرضه وماله وتسود روح المحبة بين الجميع والله العدل يأمر بأداء الأمانة والحكم بين الناس بالعدل فيقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[٩٧٤]. قال تعالى: (إذا حكمتم بين الناس) ولم يقل إذا حكمتم الناس، فالحكم بين الناس له اشتراطات:

أولا: وجود طرفين أو أكثر فرادى أو جماعات أو مجتمعات.

ثانيا: وجود اختلاف على موضوع لهم علاقة به.

ثالثا: وجود عادل.

رابعا: القبول بالحَكم (أن يكون مرضيا للأطراف المختلفة أو المتنازعة أو المتخاصمة).

خامسا: قبول الحَكم بأن يحكم بينهم حيث لا أكراه.

ولهذا جاء في قوله تعالى: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ الله كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً). فيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حق فأديت ذلك الحق إليه فهذا هو الأمانة، والحكم بالحق عبارة عما إذا وجب لإنسان على غيره حق فأمرت من وجب عليه الحق بأن يدفعه إلى من له ذلك الحق، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بالأمانة

---

[٩٧٣] تفسير ابن أبي حاتم ج ٩ ، ص ١١٤

[٩٧٤] النساء ٥٨، ٥٩،

أولا، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب، لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

-المسألة الثانية: أجمعوا على أن من كان حاكما وجب عليه أن يحكم بالعدل قال تعالى: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ الناس أَن تَحْكُمُواْ بالعدل) والتقدير: إن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل فلا تميلوا فإن في الميل بغير حق ظلم وبهتان كبير. وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٩٧٥]. ولأنه أمر فالخليفة مطيع له.

وفي القرآن الكريم المنهج الذي أحاط بما في الكتب السابقة ومن أراد أن يقيم العدل فعليه أن يقتدي بهذا المنهج الذي أنزل ليكون هاديا للخليفة في إقامة العدل على الأرض وهذا لأنه الكتاب الذي لم ولن يدخله تحريف بنقص أو زيادة لأنه قد أُحكم من لدن حكيم خبير يقول الله تعالى مخاطبا الجميع ومؤكدا على أن المنهج الوحيد القادر على تحقيق العدل في صورته المثلى هو الكتاب الذي أنزل على خير نبي وعلى خير أمة:

{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأنظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ}[٩٧٦].

وقال الله تعالى حاثا على العدل بوسائله المتعددة وأساليبه المختلفة من أمر بمعروف ونهي عن منكر وإعراض عن الجاهلين الذين تخلفوا عن ركب العدل ولم يرض أن يكون من الخلفاء الذين يتحلون بصفة العدل اشتقاقا تحليا بصفة العدل من مصدره وفي ذلك قال تعالى: {خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِض عَنِ الجاهلين}[٩٧٧] وقوله تعالى: {إِنَّ الله يَأْمُرُ

---

[٩٧٥] النحل، ٩٠.

[٩٧٦] يونس، ٣٧ . ٣٩.

[٩٧٧] الأعراف، ١٩٩.

بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي}[٩٧٨]. فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشريفة، العقلي منها والنقلي، اشتمالاً يمتنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزاً، وإليه الإشارة بقوله: (وَتَفْصِيلَ الكتاب).

أما قوله: (لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ العالمين) فتقريره: أن الكتاب الطويل المشتمل على ما تعرضه كتب العلوم الكثيرة لا بد وأن يشتمل على نوع من أنواع التناقض، إما هذا الكتاب الحكيم فلا يدخله الباطل من خلفه ولا من بين يديه، إنه المحفوظ بعدل الله وقوته وحفظه، ولذلك لا شك في ما جاء به من آيات عظام حيث لكل آية إعجاز لا يقدر عليه بشر. ولهذا قال تعالى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً}[٩٧٩]. بطبيعة الحال لو كان من عند البشر لكان الاختلاف باختلاف اللغات والأديان والثقافات والأذواق والأعراف والعادات والقدرات والاستعدادات التي هي الأخرى تختلف من شخص لآخر، وكذلك باختلاف الاتجاهات والمصالح والأطماع والحاجات ودرجات إشباعها.

وقد عاد بلفظ الاستفهام على سبيل الإنكار، فقال: (أَمْ يَقُولُونَ افتراه) ثم إنه تعالى ذكر حجة أخرى على إبطال هذا القول، فقال: {قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وادعوا مَنِ استطعتم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صادقين}[٩٨٠] وهذه الحجة بالغنا في تقريرها في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: {وَإِن كُنتُمْ في رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وادعوا شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ الله إِن كُنتُمْ صادقين}[٩٨١]. وهنا تظهر عدة أسئلة منها:

السؤال الأول: لم قال في سورة البقرة : (مِّن مِّثْلِهِ) وقال ههنا: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ).

والجواب: أن محمداً عليه السلام كان رجلاً أمياً، لم يتتلمذ على أحد ولم يطالع كتاباً فقال في سورة البقرة: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) يعني فليأت إنسان يساوي محمداً عليه السلام في عدم التتلمذ وعدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة، ولذا حيث

---

[٩٧٨] النحل، ٩٠.

[٩٧٩] النساء، ٨٢.

[٩٨٠] يونس ٣٨.

[٩٨١] البقرة، ٢٣.

ظهر العجز ظهر المعجز. فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة إنه أمر تسليم بالنسبة للمؤمن، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد عليه السلام في عدم التتلمذ والتعلم معجز، ثم إنه تعالى بين في هذه السورة أن تلك السورة في نفسها معجزة، فإن الخلق وإن تتلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا، فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور، فلا جرم قال تعالى في هذه الآية: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) ولا شك أن هذا ترتيب عجيب في باب التحدي وإظهار المعجز.

السؤال الثاني: قوله: (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ) هل يتناول جميع السور الصغار والكبار، أو يختص بالسور الكبار.

الجواب : هذه الآية في سورة يونس وهي مكية، فالمراد مثل هذه السورة، لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه[٩٨٢].

ونقول نحن الآن في القرن الواحد والعشرين: هل يستطيع أي إنسان على وجه البسيطة أن يأتي بمنهج يحقق العدل وينصف الفقير من الغني والضعيف من القوي والمرأة من الرجل، أو أن يأتي لنا بمنهج يساوي مساواة حقيقية بين بني البشر فقد قال صلى الله عليه وسلم فعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الناس كأسنان المشط"[٩٨٣].

وقال الله تعالى في سورة النحل في الآيات السابقة الذكر: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان، فجمع الله في هذه الآية ما يتصل بالتكليف فرضاً ونفلاً، وما يتصل بالأخلاق والآداب عموماً وخصوصاً، وفي الآية مسائل:

. يقول تعالى: فإلى ذلك الدين الذي شَرَع لكم، ووصّى به نوحا، وأوحاه إليك يا محمد، فادع عباد الله، واستقم على العمل به، ولا تزغ عنه، واثبت عليه كما أمرك ربك بالاستقامة. (فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ): فإلى هذا القرآن فادع واستقم .

---

[٩٨٢] تفسير الرازي ج ٨ ، ص ٢٨٣.

[٩٨٣] مسند الشهاب القضاعي ج ١ ، ص ٣١٠.

. وقوله: (وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) يقول تعالى: ولا تتبع يا محمد أهواء الذين شكُّوا في الحقّ الذي شرعه الله لكم من الذين أورثوا الكتاب من بعد القرون الماضية قبلهم، فتشك فيه، كالذي شكوا فيه.

يقول تعالى: وقل لهم يا محمد: صدّقت بما أنزل الله من كتاب كائنا ما كان ذلك الكتاب، توراة كان أو إنجيلا أو زبورا أو صحف إبراهيم، لا أكذب بشيء من ذلك تكذيبكم ببعضه معشر الأحزاب، وتصديقكم ببعض[٩٨٤].

. وقوله: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[٩٨٥]. جاء الأمر لسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه بأن يدعو بما أُمر، بدعوته المستقيمة، وبالعدل لن يتبع أهواءهم، وطلب منه أن يُعلِمهم بما آمن به من عدل، وبما يدعو ولمن يدعو. يقول تعالى: وقل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعا بالحق الذي أمرني به وبعثني بالدعاء إليه[٩٨٦].

وبما أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بالصدق والعدل إذن فالخليفة الذي يسير وفق منهجه يكون متخلقا بالعدل، والعدل لا يكون في الحكم بين الآخرين فقط ولكن من صوره الحكم أو التحكم في النفس لخيرها وخير من هم مسؤولون منها وفي هذا نتذكر الحديث المشهور الذي قاله سيدنا سلمان الفارسي لأخيه أبي الدرداء وأقره سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذي وجهه فيه لأن يكون عادلا في تقسيم اهتماماته بين ربه ونفسه وبدنه وزوجه ولا يجور بإعطاء نصيب أكبر لجانب على جانب آخر وهذا ما حدث مع الصحابي الجليل أبي الدرداء الذي وجهه سيدنا سلمان الفارسي توجيها يحضه على العدل ،فعَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:"آخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَزَارَ

---

[٩٨٤] تفسير الرازي، ج ٩ ، ص ٤٥١.

[٩٨٥] الشورى، ١٥.

[٩٨٦] تفسير الطبري، ج ٢١ ، ص ٥١٦.

سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ متبدلة فَقَالَ لَهَا مَا شَأْنُكِ قَالَتْ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا فَجَاءَ أَبُو الدرداء فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ كُلْ قَالَ فَإِنِّي صَائِمٌ قَالَ مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ قَالَ فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ قَالَ نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ فَقَالَ نَمْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ قُمْ الْآنَ فَصَلَّيَا فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَ سَلْمَانُ"[٩٨٧]. وقال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[٩٨٨]

وقد ورد حديث يدور حول المعنى ذاته يوجه فيه رسول العدل صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن عمرو بن العاص حتى لا يفرّط في العبادة ويكون من المعتدلين فعَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ قُلْتُ إِنِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ قَالَ: فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ وَإِنَّ لِنَفْسِكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ حَقًّا فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ"[٩٨٩]، وقد ورد الحديث فيه زيادة توضح جوانب أخرى من حياة الإنسان مثل العلاقة بالزوج والنفس والبدن والروح.

وعليه فالعدل: هو المحقق للاتزان النفسي والوجداني والبدني وذلك بمراعاة ما يجب والأخذ به ومراعاة ما لا يجب والابتعاد عنه، وذلك لأن كل شيء يزيد عن حده ينقلب إلى ضده، وفي المجال النفسي تطمئن النفس برجوعها لله تعالى العادل المطلق مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[٩٩٠]، ورضا النفس لا يتحقق إلا بالعدل، ولذلك فمن يظلم العباد يشقى في الدارين، ومن يعدل بما يحقق له الاتزان النفسي والبدني يتحقق له الرضا بعمله الصالح في الأرض

[٩٨٧] صحيح البخاري، ج ٧ ، ص ٧٦.

[٩٨٨] القصص ٧٧.

[٩٨٩] صحيح البخاري ج ٤ ، ص ٣٢٨

[٩٩٠] الفجر، ٢٧ . ٢٩.

ويفوز بالجنة، ولذا فإن العادل المطلق يخاطب النفس المطمئنة مباشرة بقوله {يا أيتها النفس المطمئنة) ثم يأمرها بالرجوع إلى بارئها جل جلاله فتطيعه عدلا، وقوله تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[٩٩١]. تسوية النفس اعتدالها، وسوَّاها عدلها، وبعدله لها أطمأنت، وبالاطمئنان ألهمها الله فجورها وتقواها، حتى أنها تبيَّنت أمرها ورشدت بمعرفة ما يجب فتزكت وعرفت ما لا يجب فانتهت عنه، وبهذا فهي النفس العادلة التي تحيد عن الشيء وتبتعد عنه اتباعا لأمر العادل المطلق وهداية بما جاء به عز وجل، لأجل أن تأخذ بما أمر جل جلاله.

فهذا هو العدل في أبهى صوره مع النفس والجسد والروح ومع الله ومع الغير ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يأمر بمثل ذلك وأن يدعو إليه وأن يستقيم على ذلك المنهج يقول الله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[٩٩٢].

قوله (فَلِذَلِكَ فَادْعُ) أي: فالذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم، فادعُ الناس إليه.

وقوله: (وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) أي: واستقم أنت ومن اتبعك على العدل وعبادة الله، كما أمركم الله عز وجل.

وقوله: (وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) يعني: أعدل ولا تلتفت إلى المشركين فيما اختلقوه، وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان فإنها زائلة وفاقدة لصفة الديمومة والبقاء، فأنت أيها الخليفة تعبد الحي الذي لا يموت ولا يبيد ولا يفنى.

---

[٩٩١] الشمس، ٧ ـ ١٠.

[٩٩٢] الشورى، ١٥.

وقوله: (وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ) أي: آمنت بالعدل وصدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على، ولهذا من العدل أن لا نفرّق بين كتبه ورسله الذين قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

وقوله (وأمرت لأعدل بينكم) جاء العدل صراحة مباشرة للتأكيد على كل المضامين السابقة الذكر، ولأنه خليفة لله في الأرض فهو المطيع لأمره وليس له بد إلا العدل بين العباد فيما هم فيه مختلفون أو مختصمون.

وقوله (الله ربنا وربكم) وهذه عين العدل أن يكون الله للجميع وليس لأحد كما هو حال المشركين الذين اتخذوا من دونه أربابا.

وقوله: (لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ) لا يظلم أحد، فمن عمل صالحا فله ومن عمل طالحا فله، وهذه عدل من عادل لا يظلم، أي بظهور الحق تبيَّن الأمر من عمل صالحا فلنفسه ومن ضل فما ربك بظلام للعبيد.

وقوله: (لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ) لقد ظهر الحق عدلا وافيا، فلا حجة بعده بيننا وبينكم أي بعد أن تبين الحق فلا داعي للمحاجة، الحق نور لا يخفى عن مبصر ولا بصيرة.

وقوله: (الله يجمع بيننا) فيما اختلفنا فيه بعد ظهور الحق فالعادل المطلق يجمع بيننا على الحق، فلا داعي للاختلاف وعلينا بتقواه وعدم الشرك به إلها واحدا عادلا في ملكه.

وقوله: (وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) كل شيء يعود إليه، المستقبل وعلم الغيب يعلمهما بالتمام والكمال العادل الذي بعدله يجمع بيننا، ولهذا فهو مرجع الكل بفضل القضاء العادل، فالمصير إليه وحده لا شريك له.

والله العدل يأمر بإقامة العدل فيقول عز وجل: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[٩٩٣] القِسْطاس والقُسطاس أعدل الموازين وأقومها[٩٩٤]. ولذا

---

٩٩٣ الإسراء ٣٥.

٩٩٤ لسان العرب، ج ٦ ، ص ١٧٦

فمن العدل أن تُعيَّر الموازين ليتم العدل بها بين الناس إذا احتكموا لمن يكيل بينهم أو ليكيل بميزانه فليتق الله ربه بعدله.

وفي أسماء اللّه تعالى الحسنى أسماء قريبة من الاسم العدل وتعطي نفس الدلالة، فالمُقْسِطُ هو العادِلُ يقال أَقْسَطَ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ إِذا عدَل وقَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسِطٌ إِذا جارَ فكأَن الهمزة في أَقْسَطَ للسَّلْب كما يقال شَكا إِليه فأَشْكاه وتقَسَّطُوا الشيءَ بينهم تقسَّمُوه على العَدْل[995].

والسَّواء والقِسْط بالكسر العَدْلُ وهو من المصادر الموصوف بها كعَدْل يقال مِيزانٌ قِسْط ومِيزانانِ قسط ومَوازِينُ قِسْطٌ وقوله تعالى: {ونضَعُ المَوازِينَ القِسْطَ}[996] أَي ذواتِ القِسْط وقال تعالى وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[997].

{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[998].

يقال هو أَقْوَمُ المَوازِين ويقال قُسْطاسٌ وقِسْطاسٌ والإِقساطُ والقِسْطُ العَدْلُ ويقال أَقْسَطَ وقَسَطَ إِذا عدَلَ وجاءَ في بعض الحديث :"إِذا حكَمُوا عدَلوا وإِذا قسَموا أَقْسَطُوا" أَي عَدَلُوا.

لذا فمن لم يحكم بالعدل ويعمل به فهو من الملعونين من الله والملائكة والناس أجمعين، أما الخليفة فهو الذي يَرحَمُ ويُرْحَم ولا ينقض العهد ويحكم بالعدل اتباعا للعدل المطلق الذي هو من عند الله جل جلاله وهو المنزل في القرآن الكريم.

وعدل الشيء ما يساويه ويطابقه ويفدي الإنسان نفسه بدفعه مثل الفدية وهذه من معاني العدل بالإضافة ومن الوسائل التي يتحقق بها العدل، والخليفة يعمل على المساواة وعلى نشر الرحمة والمودة والحكم بالعدل لينشر أنوار العدل في الأرض محل الخلافة.

وفي أسماء الله الحسنى **العَدْل** هو الذي لا يَمِيلُ به الهوى فيَجورَ في الحكم وهو في الأَصل مصدر سُمِّي به فوُضِعَ مَوْضِعَ العادِلِ وهو أَبلغ منه لأَنه جُعِلَ المُسَمَّى نفسُه عَدْلاً.

---

[995] لسان العرب، ج ٧ ، ص ٣٧٧

[996] الأنبياء ٤٧.

[997] الإسراء ٣٥.

[998] الشعراء، ١٨٢، ١٨٣.

و**العَدْلُ** الحُكْم بالحق، يقال: هو يَقْضي بالحق ويَعْدِلُ وهو حَكَمٌ عادِلٌ ذو مَعْدَلة في حكمه.

و**العَدْلُ** من الناس المَرْضِيُّ قولُه وحُكْمُه، ورجل عَدْلٌ وعادِلٌ جائز الشهادة ورَجُلٌ عَدْلٌ رِضاً[999] ومَقْنَعٌ في الشهادة قال ابن بري:

وبايَعْتُ لَيْلى في الخَلاء ولم يَكُنْ شُهودٌ على لَيْلى عُدُولٌ مَقَانِعُ

ورَجُلٌ عَدْلٌ بيِّن العَدْلِ والعَدَالة وُصِف بالمصدر معناه: ذو عَدْلٍ قال في موضعين: {وأَشْهِدوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم}[1000]، وقال: {يَحْكُم به ذَوَا عَدْلٍ منكم}[1001]، ويقال رجل عَدْلٌ ورَجُلانِ عَدْلٌ ورِجالٌ عَدْلٌ وامرأَة عَدْلٌ ونِسْوةٌ عَدْلٌ كلُّ ذلك على معنى رجالٌ ذَوُو عَدْلٍ ونِسوةٌ ذوات عَدْلٍ فهو لا يُثَنَّى ولا يجمع ولا يُؤَنَّث فإِن رأَيته مجموعاً أَو مثنى أَو مؤَنثاً فعلى أَنه قد أُجْرِي مُجْرى الوصف الذي ليس بمصدر، وقد حكى ابن جني: امرأَة عَدْلة أَنَّثوا المصدر لما جرى وصفاً على المؤنث وإِن لم يكن على صورة اسم الفاعل ولا هو الفاعل في الحقيقة وإِنما اسْتَهْواه لذلك جَرْيُها وصفاً على المؤنث وقال ابن جني قولهم رجل عَدْلٌ وامرأَة عَدْل إِنما اجتمعا في الصفة المُذَكَّرة لأَن التذكير إِنما أَتاها من قِبَل المصدرية فإِذا قيل رجل عَدْلٌ فكأَنه وصف بجميع الجنس مبالغةً.

قال الله تعالى: (وإِن حَكَمْتَ) (فاحْكُمْ بينهم بالعَدْل) والعَدْلُ في القول قال الله تعالى: (وإِذا قُلْتُم فاعْدِلوا) والعَدْل الفِدْية قال الله عز وجل: (لا يُقْبَل منها عَدْلٌ) والعَدْل يحتوي في مضمونه العودة للأمر الطبيعي وذلك بالعدول عن سابق سالب كعدول المشرك عن شركه والكافر عن كفرة بالعودة للأمر الطبيعي وهو الإيمان بالواحد الأحد العادل في ملكه.

قال تعالى: (ثم الذين كفروا برَبِّهم يَعْدِلون) أَي يُشْرِكون وأَما قوله تعالى: (ولن تَسْتَطِيعوا أَن تَعْدِلوا بين النساء ولو حَرَصْتُم) العلاقات الزوجية علاقات ثنائية في دائرة (المَثنى) وبالتالي تجاوز العدد عن الزوجين الذكر والأنثى يصبح في دائرة المجموع، والمجموع يتنوع ويتعدد

---

[999] لسان العرب ، ص ٤٠٣.

[1000] المائدة ٥.

[1001] الطلاق، ٦٥.

ويتمايز ويتخاصم ويميل أي يحيد عن الصواب في بعض الأحيان إذا تعارضت المصالح أو الرغبات والشهوات، وهذه غرائز في حالات الزواج كل زوجة تعتبرها حق طبيعي لها وقد تكون ظروف الحاجة متزامنة والزواج استئناس وألفة ومحبة تتعلق بالمشاعر والأحاسيس فمن يمسها دخل في الخطوط الحمراء، ولذا فالخصام والمشاكل ستكون إلا إذا تنازل أو قبل طرف بالتنازل للطرف الآخر تفاديا للمشكل وعلى حساب حاجاته وغرائزه واعتباره.

وعَدَلْت فلاناً بفلان إذا سَوَّيْت بينهما، وتَعْدِيلُ الشيء تقويمُه وقيل العَدْلُ تَقويمُك الشيءَ بالشيءِ من غير جنسه حتى تجعله له مِثْلاً، والعَدْلُ والعِدْلُ والعَدِيلُ سَواءٌ أَي النَّظِير والمَثِيل وقيل هو المِثْلُ وليس بالنَّظِير عَيْنه[1002]، وفي التنزيل: (أَو عَدْلُ ذلك صِياماً) قال مُهَلْهِل:

على أَنْ لَيْسَ عِدْلاً من كُلَيْبٍ إِذا بَرَزَتْ مُخَبَّأَةُ الخُدُور

والاعْتِدالُ تَوَسُّطُ حالٍ بين حالَيْن في كَمٍّ أَو كَيْفٍ كقولهم: جِسْمٌ مُعْتَدِلٌ بين الطُّول والقِصَر، وماء مُعْتَدِلٌ بين البارد والحارِّ، ويوم مُعْتَدِلٌ طيِّب الهواء ضدُّ مُعْتَذِل بالذال المعجمة.

قال الله عز وجل: {خَلَقَكَ فَسوّاك فَعَدَلك}[1003]. العدل هنا اتزان وتساوي بالدقة التي خُلق عليها الخليفة في أحسن تقويم، ولهذا العادل جميل وجعل الجمال فينا وفيما خلق بعدله سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله. {في أَيِّ صورةٍ ما شاء}[1004] إنه صاحب المشيئة فكيفما يشاء يركب ما شاء كيف يشاء.

ومن قرأَ (فعَدَّلك) فشَدَّد قال الأَزهري: وهو أَعجبُ الوجهين إِلى الفراء وأَجودُهما في العربية فمعناه قَوَّمك وجَعَلَك مُعْتدلاً مُعَدَّل الخَلْق وهي قراءة نافع وأَهل الحجاز قال: واخْتَرْت عَدَّلك لأَنَّ المطلوب الاثنتين التركيب أَقوى في العربية من أَن تكون في العَدْل لأَنك تقول عَدَلْتك إِلى كذا وصَرَفتك إِلى كذا وهذا أَجودُ في العربية من أَن تقول عَدَلْتك فيه وصَرَفْتك فيه وقد

[1002] المصدر السابق، ٤٠٤.

[1003] الانفطار ٧.

[1004] الانفطار٨ .

قال غير الفراء في قراءة من قرأ (فَعَدَلك) بالتخفيف إنه بمعنى فَسَوّاك وقَوَّمك من قولك عَدَلْت الشيء فاعْتَدل أَي سَوّيْته فاستَوَى.

العَدْل الفِداء ومنه قوله تعالى: (وإِنْ تَعْدِلْ كلَّ عَدْلٍ لا يؤخَذْ منها) أَي تَفْدِ كُلَّ فِداء[١٠٠٥].

وقيل العَدْل المِثْل وأَصله في الدِّية يقال:" لم يَقْبَلوا منهم عَدْلاً ولا صَرْفاً "أَي لم يأْخذوا منهم دية ولم يقتلوا بقتيلهم رجلاً واحداً أَي طلبوا منهم أَكثر من ذلك ،وقيل: العَدْل الفريضة وقيل: النافلة وقال ابن الأَعرابي :العَدْل الاستقامة وسيذكر الصَّرْف في موضعه وفي الحديث:" من شَرِبَ الخَمْر لم يَقْبَل اللهُ منه صَرْفاً ولا عَدْلاً أَربعين ليلة" قيل الصَّرْف الحِيلة والعَدْل الفدْية وقيل الصَّرْف الدِّية والعَدْلُ السَّوِيَّة وقيل :العَدْل الفريضة والصَّرْف التطَوُّع.

وعليه لو لم يكن العدل مطلقا من قوة مطلقة ما كان للحق وجود ولولا الحق المطلق ما كان للحق عبيد يؤمنون وما كانت له قواعد تقاس بالدقة المتناهية وفقا للموازين المخلوقة من الخالق الحق جل جلاله.

ولهذا كان الفداء حق وعدل، وكانت المساواة في الحقوق والواجبات والمسؤوليات بين المواطنين عدل من العدل المطلق.

وقال زهير:

وأَقْصرت عمَّا تَعلمينَ وسُدِّدَتْ   عليَّ سِوى قَصدِ الطّريق مَعادِلُه

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَكَّةَ قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا}[١٠٠٦] فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: وَمَا يُغْنِي عَنَّا الْإِسْلَامُ وَقَدْ عَدَلْنَا بِاللَّهِ وَقَدْ قَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ وَأَتَيْنَا الْفَوَاحِشَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا

[١٠٠٥] المصدر السابق، ص ٤٠٣.

[١٠٠٦] الفرقان ٦٨.

عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا}[١٠٠٧].

يُظهر العدل عدله بعدم تسوية الخليفة التائب بغير التائب لله تعالى، فالذي تاب وآمن وعمل عملا صالحا يجازيه الله عدلا بتبديل سيئاته حسنات، ويغفر له، ويرحمه في الدار الدنيا بالاستخلاف فيها، وبالآخرة بالفوز بالجنة، ولهذا فالخلفاء هم الذين لا يشهدون الزور، ولا يمرون باللغو وإذا مروا يمرون كراما، وهم الذين بربهم يُذكرون ويتذكرون لأجل أن يجتنبوا أي عمل فيه أثم أو ذنب أو غفلة وذلك لأنهم يتذكرون في خلق السماوات والأرض ويؤمنون أن العادل لم يخلقها عبثا ويخرون له طاعة تامة ركعا وقياما، فالخلفاء يوقنون بالحق ويطيعونه في كل كبيرة وصغيرة ويستغفرون ربهم ويتوبون إليه، ويدعون ربهم بأن تكون أزواجهم وأبناءهم قرة أعين لهم حتى يستمر استخلافهم بالحق وعلى الحق المُبين طاعة لله تعالى، ويزدهم تقوى حتى يكونوا قدوة حسنة للمتقين ربهم فيسرون على هداهم مصلحين في الأرض غير مفسدين ولا سافكي الدماء فيها بغير حق، وهؤلاء هم المجازون بالجنة أي بأعمالهم الخيرة في الأرض يفوزون بالجنة وهي الغاية الكبرى للخليفة، وهي المقر الدائم بعد الحياة الدنيا الفانية.

عن جابر الجعفي، قال: كان علي بن الحسين يذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ختم القرآن حمد الله بمحامده وهو قائم ثم يقول: الحمد لله رب العالمين[١٠٠٨]، قال تعالى: {الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}[١٠٠٩]. لا إله إلا الله، وكذب العادلون بالله وضلوا ضلالا بعيدا، لا إله إلا الله، وكذب المشركون بالله من العرب والمجوس واليهود والنصارى والصابئين، ومن ادعى لله ولدا أو

[١٠٠٧] الفرقان ٧٠ . ٧٦.

[١٠٠٨] شعب الإيمان للبيهقي، ج ٥، ص ٩٣.

[١٠٠٩] الأنعام، ١.

صاحبة أو ندا أو شبيها أو مثلا أو سميا أو عدلا ، فأنت ربنا أعظم من أن نتخذ شريكا فيما خلقت، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا. قال تعالى: {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما}[١٠١٠].

قال تعالى: {الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ، يعلم ما يلج في الأرض}[١٠١١].

وقوله تعالى: {الحمد لله فاطر السموات والأرض}[١٠١٢].

وقوله تعالى: {الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون}[١٠١٣].

قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}[١٠١٤].

[١٠١٠] الكهف، ١.

[١٠١١] سبأ، ١.

[١٠١٢] فاطر، ١.

[١٠١٣] النمل، ٥٩.

[١٠١٤] الأعراف، ٤٤ . ٥١.

هذه الآيات وآذان المؤذن في الجنة هي حمدُ على عدلٍ، وشكر على مغفرة وتوبة وفضل من عدل مطلق، بأنهم وجدوا ما قاله الله حقا فلا تبديل لكلام الله وكان حكمه في الطائعين المستخلفين في الأرض والذين لم يستخلفوا فيها العدل الكامل وكان عدله حكما مرضيا وذلك لارتباطه بالأعمال، فمن عمل عملا صالحا فاز بالجنة ومن كفر كانت له جهنم دار خلود، والحمد لله على عدله وفضله وجوده وكرمه وتوبته ومغفرته ولا إله إلا أالله والله أكبر.

اللهم اجعلنا من المستخلفين المصلحين وغير سافكي الدماء فيها بغير حق واجعلنا للمتقين إماما واجعلنا من الوارثين في الجنة أنت مولانا بك آمانا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا وأمر أسرنا وما نملك إليك فأحفظ وارحم وأغفر وأنت خير الراحمين والحمد لله رب العالمين.

ومما سبق يتبين لنا أن العدل المطلق هو الله، والعدل لا يتحقق إلا به لأنه أسرع الحاسبين والعليم الخبير والحكم الذي لا يحكم عن هوى ولا يميل، وكيف يميل وهو الذي خلق الصراط المستقيم؟ يقول الله تعالى على لسان المعصوم من الظلم صلى الله عليه وآله وسلم: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[١٠١٥].

فالله العدل على صراط مستقيم والخليفة العدل بالإضافة على صراط مستقيم ومن يسيرون على خطى الخليفة أمروا أن يقولوا في قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[١٠١٦].

والله يضع من أراد أن يسير فطريق العدل على الطريق المستقيم لكي يكون من الخلفاء المتحققين بنور الاسم العدل يقول الله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[١٠١٧].

[١٠١٥] هود، ٥٦.

[١٠١٦] الفاتحة، ٥.

[١٠١٧] الأنعام ٣٩.

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَم لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[١٠١٨].

وَضَرَبَ الله مَثَلاً: أي مثلاً آخرَ يدل على ما دل عليه المثلُ السابقُ على وجه أوضحَ وأظهرَ وبعد ما أبهم ذلك لتنتظرَ النفسُ إلى وروده وتترقبه حتى يتمكّن لديها عند ورودِه فضل تمكن بيّن فقيل: (رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ) وهو من وُلد أخرسَ لاَّ يَقْدِرُ على شيء من الأشياء المتعلّقةِ بنفسه أو بغيره بحدْس أو فراسة لقِلة فهمِه وسوءِ إدراكِه (وَهُوَ كَلٌّ) ثِقَلٌ وعِيالٌ على مَوْلاهُ، أي: على مَن يعوله ويلي أمرَه، وهذا بيانٌ لعدم قدرتِه على إقامة مصالحِ نفسه بعد ذكر عدم قدرتِه على شيء مطلقاً، وقوله تعالى: (أَيْنَمَا يُوَجّههُّ) أي حيث يرسله مولاه في أمر، بيانٌ لعدم قدرتِه على إقامة مصالحِ مولاه ولو كانت مصلحةً يسيرة، وقرىء على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضي من التوجه (لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ) بنُجْح وكفايةِ مُهمّ البتةَ.

هَلْ يستوي هُوَ مع ما فيه من الأوصاف المذكورةِ، وَمَن يَأْمُرُ بالعدل، أي مَنْ هو مِنطيقٌ فهِمٌ ذو رأي وكفاية ورشد ينفع الناسَ بحثهم على العدل الجامع لمجامعِ الفضائل وَهُوَ في نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام على صراط مُّسْتَقِيمٍ، ومقابلةُ الصفاتِ المذكورة عدمُ استحقاقِ المأمورية، وملخصُ هذين استحقاقُ كمالِ الآمرية المستتبعِ لحيازة المحاسنِ بأجمعها[١٠١٩].

والله نهى عن ضرب المثل لله أي جعل شبه له أو مثيل وذلك يدخل في باب من يعدل بالله أي يعادله بمثيل تعالى الله علوا كبيرا على ما يصفون فقال الله : {فلا تضربوا لله الأمثال}[١٠٢٠] يعني لا تشبهوا الله بخلقه فإنه لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه، ولهذا دائما وبالمطلق لا مجال للمقارنة مع الله في شيء، ولذا فالقاعدة تقول: (الخالق يرى ما خلق والمخلوق لا يرى خالقه) ولهذا بالمطلق الخالق أفضل من المخلوق من غير مقارنة،

[١٠١٨] النحل، ٧٦.

[١٠١٩] تفسير أبي السعود ج ٤ ، ص ١٤١

[١٠٢٠] النحل ٧٩.

ولأن الخلق كلهم عبيده، وفي ملكه فكيف يُشبّه الخالق بالمخلوق، أو الرازق بالمرزوق، أو القادر بالعاجز. إن الله يعلم: يعني ما أنتم عليه من ضرب الأمثال له وأنتم لا تعلمون. قال تعالى: {ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسنا}[١٠٢١] لما نهاهم الله سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال، لقلة علمهم ضرب هو سبحانه وتعالى لنفسه مثلاً، فقال تعالى: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان، كمثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين حر كريم مالك قادر، قد رزقه الله مالاً فهو يتصرف فيه، وينفق منه كيف يشاء، فصريح العقل يشهد بأنه لا تجوز التسوية بينهما في التعظيم والإجلال، فلما لم تجز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة البشرية، فكيف يجوز للعقل أن يسوي بين الله عز وجل الخالق القادر على الرزق والإفضال وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء البتة؟ وقيل: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر المراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر، لأنه لما حرم نفسه من عبادة الله وطاعته صار كالعبد الذليل الفقير العاجز الذي لا يقدر على شيء، وقيل: إن الكافر لما رزقه الله مالاً فلم يقدم فيه خيراً صار كالعبد الذي لا يملك شيئاً، والمراد بقوله ومن رزقناه منا رزقاً حسناً، المؤمن لأنه لما اشتغل بطاعة الله وعبوديته والإنفاق في وجوه البر والخير صار كالحر المالك الذي ينفق سراً وجهراً في طاعة الله، وابتغاء مرضاته وهو قوله سبحانه وتعالى (فهو ينفق منه سراً وجهراً) فأثابه الله الجنة على ذلك. فإن قلت: لم قال عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، وكل عبد هو مملوك وهو غير قادر على التصرف؟ قلت: إنما ذكر المملوك ليتميز من الحر لأن اسم العبد يقع عليهما جميعاً لأنهما من عباد الله، وقوله: لا يقدر على شيء احترز به عن المملوك المكاتب والمأذون له في التصرف، لأنهما يقدران على التصرف واحتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً (هل يستوون) ولم يقل هل يستويان يعني هل يستوي الأحرار والعبيد، والمعنى كما لا يستوي هذا الفقير البخيل، والغني السخي كذلك لا يستوي الكافر العاصي، والمؤمن الطائع، ثم قال تعالى (الحمد لله) حمد الله نفسه لأنه المستحق

[١٠٢١] النحل ٧٥.

لجميع المحامد ولأنه المنعم المتفضل على عباده، ولكي يحمده الحامدون ويشكره الشاكرون من خلفائه في الأرض، وهو الخالق الرازق لا هذه الأصنام التي عبدها هؤلاء، فإنها لا تستحق الحمد لأنها جماد عاجز، لا يد لها على أحد ولا معروف، فتحمد عليه إنما الحمد الكامل لله لا لغيره فيعجب على جميع العباد، حمد الله لأنه أهل الحمد والثناء الحسن (بل أكثرهم) يعني الكفار (لا يعلمون) يعني أن الحمد لله لا لهذه الأصنام (وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم) هو الذي ولد أخرس فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم، والأبكم الذي لا يَفهم ولا يُفهم (لا يقدر على شيء) هو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل، (وهو كل على مولاه) أي ثقيل على من يلي أمره ويعوله وقيل أصله من الغلظ وهو نقيض الحدة، يقال كل السكين إذا غلظت شفرته وكل اللسان إذا غلظ فلم يقدر على النطق، وكل فلان عن الأمر إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه، فقوله وهو كل على مولاه أي غليظ ثقيل على مولاه (أينما يوجهه) أي حيثما يرسله ويصرفه في طلب حاجة أو كفاية مهم (لا يأت بخير) يعني لا يأت بنجاح لأنه أخرس عاجز لا يحسن ولا يفهم {هل يستوي} يعني من هذه صفته (هو) يعني صاحب هذه الصفات المذمومة **{ومن يأمر بالعدل}** فالذي يأمر بالعدل هو سليم الحواس نفّاع ذو كفايات ذو رشد وديانة يأمر الناس بالعدل والخير، وذلك فالذي يأمر بالعدل مؤمن مستخلف في الأرض، (وهو) في نفسه (على صراط مستقيم) على سيرة صالحة ودين قويم وهو المتماثل في الخلق مع أحسن تقويم، ولذا فالآمر بالعدل، عالم قادر مستقيم في نفسه حتى يتمكن من الأمر بالعدل، وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده من إنعامه ويشملهم به من آثار رحمته وألطافه وللأصنام التي هي أموات جماد، لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تنطق ولا تعقل، وهي كلٌّ على عابديها، لأنها تحتاج إلى كلفة الحمل والنقل والخدمة[١٠٢٢].

فالله هو العدل ولا يتحقق العدل إلا به ومنه، فلولا أن العدل هو الله لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، فهو العدل اسما وصفة وفعلاً، وهو العدل في توزيع الأرزاق وإنزال

[١٠٢٢] تفسير الخازن، ج ٤ ، ص ١٩٧

المطر وإنبات النبات وشروق الشمس وغروبها ومستوى حرارتها، فكل شيء عنده بمقدار، وعدله المطلق يغطي جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة، ويشمل شتى مناحي الحياة للإنسان من المهد إلى اللحد، ولا غرابة في ذلك لأنه العدل، وقد فطر المخلوقات على العدل، ولأنه العدل المطلق فهو جلّ وعلا لا يظلم أحدا ولو بمقدار ذرة يقول العدل المطلق في كتابه العزيز: {وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}[١٠٢٣].

فمن العدل أن يُخْرِجَ الغني جزءًا من مال الله الذي استخلفه فيه حتى يشعر الفقير بالأمن إزاء توفير متطلبات الحياة، وأن يكون هذا الإنفاق نابع من قناعة صادقة من قِبَل الغني دون رياء وحب للظهور بمظهر المنفق البار المؤمن لأن ذلك السلوك يضعه في حزب الشيطان ومن يكن الشيطان له صاحب فبئس الصحبة، ولأن الله العدل فهو يجازي على الإحسان بالإحسان ويجازي بمثقال الذرة لأنه العدل المطلق قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ}[١٠٢٤]، ويذكرنا الله في الآية السابقة بأنه لا يظلم ومن لا يظلم فلابد أنه العدل المطلق، والذي يشهد على ذلك الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بل يشهد على الأمم جميعها لأنه المبعوث للناس كافة، ومبعوث للثقلين الإنس والجن لذا فقد وجب على الله من باب العدل حتى تتحقق الشهادة العظمى للنبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغ رسالته لجميع الأمم في كل مكان على الأرض حتى لا تكون هناك حجة للناس على الله، وهذا عدل مطلق بدين مطلق للكافة رحمة فمن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل يضل عليها.

[١٠٢٣] النساء، ٣٩ ـ ٤٢.

[١٠٢٤] الرحمن، ٦٠.

والله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهذا العلم المطلق أحد أدوات تحقيق العدل المطلق لأنه لو لم يكن علمه محيط بكل متحرك وساكن لما توفر العدل، ولنأخذ على سبيل المثال: الكلمة التي يعرفها العامة والتي تجري على ألسنة أهل العدل في الأرض (القضاة) فإنهم يحكمون بالبراءة لعدم توفُّر الأدلة، أمّا العدل المطلق والعلم المطلق فعلمه يحيط بكل شيء فيقول تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[١٠٢٥].

وهنا قد يطرأ على ذهن القارئ سؤال وهو كيف يتمكن الخليفة من أن يكون في ركب العدل المطلق؟ نقول: إنه إذا التزم بالمنهج الذي أراده العدل المطلق كما أنزل دون زيادة ولا نقصان فإنه يرى بنور العدل المطلق ويستطيع أن يفجِّر من قواه الباطنية أو أن يرى ببصيرته ما لم يره غيره وهو ما يسمى بالبصيرة أو الإلهام أو الرؤية بنور الاسم الذي تخلق به أو من خلال الرؤية الجامعة بنور الله فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ}[١٠٢٦] قَالَ لِلْمُتَفَرِّسِينَ"[١٠٢٧].

ونور الله توفيقه للخليفة الذي يلقي في قلبه النور فيعدل ويحقق العدل الإلهي فعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بتوفيق الله"[١٠٢٨]. وقد جاء في تفسير المتوسمين الذين يتفرسون ويرون بنور الله وتوفيقه:

قال تعالى: {إنَّ في ذلك لآياتٍ للمتوسمين). المتوسمون هم المتصفون بالصفات والخصال الحميدة، المتميزون عن غيرهم من الذين ينظرون وكأنهم لا يبصرون، وهذه من صفات الخليفة الذي يبصر في نفسه حتى يُرى الحقيقة التي تجعله يعمل عملا صالحا في مرضات الله تعالى، وهو الذي يعتبر من كل أمر ويتذكر ويتفكر في خلق السماوات والأرض وهو

[١٠٢٥] غافر، ١٩، ٢٠.

[١٠٢٦] الحجر، ٧٥.

[١٠٢٧] سنن الترمذي ج ١٠ ، ص ٣٩٩

[١٠٢٨] أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني ج ١ ، ص ١٦٢

مدرك لقوله تعالى: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[١٠٢٩]. ولذلك فالخليفة هو المتفرس الذي ينظر في آيات الله فيتعظ ويستغفر ويتوب ويحمد ربه ويشكره على ما أنعم عليه من نعم وفضائل ومكارم حسان، وهو المعتبر بقلبه إيمانا تاما به واحداً أحداً لا شريك له والمحتكم بأمره وحكمته تعالى مصداقا لقوله عز وجل: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[١٠٣٠].

ومن أراد أن يتحلى بنور العدل المطلق عليه أن يدرب نفسه على الصبر في معرفة الحق الذي يُمكِّنه من بلوغ الحقيقة، وبهذا الشكل نصل إلى أن الله هو العدل المطلق لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولا يستطيع ذلك إلا هو جل وعلا، ومن هنا فالعدل المطلق لله لأنه عنده الموازين القسط التي يعطي من خلالها كل عبد حقّه وهو الغني عن الموازين ولكنه من باب رحمته أراد أن يقيم الحجة على خلقه بما يستطيعون فهمه من قوانينهم التي يتعاملون بها فجاء لهم على سبيل المثال بألفاظ تتناسب وعقولهم وإدراكهم، وهذا لا يمنع من ووجود الموازين القسط لتكون لله الحجة الدامغة مصداقا لقوله تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[١٠٣١].

ونضع الموازين القسط، الموازين جمع ميزان والقسط العدل أي نقيم الموازين العادلة التي نزن بها صحائف الأعمال ونحضرها أو الأعمال باعتبار التجوهر والتجسم وجعل الموازين باعتبار تعدد الأعمال أو لأن لكل شخص ميزانا. وبذلك يضع العادل المطلق موازين ليستمد منها العادل بالإضافة مقاييس تُمكِّن من إصدار أحكام محايدة لأجل ترسيخ العدالة بين الناس وسيادة صفة العدل في الفعل والسلوك.

[١٠٢٩] آل عمران، ١٩١.

[١٠٣٠] البقرة، ٢٦٩.

[١٠٣١] الأنبياء ٤٧.

ووصف الموازين بالقسط لأنها قد لا تكون مستقيمة ليوم القيامة، أي لأجل جزائه فلا تظلم نفس، من النفوس شيئا حقا من حقوقها على أن يكون مفعولا ثانيا لتظلم لأنه بمعنى تنقص وتنقص يتعدى إلى مفعولين يقال نقصه حقه من الظلم بل يوفى كل ذي حق حقه إن خيرا فخيرا وإن شرا فشر على أن يكون مفعولا مطلقا (وان كان) أي العمل المدلول عليه بوضع الموازين مثقال حبة من خردل، والمثقال ما يوزن به من الثقل أي مقدار حبة كائنة من خردل، وإن كان في غاية القلة والحقارة فإن حبة الخردل مثل في الصغر (أتينا بها) بقصر الهمزة من الإتيان والباء للتعدية أي أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لإضافته الى الحبة {وكفى بنا حاسبين) إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: الميزان حق ووجهه أن الله تعالى يحدث في صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب[١٠٣٢].

وعليه، توزن الأعمال بميزان الإخلاص العدل، فما ليس فيه إخلاصٌ لا يُقْبَل ولا عدل فيه، وتوزن الأحوالُ بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجابُ لا يُقْبَل، وتوزن الأنفاسُ فما فيه حظوظ ومساكنات لا يُقْبَل. ويقال ينتصِفُ المظلومُ من الظالم، وينتقم الضعيفُ من القوي، ويقال ما كان لغير الله يَصْلُح للقبول، ويقال يكافئ كلاً بما يليق بعمله فَمَنْ لم يرحم عبادَه في دنياه لا يَرْحَمهُ الله، ومن لم يُحسِن إلى عباده تقاصر عنه إحسانه، ومَنْ ظلم غيره كوفئ بما يليق بسوء فعله.

وقوله: (فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً) أي بالعدل يُجازي المظلومين وينتقم من الظالمين، ويُنْصِفُ المظلومَ من مثقال الذرة ومقياس الحَبَّة، وإن عَمِلَ خيراً بذلك المقدار فسيلقى جزاءه، ويجد عِوَضَه ويتقي ربه في كل قول وفعل وسلوك يقدم عليه أو ينوي قوله أو القيام به.

قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا

[١٠٣٢] تفسير حقي، ج ٨، ص ٢٠٠.

وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ}[١٠٣٣].

وقال الله تعالى:

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[١٠٣٤].

بناء على ما تقدم فإن العدل المطلق هو لله تعالى، أما العادل النسبي فهو الخليفة، والسبب أن العدل المطلق لا يتحقق على يد بشر، فهو صفة إلهية لا تقارن بقول عادل ولا فعل عادل ولا سلوك عادل، فالعادل هو الفاعل بما يرى ويسمع، ولأنه كذلك فهو لا يمكن أن يرى أو يستمع بالمطلق، ولهذا كانت النسبية متلازمة في جميع أحكامه وأفعاله وأقواله وسلوكياته، والملك لله وحده والعدل لله وحده، والصفات الحسان بالمطلق لله وحده وبالنسبية للعادل المستخلف في الأرض. ولأنه عادل جعل الذكر والأنثى {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١٠٣٥]. وقوله تعالى: {وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى}[١٠٣٦]. ولأنه عادل جعل الحق في مواجهة الباطل حتى يدمغه فيزهق، ولأنه عادل خلق الليل والنهار والأشجار والثمار والجنة والنار، والرحمة والاستغفار، فسبحانه يعلم الغيب بعدله ويعلم السر في باطنه وظاهره وهو على كل شيء قدير.

اللهم باسمك العدل ندعوك أن تجعل العدل بيننا رحمة، فلا يظلم أحدنا الآخر، ولا يتكل أحدنا على غيرك، واجعلنا من الذين يوفون الكيل ولا يطففون الميزان، ولا يطغون على العباد

[١٠٣٣] سبأ ١ ـ ٥.

[١٠٣٤] الزلزلة، ١ ـ ٨.

[١٠٣٥] الذاريات، ٤٩.

[١٠٣٦] النجم ٤٥.

ولا يظلمون أحدا. اللهم اجعل العدل في نفوسنا يقيناً ونزهة تُروِّض الأنفس وتطمئنها وتبرئ من النار وتدخل الجنة.

اللهم إن اسمك العدل وقولك العدل وفعلك العدل وغايتك العدل، فاجعلنا باسمك وقولك وفعلك وغايتك على العدل ثابتين واهدنا صراطك المستقيم إنك بنا رؤوف رحيم يا الله.

اللهم إننا نشهد أن العدل حق، فاجعله لنا حقا حتى لا نُظلم، واجعله بيننا حقا عنه لا نغفل، اللهم اجعلنا من الذين يؤدون الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس يحكموا بالعدل، واجعلنا على طاعة قولك: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[١٠٣٧]

اللهم اجعلنا من المستخلفين المصلحين وغير سافكي الدماء فيها بغير حق واجعلنا للمتقين إمام واجعلنا من الوارثين في الجنة أنت مولنا بك آمنَّا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فالحمد لك.

[١٠٣٧] النحل ، ٩٠ . ٩٢.